

٢٠١٩
٢٠١٩
٢٠١٩

الاستعطاف في الشعر الأندلسي

عصر ملوك الطوائف

(422 - 484 هـ)

إعداد الطالب

محمد جاسر جبالي أسعد

إشراف

الأستاذ الدكتور وائل أبو صالح

قُدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في
اللغة العربية بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس - فلسطين .

أولها هادي

أولها هادي (أولها هادي) (أولها هادي) (أولها هادي) (أولها هادي) (أولها هادي)

أولها هادي (أولها هادي) (أولها هادي) (أولها هادي) (أولها هادي) (أولها هادي)

أولها هادي (أولها هادي) (أولها هادي) (أولها هادي) (أولها هادي) (أولها هادي)

أولها هادي (أولها هادي) (أولها هادي) (أولها هادي) (أولها هادي) (أولها هادي)

أولها هادي (أولها هادي) (أولها هادي) (أولها هادي) (أولها هادي) (أولها هادي)

أولها هادي (أولها هادي) (أولها هادي) (أولها هادي) (أولها هادي) (أولها هادي)

أولها هادي (أولها هادي) (أولها هادي) (أولها هادي) (أولها هادي) (أولها هادي)

الشكر والتقدير

أتقدّم بالشكر الجزيل والامتنان العظيم لأستاذي
الفاضل الدكتور وائل أبو صالح الذي كان له فضل كبير
عليّ في تعميق معرفتي بالأندلس ، تاريخها وأدبها ، وفي
مساعدتي باختيار موضوع دراستي ، وقد اتّسع صدره ؛
فأشرفه على بحثي، وأرشدني إلى الصواب ، ومنحني من
وقته وعلمه ما أنار ليّ الطريق ، وذلك أمامي الصعاب ،
كما أتقدّم بالشكر والامتنان لعضوي لجنة المناقشة
الفاضلين الأستاذ الدكتور محمد قاسم نوفل ، والدكتور
تيسير عودة ؛ لتفضّلهما بقراءة بحثي، وتوجيههما لي
الملاحظات القيّمة .

قال القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيهقي :
(إنّي رأيتُ أنّه لا يكتبُ إنسانٌ كتاباً في يومه إلا قال
في نفسه : لو كان غير هذا لكان أحسن ، ولو زيدَ لنا
لكان يُستحسن ، ولو قُدِّمَ هذا لكان أفضل ، ولو تُركَ هذا
لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء
النقص على جملة البشر)⁽¹⁾ .

(1) يُنسب هذا القول خطأ إلى العماد الأصفهاني ، والصحيح أنه للقاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيهقي
وكان قد بعث به إلى الأصفهاني . ينظر : إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين : محمد بن محمد
الحسيني الزبيدي ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط 1 ، 1989م ، ج 1 : 4 .

المحتويات

ت	الإهداء	•
ث	الشكر والتقدير	•
ح	المحتويات	•
د	فهرس الملاحق	•
ذ	الملخص باللغة العربية	•
ر	المقدمة	•
1	التمهيد	•

الفصل الأول

6	شعر الاستعطاف معناه وتطوره	•
10	العصر الجاهلي	•
15	في عصر صدر الإسلام	•
19	في العصر الأموي	•
21	في العصر العباسي	•
25	في العصر الأندلسي السابق لعصر ملوك الطوائف	•

الفصل الثاني

30	الشعراء المستعطفون في عصر ملوك الطوائف	•
31	استعطاف الحاكم	•
32	ابن زيدون	•
50	ابن عمار	•
63	المعتمد بن عبّاد	•
69	عبد الملك بن غصن الحجاري	•
72	ابن اللبّانة	•
76	شعراء آخرون	•
81	نظرات في الأشعار الاستعطافية الموجهة إلى الحاكم	•
88	استعطاف المحبوبة	•
88	ابن زيدون	•

102	-----	ابن حداد	•
104	-----	شاعران آخران	•
106	-----	نظرات في الأشعار الاستعطافية الموجهة إلى المحبوبة	•
108	-----	استعطاف الوالد	•
108	-----	المعتمد يستعطف أباه	•
111	-----	ابنا المعتمد يستعطفان والدهما	•
115	-----	نظرات في الأشعار الاستعطافية الموجهة إلى الوالد	•
الفصل الثالث			
118	-----	الأغراض الشعرية المرتبطة بشعر الاستعطاف	•
119	-----	المديح	•
127	-----	الغزل	•
134	-----	الفخر	•
138	-----	الوصف	•
143	-----	الهجاء	•
144	-----	الرتاء	•
147	-----	الحكمة	•
الفصل الرابع			
151	-----	السمات الفنية لشعر الاستعطاف	•
153	-----	بناء القصيدة	•
159	-----	اللغة	•
172	-----	الخيال والصور	•
180	-----	المحسنات اللفظية والمعنوية	•
188	-----	الأوزان والقوافي	•
191	-----	استلهاج التراث	•
198	-----	الخاتمة	•
201	-----	المصادر والمراجع	•
B	-----	الملخص باللغة الإنجليزية	•

فهرس الملاحق

- الملاحق ----- 210
- ملحق (1) : فهرس الشعراء والأعلام والقبائل ----- 211
- ملحق (2) : فهرس البلدان والأمكنة ----- 216
- ملحق (3) : فهرس الآيات القرآنية ----- 218
- ملحق (4) : الأمويون في الأندلس ----- 219
- ملحق (5) : دويلات الطوائف في الأندلس وخريطة تبين مواقعها ----- 220

الملخص

هذا البحث يتناول دراسة شعر الاستعطاف في الشعر الاندلسي في عصر ملوك الطوائف 422-484هـ وقد قُسم البحث إلى تمهيد وفصول أربعة.

أما التمهيد فأشير فيه إلى بداية عصر ملوك الطوائف ونهايته، كما تمّ الحديث فيه عن الحالتين السياسية والأدبية اللتين سادت فيهما، حيث كانت الحالة السياسية متردية، أما الحالة الأدبية فقد شهدت ازدهارا لم يسبق له مثيل .

وخصّص الفصل الأول للحديث عن معنى الاستعطاف، كما تمّ تتبع الأشعار الاستعطافية في العصور السابقة ابتداءً بالعصر الجاهلي وإنهاءً بالعصر العباسي، حيث لم يخلُ أيّ عصر من تلك العصور من أشعار نُظمت في الاستعطاف، إلا أنّ جلّها كان مُوجهاً للحاكم.

وأفرد الفصل الثاني للحديث عن الشعراء المستعطفين في عصر ملوك الطوائف ودوافعهم للاستعطاف، حيث لوحظ أنّ استعطافهم يندرج في أقسام ثلاثة هي: استعطاف الحاكم واستعطاف المحبوبة واستعطاف الوالد، وتوّعت أساليب الشعراء في الاستعطاف، فمنهم من استعطف مباشرة، ومنهم من خاطب وسيطا عله يتوسط له ويتشفع فيه، ومنهم من استعطف تلميحاً.

أما الفصل الثالث فقد تناول الحديث عن أهم الأغراض الشعرية التي امتزجت بالاستعطاف، حيث كان المدح ملازماً لشعر الاستعطاف منذ العصر الجاهلي، أما في عصر ملوك الطوائف فقد امتزج الاستعطاف بأغراض شعرية أخرى حيث استقصيت تلك الأغراض وعُرضت شواهد عليها.

وتمّ الحديث في الفصل الرابع عن أبرز السمات الفنية لشعر الاستعطاف في عصر ملوك الطوائف، كبناء القصيدة، والأخيلة والصور، والمحسنات اللفظية والمعنوية، كما تمّ التطرق لوصف اوزان القصائد والمقطوعات الاستعطافية وقوافيها، وخُتم هذا الفصل بالحديث عن استلهاهم الشعراء التراث في أشعارهم الاستعطافية .

وقد أتبع البحث بفهرسين: الأول للشعراء والأعلام والقبائل، والثاني للبلدان والأمكنة، كما أتبع بملحق يبين الحكام الأمويين الذين تعاقبوا على حكم الأندلس كي يسهل التعرف على بدايات عصر الطوائف، ثم أضيفت خريطة تُبين مواقع أشهر دويلات الطوائف وأعطيت نبذة موجزة عنها.

المقدمة

الأندلس بلاد عزيزة ، ما إن يمرّ ذكرها على الآذان حتى تعترى النفس أشجاناً وأحزاناً ؛ فضياعها يشكّل - في نظر العقلاء ممّن يفقهون التاريخ وأحداثه - واحدة من النكبات الكبرى والفواجع العظمى التي حلّت بالإسلام والمسلمين ، ولا نبالغ إذا قلنا إنّها أكبر نكبة حلّت بالمسلمين طيلة تاريخهم الطويل .

لقد مكث العرب المسلمون في الأندلس ثمانية قرون ، وكانت الأندلس خلالها أرضاً إسلامية خالصة ، وعندما أخرجوا منها لم يبق وراءهم أحدٌ يتكلم بلسان عربي ، أو يعتقد الإسلام ديناً ، والعرب المسلمون دخلوا بلاداً كثيرة ، كما دخلوا الأندلس ، ولكنهم عندما خرجوا ، أو أخرجوا من بعض تلك البلاد خلقوا وراءهم عروبة وإسلاماً معاً ، أو إسلاماً يدين به قسم عظيم من سكان تلك البلاد ، أمّا الأندلس فلم يترك العرب المسلمون وراءهم فيها إلاّ آثاراً عمرانية ما زال لسان حالها يتحدث عن حضارة لهم سادت ثم بادت ، وعن مجد لهم بسق ثم هوى .

كانت القرون الثمانية التي شهدت مكوث العرب المسلمين في الأندلس فترة ناصعة ، كلّها ازدهار وتألّق ، وكان الازدهار والتألّق ينعكسان أحياناً على الجانب السياسي والعسكري ، وأحياناً على الجانب الأدبي والفني ، وأحياناً أخرى على الجانب العمراني .

لقد استهواني هذا الازدهار ، وذلك التألّق ، كما استهوى غيري الكثير ، لذا لم يكن اختياري لموضوع له علاقة بالأندلس حدناً اقتضته الضرورة ؛ لأنّ اهتمامي بالأندلس يرجع إلى أيام دراستي الثانوية عندما ألممتُ بطرف من تاريخ الأندلس ، ووجدتُ نفسي مشدوداً إليها ، متعلقاً بها ، أقرأ بشغف كلّ كتاب تقع عليه يدي يتحدث عنها ، وأتطلّع إلى معرفة المزيد من تاريخها وأدبها ، وزاد من إصراري على اختيار موضوع أدبي أندلسي قلّة الباحثين في الأندلسيات ، ذلك أنّه لم يسبقني في البحث بموضوع يتعلق بالأدب الأندلسي إلاّ قلّة قليلة من الباحثين على الرغم من مرور سنوات على إنشاء برنامج الدراسات العليا في جامعة النجاح .

اخترتُ موضوع (الاستعطاف في الشعر الأندلسي في عصر ملوك الطوائف) ليكون موضوعاً أبحث فيه بعدما تيقنتُ أنّ هذا الموضوع لم يُبحث فيه من قبل ، ورأيتُ - وأنا بصدد دراسته - تقسيمه إلى فصول أربعة وتمهيد .

أمّا التمهيد فأشرتُ فيه إلى بداية عصر الطوائف ونهايته ، ثم عرضت فيه للحالتين السياسية والأدبية اللتين سادتتا فيه ، وبينتُ أن الحالة السياسية كانت متردية ، أمّا الحالة الأدبية فكانت على النقيض من ذلك ، حيث شهد هذا العصر ازدهاراً أدبياً وفنياً لم يسبق له مثيل .

وخصصتُ الفصل الأول للحديث عن معنى الاستعطاف ، وتتبع الأشعار الاستعطافية في العصور السابقة لعصر ملوك الطوائف ابتداءً بالعصر الجاهلي وانتهاءً بالعصر العباسي ، وأوضحتُ أن شعر الاستعطاف عُرف منذ العصر الجاهلي في أشعار شعراء سبقوا النابغة الذبياني الذي كان يُظنُّ أنه رائد هذا الفن الشعري ، ثم لاحظتُ أن شعر الاستعطاف وُجد في شتى العصور ، لكنه كان مقتصرأ على استعطاف الحاكم.

وأفردتُ الفصل الثاني للحديث عن الشعراء المستعطفين في عصر ملوك الطوائف ، ورأيتُ أن استعطافهم يندرج في أقسام ثلاثة هي : استعطاف الحاكم ، واستعطاف المحبوبة ، واستعطاف الوالد ، ثم لاحظتُ أن الشعراء المستعطفين سلكوا مسالك شتى كي ينالوا عطف من يستعطفون ، ويستجلبوا قلبه ؛ فمنهم من استعطف تصريحاً ، ومنهم من خاطب وسيطاً علّه يتوسط له ويتشفع فيه ، ومنهم من استعطف تلميحاً وهو ما انفرد به المعتمد بن عباد الملك المرزأ .

وحاولتُ في هذا الفصل أن أربط بين استعطاف الشاعر وعزة نفسه ، حيث بينتُ أن استعطاف الشعراء واكبه غالباً تذللهم ، وإهراق ماء وجوههم ، وتخليهم عن عزّة نفوسهم وكرامتها .

أمّا الفصل الثالث فقد عرضتُ فيه للأغراض الشعرية التي امتزجت بشعر الاستعطاف ، ورأيتُ أن المدح كان ملازماً للاستعطاف منذ العصر الجاهلي ، أمّا في عصر الطوائف فقد مزج الشعراء استعطافهم بأغراض شعرية أخرى ؛ كالغزل والهجاء والوصف والرثاء والحكمة ، حيث استقصيتُ تلك الأغراض ، وعرضتُ شواهد شعرية عليها .

وتحدثتُ في الفصل الرابع عن أبرز السمات الفنية لشعر الاستعطاف في عصر ملوك الطوائف ؛ فتحدثتُ فيه عن بناء القصيدة ، كما تحدثتُ عن الأخیلة والصور وعن المحسنات اللفظية والمعنوية التي شاعت في تلك الأشعار ، وعرضتُ لوصف أوزان القصائد والمقطوعات الاستعطافية وقوافيها ، ثم ختمتُ هذا الفصل بالحديث عن استلهم الشعراء التراث في أشعارهم الاستعطافية .

وبعد ، فإنّ دراستي هذه تعدّ دراسة متواضعة وجهداً بسيطاً في طريق طويل يحتاج لمزيد من البحث والدراسة ، وكلّ ما أرجو منها أن أضيء بها مشعلاً من مشاعل النور ينير طريق الباحثين ، ويرشد من يسرون فيه .

ولا بدّ من وقفة أتقدّم فيها بالشكر الجزيل والامتنان العظيم لأستاذي الفاضل الدكتور وائل أبو صالح الذي كان له فضل عظيم عليّ في تعميق معرفتي بالاندلس تاريخها وأدبها ، وفي مساعدتي باختيار موضوع دراستي ، وقد اتسع صدره فأشرف عليّ بحثي ، وأرشدني إلى الصواب ، ومنحني من وقته وعلمه ما أنار لي الطريق ، وذلك أمامي الصعاب ، كما أتقدّم بالشكر والامتنان لعضوي لجنة المناقشة الفاضلين الأستاذ الدكتور محمد قاسم نوفل والدكتور تيسير عودة ؛ لتفضلهما بقراءة رسالتي ، وتوجيههما لي الملاحظات القيمة .

وأخيراً ، فلست أدعي الكمال لدراستي هذه ، فالكمال لله وحده ، وإنما أنا بشر مجتهد أصيب وأخطئ ، وللمجتهد أجران إن أصاب ، وأجر واحد إن أخطأ ، الله أسأل أن أنال الأجرين ، وأن أكون ممن يجتهد فيصيب ، إنه سميع مجيب .

التمهيد

مصر ملوك الطوائف والحياة السياسية
والأدبية في ظلّه

التمهيد

مصر ملوك الطوائف والحياة السياسية والأدبية في ظلّه

كان الحكم المستنصر آخر خلفاء بني أمية الأندلسيين الأقوياء ، ولما توفي في العام 366هـ بويغ بعده بالخلافة لابنه هشام الثاني الملقّب بـ (المؤيد) ، وكان هشام هذا فتىً صغيراً وحاكماً ضعيفاً ؛ ولأنّ الحكم يحتاج إلى القويّ البصير ، والسياسيّ القدير فقد أفلت الأمر من يده ، وتولى أمور البلاد رجلٌ كئيبٌ فطن هو (الحاجب المنصور)⁽¹⁾ الذي نحى الخليفة جانباً ، وجعله رمزاً لا حول له ولا قوة ، وأصبح هو الأمر الناهي في الدولة ، وعلى الرغم من ذلك فقد كانت أيامه استمراراً لعهد الخلافة من حيث القوة والبأس ؛ فتوسعت في عهده رقعة الأندلس توسعاً لم يسبق له مثيل ، وعندما توفي الحاجب المنصور في العام 392هـ أعقبه في الحجابة ابنه المظفر ؛ فمضى على سيرة أبيه حزمًا وبأساً وعلماً ، ثم خلفه أخوه عبد الرحمن الملقب بـ (شنجول) عام 399هـ ، وبتوليّه الحجابة بدأت سلسلة التراجع والضعف ، فما أن أطلّ فجر القرن الخامس الهجري حتى بدا جلياً أنّ عهد الوحدة والمنعة والعزة في ربوع الأندلس قد آذن بالمغيب ، لقد تولى عبد الرحمن الحجابة مدةً عشرين عاماً ، ولم يكن يتحلّى بأخلاق الملوك والساسة التي تحلّى بها أبوه وأخوه من قبله ؛ وبسبب سوء إدارته وحماسة تصرفاته فقد تعاقب على الأندلس مدةً حجابته ثلاثة عشر خليفة ، منهم من تولى مرتين ، ومنهم من حكم لأيام معدودة ، وتُعرف هذه الفترة في تاريخ الأندلس بعهد الفتنة⁽²⁾ .

استخفّ الأندلسيون بخلفائهم الصوريين ، وبلغ استخفافهم ذروته في منتصف ذي الحجة عام 422هـ عندما خلّع الخليفة هشام الثالث الملقّب بـ (المعتد بالله) ، وأسند

(1) الحاجب المنصور : هو محمد بن أبي عامر أمير الأندلس ، أصله من قبيلة معافر القحطانية ، دخل كاتباً في خدمة الخليفة الحكم الثاني ، نال رضى (صبح) زوج الخليفة ، ثم أصبح حاجب ابنها هشام الثاني ، فقام بشؤون الدولة واستبَدَّ بالأمور ، وغزا أكثر من خمسين غزوة ، ودامت له الإمارة ستة وعشرين عاماً ، توفي في إحدى غزواته نحو عام 393هـ . ينظر : بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس : أحمد بن يحيى بن عميرة الضبي ، دار الكاتب العربي (دم) ، 1967م : 547 .

(2) الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين : منجد مصطفى بهجت ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، ط1 ، 1407هـ / 1986م : 20 .

أهالي قرطبة - حاضرة الدولة - أمرهم إلى شيخهم ووزيرهم أبي الحزم بن جهور الذي ألغى الخلافة⁽¹⁾ ، وأقام حكومة ضمت عدداً من مدن وسط الأندلس ، أما المدن الأندلسية الأخرى التي لم تخضع لهذه الحكومة فقد استغل حكامها وولاتها انهيار الخلافة؛ فاستبَدوا بمدنهم وأعلنوها إمارات أو ممالك ، ونصبوا أنفسهم أمراء أو ملوكاً عليها ، وبهذا بدأ ما يسمى بعصر ملوك الطوائف .

قامت في الأندلس خلال هذا العصر عدّة دويلات هزيلة ، وقد تفاوتت هذه الدويلات في المساحة والقوة ، كما تفاوتت في أعمارها ، فقد كانت القوية منها - أحياناً - تحتوي الضعيفة ؛ لذا فقد اختلف عدد هذه الدويلات من زمن لآخر ، وأهم تلك الدويلات :

- مملكة سرقسطة في الثغر الأعلى وحكمها بنو هود .
- إمارة قرطبة في وسط الأندلس وحكمها بنو جهور .
- مملكة طليطلة في الثغر الأوسط وحكمها بنو ذي النون .
- مملكة بطليوس في الثغر الأدنى وحكمها بنو الأقطس .
- مملكة إشبيلية في غربي الأندلس وحكمها بنو عبّاد .
- مملكة بننسية في شرقي الأندلس وتداول حكمها عدد من الأسر .
- مملكة غرناطة في جنوبي الأندلس وحكمها بنو زيري⁽²⁾ .

وقامت بين دويلات الطوائف حروب متصلة ، وكانت القوية منها تغلب الضعيفة فتزيل سلطانها وتضمها إليها ، ولم يتوان ملوك بعضها عن أن يستجدوا بملوك الفرنجة؛ فيغتنم هؤلاء الفرصة ويهاجمون الأندلس ، ويستولون على عواصمها ، ويخضعون ملوكها ، ويجعلونهم عمالاً لهم .

وهكذا صارت الدولة إلى دويلات ، (وغدا لكل دويلة ملك أو أمير ، وراحت هذه الدويلات تتصارع ويكيد بعضها لبعض ، وجعل كل حاكم يتربص بالآخر ، ويتطلع إلى ضمّ ملكه إليه ، والانقضاض عليه على حين كان في الوقت نفسه يتوجس خيفة من جاره ، ويدأب على الحذر منه ، ويجهد في إنفاق المال على الحصون والقلاع ، والاستكثار من المرتزقة والأعوان ، حتى غدت مشكلة الحدود الداخلية تستأثر باهتمام

(1) التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة : عبد الرحمن علي الحجي ، دار القلم - دمشق ، ط4 ، 1415هـ / 1994م : 323 .

(2) التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة : عبد الرحمن الحجي : 355 . وينظر : الاتجاه السياسي الإسلامي في الشعر الأندلسي : منجد مصطفى بهجت : 22 .

الحكّام ؛ وبذلك انكشفوا أمام العدو ، واستسلموا لمشيئته ، ورضوا بدفع الجزية إليه ، بل كثيراً ما استعانوا به على إخوتهم وأبناء عمومته في سبيل استرداد حقوقهم أو تحقيق مآربهم (1) ، وعندما أقيمت دولة المرابطين البربرية في المغرب شعر حكّام الطوائف أنّها تشكّل خطراً عليهم ، (وبين ناري النصرارى في الشمال والبربر في الجنوب وقف ملوك الطوائف وقد وهن أمرهم ، وأضعفهم الترف والبذخ ، لا يكاد سلطان أحد منهم يتخطى حدود بلده ، ومثل هذا الحال جدير بأن يُشكى منه) (2) ، ومن هنا قال الشاعر :

مما يُقبَح عندي ذِكرَ أندلسٍ أسماءُ مَغْتَضِدٍ فيها ومُغْتَمِدِ
ألقابُ مملكةٍ في غير موضعِها كألهرٍ يحكى انتفاخاً صولةً الأسدِ (3)

[البسيط]

وإذا كانت الحالة السياسية في هذا العصر متردية فإنّ حالة العلوم والفنون كانت على النقيض من ذلك ؛ فالتنافس بين حكّام الطوائف لم يكن تنافساً سياسياً فقط ، بل كان أيضاً عمرانياً وأدبياً وفنياً ، حيث تنافس هؤلاء الحكّام في العمران ، كما تنافسوا في مجالس الأدب والطرب ، وفي تشجيع الشعراء والأدباء والعلماء والفنانين ، ومن الإنصاف لهؤلاء الحكّام أن نذكر أنّهم رعوا حركة الأدب ، وقربوا أصحابها ، وكانت عواصمهم أسواقاً لها ، وكان منهم أدباء وشعراء ، (ومن هنا كان هذا الزمان عصرراً عظيماً للشعر والشعراء ، وكان لكلّ أمير من أمراء الطوائف ميزة اختصّ بها دون جيرانه ؛ فامتاز المتوكّل صاحب بطليوس بالعلم الغزير ، وامتاز ابن ذي النون صاحب طليطلة بالبذخ البالغ ، وفاق ابن رزين صاحب السهلة أنداده في الموسيقى ، واختصّ المقتدر بن هود صاحب سرقسطة بالعلوم ، وبرز ابن طاهر صاحب مرسية أقرانه بالنثر الجميل المسجوع ، أمّا الشعر فكان أمراً مشتركاً بينهم جميعاً يلقي منهم كلّ رعاية ، ولكن عناية بني عبّاد أصحاب إشبيلية به كانت أعظم وأشمل) (4) .

(1) ملاحم الشعر الأندلسي : عمر الدقاق ، منشورات دار الشرق - بيروت ، 1975 : 129 - 130 .

(2) تاريخ الفكر الأندلسي : آنخل بالنثيا ، ترجمة حسين مؤنس ، (د.ن) القاهرة ، 1955م : 77 .

(3) البيتان لابن عمار . ينظر : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ابن خلكان ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر - بيروت ، ج 4 ، (د.ت) : 428 . وينظر : سير أعلام النبلاء : شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي ، تحقيق مأمون صاعرجي ، جزء 18 ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، ط 7 ، 1410هـ / 1990م : 583 . وقيل إنّ البيتين لابن رشيق ينظر ص 57 من هذا البحث .

(4) الشعر الأندلسي : أميليو غرسيه غومس ، ترجمة حسين مؤنس ، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ، ط 2 ،

1956م : 45 .

لقد كانت صورة الوضع السياسي في هذا العصر مظلمةً حالكة ، إلا أن صورة
الوضع العلمي والأدبي كانت مشرقةً مضيئة ، فهذا العصر الذي شهد ظهور كثيرٍ من
العلماء والأدباء وفحول الشعراء يُعدُّ عصر ازدهار وانتعاشٍ للعلم والأدب .
دام أمر ملوك الطوائف حتى دخل يوسف بن تاشفين الأندلس للمرة الثانية عام
484هـ ؛ فأطاح بملوك الطوائف ، وتلَّ عروشهم ، وقضى عليهم ، وضمَّ الأندلسَ إلى
دولته .

الفصل الأول

شعر الاستعطاف معناه وتطوره عبر
العصور السابقة لعصر ملوك الطوائف

الفصل الأول

شعر الاستعطاف، معناه وتطوره عبر العصور السابقة لعصر ملوك الطوائف
معنى الاستعطاف :

لغة : من الاستعمالات اللغوية للأصل الثلاثي (عطف) نجد له أكثر من معنى (فهو يدل على انثناء وعياج ، يقال عطفت الشيء ، إذا أملت⁽¹⁾) وعطف الوسادة : ثناها ، وانعطف الغصن : انثنى⁽²⁾ ، والعطيفة والعطافة : القوس ، والعطاف : السيف⁽³⁾ لانثناء فيهما والعطوف : الناقة التي تعطف على البو فتأمره⁽⁴⁾ .

كما يدل على الشفقة والرحمة ، فنقول : عطف عليه : أشفق ، وتعطف على رحمه: رق له ، وعطف الله بقلب السلطان على رعيته : إذا جعله عاطفاً رحيماً⁽⁵⁾ ، والعاطفة : الرحم ، ورجل عطوف وعطاف : يحمي المنهزمين ، وامرأة عطوف : الحانية على ولدها وكذلك رجل عطوف ، وعطف عليه : وصله وبره⁽⁶⁾ .
(والعطف بمعنى الشفقة مجاز من العطف بمعنى الانثناء ، ثم استعير للميل والشفقة إذا عدي بعلی ، وإذا عدي بعن كان على الضد)⁽⁷⁾ .

وقد وردت كلمة (عطف) مرة واحدة في القرآن الكريم بقوله تعالى : { ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله }⁽⁸⁾ ؛ أي لاويا عنقه⁽⁹⁾ ، وثنى العطف عبارة عن الكبر والخيلاء كتصغير الخد ، ولي الجيد ، وقد قرئت الآية الكريمة بفتح العين : (ثاني عطفه) أي مانع تعطفه⁽¹⁰⁾ .

(1) مقاييس اللغة : أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، تحقيق وضبط عبد السلام هارون ، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة ، 1369هـ ، باب العين والطاء وما يتلثهما : 351 .

(2) تاج العروس من جواهر القاموس : محمد مرتضى الزبيدي ، منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت ، فصل العين باب الفاء (د . ت) ، المجلد السادس : 200 .

(3) لسان العرب : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري ، دار صادر للطباعة والنشر - بيروت ، 1375هـ / 1956م ، المجلد التاسع ، مادة عطف .

(4) تاج العروس : الزبيدي ، المجلد السادس : 200 .

(5) تاج العروس : الزبيدي ، المجلد السادس : 200 .

(6) لسان العرب : ابن منظور ، المجلد التاسع ، مادة عطف : 250 .

(7) تاج العروس : الزبيدي ، المجلد السادس : 201 .

(8) سورة الحج ، آية 9 .

(9) لسان العرب : ابن منظور ، المجلد التاسع ، مادة عطف : 251 .

(10) للكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : أبو القاسم جار الله محمود بن عمر

الزمخشري الخوارزمي ، دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان (د . ت) ، ج 3 : 6 .

أما في الأحاديث النبوية الشريفة فقد وردت هذه الكلمة بمعنى الشفقة والرحمة أكثر من مرة ، فقد روي عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قوله : " مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " (1) ، كما روي عنه - صلى الله عليه وسلم - قوله : " خلق الله عزّ وجلّ يوم خلق السموات والأرض ، مائة رحمة ، فجعل في الأرض رحمة ، فيها تعطف الوالدة على ولدها ، والبهائم بعضها على بعض ، والطير ، وأخر تسعاً وتسعين إلى يوم القيامة ، فإذا كان يوم القيامة ، أكملها الله بهذه الرحمة " (2) .

أما الاستعطاف فهو مصدر الفعل المزيد استعطف ، ومن معاني الزيادة في صيغة استعمل السؤال والطلب ، فنقول : استعطفه استعطافاً : سأله أن يعطف عليه (3) .
اصطلاحاً :

لا نجد تعريفاً واضحاً لشعر الاستعطاف لا في المصادر القديمة ، ولا في المراجع الحديثة ، ولكن نستطيع القول : إنه ذلك الشعر الذي يبثّه الشاعر إلى شخص ما لاستمالة قلبه ، واستئثار عطفه ، آملاً بعفوه عنه ، وتخليصه من ضروب الإعنات والحرمان الذي يعانيه .

وقد قرنه النويري بالاعتذار (4) ، وكذلك فعل الدكتور عبد العزيز عتيق الذي قال عنه : (ويقال له أحياناً الاعتذار) (5) . ولكننا نلاحظ أن كل شعر قيل في الاعتذار يدخل ضمن الاستعطاف ، ولكن العكس ليس صحيحاً ؛ فالشاعر المعتذر يدرك أن من يخاطبه ويعتذر إليه لن يقبل عذره ولن يعفو عنه إلا بعدما يعطف عليه ويرحمه . أما الاستعطاف فليس بالضرورة أن يسبقه اعتذار ، ذلك أننا نقرأ أشعاراً استعطافية كثيرة تخلو تماماً من الاعتذار ، وكان الشاعر أراد أن يتناسى الجرم الذي رمى به زوراً أو الذنب الذي اقترفه ، وأثر على ذلك فتح صفحة جديدة تخلو من التذكير بأي شيء عكّر

(1) مسند الإمام أحمد بن حنبل ، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر - بيروت ، (دت) ، المجلد الرابع : 270 .

(2) سنن ابن ماجة : الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع (دت) ، الجزء الثاني ، كتاب الزهد : 1435 .

(3) تاج العروس من جواهر القاموس : الزبيدي ، المجلد السادس : 200 .

(4) نهاية الأرب في فنون الأدب : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، (دت) السفر الثالث : 258 .

(5) الأدب العربي في الأندلس : عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية - بيروت ، ط2 ، 1976م : 230 .

صفو الماضي ، كما أن هناك ضرورياً من الاستعطاف لا تحتاج إلى اعتذار ؛ كالفقير الذي يستعطف الغنيّ أماً بالحصول على أعطياته .

وقد خلط الشاعر الاستعطاف أحياناً بأغراض وفنون شعرية أخرى كالاقتذار والتشكي والمدح وغيرها مما سنتطرق بالحديث عنه بالتفصيل لاحقاً .

والشعراء المستعطفون منهم مَنْ تسعفه قوةً بيانه ونصاعة حجته في الوصول إلى مأربه ، فتُغفر زلته ، ويُعفى عنه ، ومنهم من يقصر بيانه عن ذلك فيضلّ مُبعداً مغضوباً عليه .

أما المستعطفون - وجلبهم من الملوك وذوي السلطان - فقد أثر في معظمهم شعر الاستعطاف وما رافقه من اعتذار وتشكي تأثيراً جعلهم يقبلون عذر الشاعر ، ويعطفون عليه ، ويعفون عنه ، فقبول العذر ، والعفو عن المسيء ، وغفران الذنب تدلّ على دماثة خلق ، وسعة صدر ، وحسن سياسة ، (فلا عذر في ردّ الاعتذار ، والمعتذر من الذنب كمن لا ذنب له)⁽¹⁾ .

وقد روي عن الإمام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قوله : (أولى الناس بالعفو أقدّروهم على العقوبة)⁽²⁾ .

ولكننا نجد في بعض الأحيان بعضاً من هؤلاء المستعطفين يردّون الشعراء الذين استعطفوهم خائبين ، ويصرون على عدم العفو عنهم ، وإلحاق العقاب بهم ؛ إمّا لأن هؤلاء الشعراء ارتكبوا معصية دينية توجب حداً أو تعزيراً بحق فاعلها ، وعندها لا يجدي استعطاف ولا اعتذار ، وإمّا لأن إساءتهم لشخص الحاكم كانت عظيمة ، بحيث صعبَ عليه غفرانها والصفح عنها لقاء قصيدة استعطاف ، أو لأنّ الحاكم أدرك أنّ هذا الشاعر مرغم على استعطافه والاعتذار إليه ؛ لأنه وقع في قبضته ولو قدر له أن يفلت منها لعاد إلى ما كان عليه من ذنب وإساءة .

وقد عدّ الاستعطاف غرضاً من أغراض الشعر⁽³⁾ ، (ولم يخلُ أي عصر من عصور الأدب العربي من شاعر أو أكثر نظموا الشعر استعطافاً أو اعتذاراً عما تورطوا فيه من إساءة كالهجاء مثلاً ، أو مما نسب إليهم زوراً وبهتاناً بحق ملكٍ أو ذي سلطان ،

(1) نهاية الأرب في فنون الأدب : النويري ، السّفر الثالث : 259 .

(2) نهاية الأرب في فنون الأدب : النويري ، السّفر الثالث : 258 .

(3) الجامع في تاريخ الأدب العربي : حنا الفاخوري ، المكتبة البوليسية - بيروت ، (دت) : 801 .

بباعث الوشاية أو الغيرة أو الحسد أو ما أشبه ذلك⁽¹⁾ ، ولكنه ازداد زيادة ملحوظة في الشعر الأندلسي ، لا سيما شعر عصر ملوك الطوائف .
وسنتتبع في الصفحات القادمة بعضاً من أشعار الاستعطاف عبر العصور السابقة لعصر ملوك الطوائف .

أ - في العصر الجاهلي : يعد النابغة الذبياني⁽²⁾ أكثر من أجاد في هذا الفن ، فقد استعطف النعمان بن المنذر⁽³⁾ ملك المناذرة ، وكان النابغة يقد عليه ويمدحه ، فلما أوقع الغساسنة⁽⁴⁾ بذبيان وأحلافهم من بني أسد ، وأسروا رجالاً منهم ، وسبوا نساءً كانت منهن ابنةً للنابغة ، ذهب النابغة إلى بلاط الغساسنة ، وهناك مدحهم ومدح ملكهم عمرو ابن الحارث قبل أن يلتبس منه إطلاق سراح الأسرى والسبايا ، وقد أشاد بمآثرهم ، ومدحهم بأعظم الصفات وأجلها ، فهم - كما وصفهم النابغة - ذوو بأس وقوة ، شجعان لا يعرفون الهزيمة ، إذا انطلقوا إلى الحرب حلقت فوقهم الطيور الجارحة طمعاً بجثث القتلى من أعدائهم⁽⁵⁾ ، وهم دائمو الحرب والقتال ، فالكلوم في أجساد خيولهم منها القديم الذي التأم ، ومنها الحديث الذي ما زال ينزف ، فإذا ترجلوا عن خيولهم أتجهوا إلى طعان أعدائهم مسرعين كالجمال النافرة ، ثم يأتي بصورة ظريفة ظاهرها ذم وباطنها

(1) الألب العربي في الأندلس : عبد العزيز عتيق : 230 .

(2) النابغة الذبياني : أبو أمامة ، زياد بن معاوية ، من أهل الحجاز ، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى ، كان يقد على النعمان بن المنذر ويمدحه ، وكانت تضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ ، فتقصده الشعراء ؛ فتعرض عليه أشعارها ، توفي في نحو عام 604م . ينظر : الشعر والشعراء عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعارف - مصر ، 1966م ، ج 1 : 157 . والأعلام خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين - بيروت ، ط 11 ، 1995م ، مجلد 3 : 54 .

(3) النعمان بن المنذر : أبو قابوس ، من ملوك الحيرة ، ولي الحكم اثنتين وعشرين سنة ، كان رجلاً نميماً ، قصيراً ، أبرش ، وهو صاحب يومئ البؤس والنعيم ، نغم عليه كسرى (أبرويز) فعزله وسجنه إلى أن مات في نحو عام 608م ، وقيل ألقاه تحت أرجل القبيلة إلى أن هلك . ينظر : الكامل في التاريخ علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بابن الأثير ، دار صادر - بيروت ، 1402هـ / 1982م ، مجلد 1 : 483 - 491 . والأعلام الزركلي ، مجلد 8 : 43 .

(4) الغساسنة أو آل جفنة : سلالة عربية يمنية الأصل ، من بني الأزدي بن الغوث ، رحلوا بعد انفجار سد مأرب ، ونزلوا على ماء في الشام يقال له غسان ، فأنشأوا إليه ، وكان ابتداء ملكهم قبل الإسلام بما يزيد عن 400 سنة ، أول ملوكهم جفنة بن عمرو ، وآخر ملوكهم جبلة بن الأيهم الذي أسلم في خلافة عمر ، ثم عاد إلى الروم وتصر . ينظر : المختصر في أخبار البشر لأبي الفدا عماد الدين إسماعيل ، المطبعة الحسينية - مصر ، ط 1 ، 1907م ، ج 1 : 72 - 73 .

(5) ينظر : تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي : د . شوقي ضيف ، دار المعارف - مصر ، (دت) ،

مدح شديد ، فالغساسنة لا عيب فيهم إلا عيب واحد ، وما هو في الحقيقة بعيب ، ذلك أن سيوفهم مقلدة من طول مقارعتها لكتائب الأعداء ، ثم يشير إلى انتصار الغساسنة القديم في يوم (حليلة)⁽¹⁾ الذي هُزم فيه المناذرة شر هزيمة ، وقُتل ملكهم المنذر بن ماء السماء في ساحة المعركة ، وفي كل هذا يقول النابغة :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم
عصائب طير تهدي بعصائب
على عارفات للطعان عوابس
بهن كلوم بين دام و جالب⁽²⁾
إذا استنزلوا عنهن للطعن أرقلوا
إلى الموت إرقال الجمال المصاعب
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
بهن فلول من قراع الكتائب
تورثن من أزمان يوم حليلة
إلى اليوم قد جربن كل التجارب⁽³⁾
[الطويل]

ويكافئ الغساسنة النابغة بإطلاق سراح جميع الأسرى والسبايا من الذبيانيين وأحلافهم . ويعلم النعمان بن المنذر بذهاب النابغة إلى الغساسنة ومدحه إياهم ، وإشارته ليوم حليلة ، فيغضب عليه غضباً شديداً (حيث كان يتخذة داعية له في قومه ، وكان يرى في نزوله بالغساسنة أعدائه التقليديين ما يدفع بذبيان إلى أن تخرج على ولائها له ، فهذا شاعرها وشريفها النابغة يلج في مديح خصومه ، وكأنه يعلن بذلك ولاءه وولاء قبيلته لهم)⁽⁴⁾ .

واستغل حساد النابغة وكارهوه في بلاط النعمان هذا الغضب ليوغروا صدر الملك عليه ، فحاكوا الإشاعات والأكاذيب التي تبالغ في إساءة النابغة ، وزعموا أنه هجا النعمان أثناء مديحه للغساسنة .

وعندما يتوفى عمرو بن الحارث ملك الغساسنة يعود النابغة إلى قبيلته ويرى أن يرجع إلى النعمان ، ولكنه يدرك عظم ذنبه وما نسجه الوشاة ضده ، ويسمع بوعيد

(1) يوم حليلة من أيام العرب في الجاهلية ، توافق فيه غسان مع لخم فانتصر الغساسنة ، وقُتل المنذر الثالث نحو عام 554م ، وضرب به المثل في كل أمر مشهور ، فقيل (ما يوم حليلة بسر) وحليلة التي نسبت إليها هذا اليوم هي ابنة الحارث بن جبلة ملك غسان . ينظر : نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب لأبي الحسن علي ابن موسى الأندلسي ، تحقيق نصرت عبد الرحمن ، مكتبة الأقصى - عمان ، ط1 ، 1982م ، ج1 : 203 . والمنجد في اللغة والأعلام ، دار المشرق - بيروت ، ط27 ، 1984م : 507 .

(2) جلب الدم : بيس . ينظر : المعجم الوسيط ، دار المعارف - القاهرة ، 1972 ، ج2 : 1062 .

(3) شرح ديوان النابغة الذبياني : قدم له وعلق عليه سيف الدين بركات وأحمد عصام الكاتب ، دار مكتبة الحياة - بيروت ، ط1 ، 1989 : 10 .

(4) تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي : شوقي ضيف : 271 .

النعمان له فيدافع عن نفسه بقصائد أشهرها ثلاث عُرفت باسم (الاعتذاريات) ، وتكاد تكون طريقته في الاعتذار والاستعطاف واحدة في قصائده الثلاث، إذ أنه يصور سوء حاله وهمه وغمه عندما وصله وعيد النعمان له ، ثم يحمل على الوشاة المفسدين الذين أوقعوا بينه وبين النعمان ، ويحلف بالأيمان الوثنية أن ما اتهم به كان باطلاً ، ثم يفضي إلى استعطاف النعمان والاعتذار إليه ومدحه والثناء عليه ، يقول في إحدى قصائده :

وَعَيْدُ أَبِي قَابُوسَ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ	أَتَانِي وَدُونِي رَاكِسٌ فَالضُّوَاجِعُ ⁽¹⁾
فَبِتُ كَأَنِّي سَاوِرْتَنِي ضَنْبِيَّةً	مِنَ الرَّقْشِ فِي أَنْيَابِهَا السَّمُّ نَاقِعُ
يَسْهَدُ مِنْ لَيْلِ التَّمَامِ سَلِيمُهَا	لَحَلَى النِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَاقِعُ
تَنَادَرَهَا الرَّاقُونَ مِنْ سَوْءِ سُمِّهَا	تَطْلُقُهُ طَوْرًا وَ طَوْرًا تَرَاجِعُ
أَتَانِي أَبِيَّتَ اللَّعْنِ أَنْكَ لِمَتَّنِي	وَتَلْكَ الَّتِي تَسْتَكُ مِنْهَا الْمَسَامِعُ
مَقَالَةٌ أَنْ قَدْ قُلْتَ سَوْفَ أَنَالُهُ	وَذَلِكَ مِنْ تِلْقَاءِ مِثْلِكَ رَائِعُ ⁽²⁾

[الطويل]

فوعيد النعمان أتاه وهو بعيد عنه ، بينهما مواضع عديدة ومسافات شاسعة ، فبات قلقاً مسهداً كأنما عضته أفعى شديدة السم ، وهي إن عضت إنساناً حُرِمَ النوم من شدة الألم ، وعلق عليه أهله حلية النساء وخلاخيلهن ظناً منهم أن ذلك سيسفيه ، ثم يبالح الشاعر في خطورة هذه الأفعى التي (قلما استجابت للرقى ، فالراقون يرهبونها ، ويتخوفون من أن يطأوا حماها ، ويخاطب النابغة النعمان متسائلاً عن سبب ملامته له ، تلك الملامة التي أصمّت مسامعه كراهةً لسماعها)⁽³⁾ . والشاعر أمست حاله سيئة بسبب وعيد النعمان له وتهديده إياه ، وهو يعنى في تصوير سوء حاله طمعاً في استتدرار عطف النعمان ورضاه لتعود العلاقة بينهما حسنة كما كانت لا تشوبها شائبة . ثم يقسم أن ما رماه به الوشاة والمفسدون كان باطلاً ، يقول :

لَعْمَرِي وَمَا عَمْرِي عَلَيَّ بِهَيِّنٍ	لَقَدْ نَطَقْتُ بِطُلًّا عَلَيَّ الْأَقَارِعُ
أَتَاكَ امْرُؤٌ مَسْتَبْطَنٌ لِي بَعْضَةً	لَهُ مِنْ عَدُوٍّ مِثْلَ ذَلِكَ شَافِعُ
أَتَاكَ بِقَوْلٍ لَمْ أَكُنْ لِأَقْوَلُهُ	وَلَوْ كُئِبْتُ فِي سَاعِدِي الْجَوَامِعُ

(1) راكس والضواجع : اسمان لموضعين في الجزيرة العربية .

(2) شرح ديوان النابغة : 52 - 55 .

(3) النابغة الذبياني - شاعر المدح والاعتذار : علي نجيب عطوي ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط1 ،

1411هـ - 1990م : 141 .

حملت عليّ ذنبه وتركته كذي العر⁽¹⁾ يكوي غيره وهو راع⁽²⁾

[الطويل]

فهؤلاء الوشاة كارهون للنابعة ، افتروا عليه ، ونسبوا له أقوالاً لم يكن ليقولها ولو أكره علي ذلك ، وكان حرياً بالنعمان أن ينزل غضبه علي هؤلاء الوشاة وليس علي الشاعر البريء ، (وإلا فمثله ومثل من وسوس للنعمان كمثل البعير السليم يكوي من الجرب ، والأجرب راع بجانبه لا يصيبه كي ولا أذى)⁽³⁾ ، ويواصل النابعة قصيدته بقوله :

فإن كنت لا نو الضغن عني مكذب	ولا حلفي علي البراءة نافع
ولا أنا مأمون بشيء أقول	و أنت بأمر لا محالة واقف
فإنك كالليل الذي هو مدركي	وإن خلت أن المتأى عنك واسع
خطايف حجن في حبال متينة	تمد بها أيد إليك نوازع
أتوعد عبداً لم يخنك أماتة	وتترك عبداً ظالماً وهو ظالع ⁽⁴⁾

[الطويل]

فالشاعر حري بالخوف والرغبة من النعمان وبطشه إن لم يكذب الوشاة ، ولم يصدق حلفه وقسمه ، ويبدع صورة رائعة حين يشبه النعمان بالليل لا مفر منه من أن ينطبق عليه ، ويصور الشاعر هذه القصائد التي يرسلها إليه مستعظفاً معتذراً بخطايف معوجة ثبتت في حبال متينة تتبغي الظفر بعطف النعمان ورضاه ، ثم يذكره بأمانته وعدم خيانتة عهده ، بينما من يخثانون العهد يقربهم ويرعاهم ، ويختم النابعة قصيدته بمدح النعمان والثناء عليه ، يقول :

وأنت ربيع يعش الناس سيبه	وسيف أعيرته المنية قاطع
أبي الله إلا عدله ووفاءه	فلا النكر معروف ولا العرف ضائع
وتسقى إذا ما شئت غير مصرد	بزوراء في حافات المسك كاتع ⁽⁶⁾

[الطويل]

(1) العر : الجرب ينظر : المعجم الوسيط : ج 2 : 592 .

(2) شرح ديوان النابعة : 52 - 55 .

(3) تاريخ الألب العربي - الألب الجاهلي ، شوقي ضيف : 290 .

(4) ظالع : متهم . ينظر : المعجم الوسيط ، ج 2 : 576 .

(5) شرح ديوان النابعة : 52 - 55 .

(6) شرح ديوان النابعة : 52 - 55 .

فالنعمان غيث منعش لأولياته ، وسيف وصلت على أعدائه ، وقد برأه الله
لرعيته عادلاً وفيماً لا يلقى المنكر بالمعروف ، ولا المعروف بالمنكر ، يجزي على
الإساءة إساءة ، وعلى الإحسان إحساناً ، وانتهى إلى وصف ما فيه النعمان من نعيم ،
فهو يشرب بكأس مفضضة مزج ما فيها بالمسك والطيب .

إن القارئ لهذه القصيدة وللقصيدتين الأخريين الدالية والبائية⁽¹⁾ ، يدرك أن
النعمان لم يستجب للنابغة ولم يعطف عليه إلا بعد عناء مرير ، وقد نهج النابغة في
قصائده هذه نهجاً اتخذته الشعراء من بعده قدوة لهم في قصائدهم الاستعطافية .

لم يكن (النابغة الذبياني أول من فتح باب الاستعطاف والاعتذار في الشعر
العربي)⁽²⁾ ، فقد سبقه علقمة الفحل⁽³⁾ الذي وفد على الحارث بن أبي شمّر الغساني ،
واستعطفه بقصيدة تحدث فيها عن رحلته الشاقة إلى الحارث ، وعن غربته في ديار
الغساسنة ، ثم أفضى لمدح الحارث ، وذكر نعيمه التي شمل بها الناس قبل أن يرجوه
بإطلاق سراح أخيه شاس الذي لا ينبغي أن يُحرّم من نعيم الحارث وكرمه ، يقول علقمة
في قصيدته :

إلى الحارث الوهاب أعلنت ناقتي	لكلها والقصرين وجيب
إليك - أبيت اللعن - كان وجيفها	بمشتبهات هولهن مهيب
فلا تحرمني نائلاً عن جناية	فاتي امرؤ وسط القباب غريب
وفي كل حي قد خبطت بنعمة	فحق لشاس من نذاك ذنوب

[الطويل]

(فقال الحارث : نعيم وأذنبه ، وأطلق له شاساً أخاه وجماعة من أسرى بني تميم ، ومن

(1) ومطلعهما :

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد

[البسيط]

أتاني أبيت اللعن أنك لمتني وتلك التي أهتم منها وأنصب

[الطويل]

(2) الأدب العربي في الأندلس : عبد العزيز عتيق : 230 .

(3) هو علقمة بن عبدة ، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى ، وكان معاصراً لامرئ القيس ، وله معه مساجلات ،
أسر الحارث بن أبي شمّر الغساني أخاً له اسمه (شاس) فشفع به علقمة ، ومدح الحارث بأبيات فأطلقه ، توفي
نحو 603م . ينظر : خزنة الأدب ولبّ لباب العرب لعبد القادر بن عمر البغدادي ، تحقيق عبد السلام هارون ،
مكتبة الخانجي ، القاهرة ، (دت) ، ج 3 : 283 - 285 . والأعلام للزركلي ، مجلد 4 : 247 .

سأل فيه أو عرفه من غيرهم⁽¹⁾، كما استعطف المنقّب العبدى⁽²⁾ النعمان بن المنذر ليطلق سراح أسرى قومه⁽³⁾، ولكنهما لم يبلغا مبلغ النابغة وشعره، الأمر الذي جعل الأقدمين يعدّون النابغة رائد شعر الاستعطاف والاعتذار⁽⁴⁾.

ب - في عصر صدر الإسلام: وقف الكفار والمشركون أمام دعوة الرسول - صلى الله عليه وسلم - موقفاً معادياً، وكانوا لا يدعون دبراً يؤذون به النبي - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين إلا سلكوه، وكان من المشركين شعراء نهضوا يهجون الرسول - صلى الله عليه وسلم - وما جاء به من دين قويم وشريعة سمحاء، ووقف شعراء المسلمين ينافحون عنه - صلى الله عليه وسلم - ويردون على المشركين، وبعد أن فتح المسلمون مكة، ودانت لهم جزيرة العرب، ودخل الناس في دين الله أفواجا، وقف بعض أولئك الشعراء المشركين مع أنفسهم وقفة حساب، وأدركوا أن جميع الأبواب قد أوصدت أمامهم إلا باب الرسول - صلى الله عليه وسلم - فاتجهوا إليه مستعطفين ومعتذرين عما بدر عنهم من أقوال أو أفعال مسيئة، عساه - صلى الله عليه وسلم - يقبل أذارهم، ويعطف عليهم، ويسدي لهم الصفح الجميل، فهذا عبد الله ابن الزبيرى⁽⁵⁾ يقف بين يدي الرسول - صلى الله عليه وسلم - مستعظفاً ومعتذراً عما أسدى عندما كان يهيم في الضلال، أما اليوم فقد آمن بالرسول - صلى الله عليه وسلم - وانقضت العداوة إلى غير رجعة، ثم يطلب الشاعر من الرسول - صلى الله عليه وسلم -

(1) العمدة في محاسن الشعر: أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، تحقيق وتعليق محمد محيي الدين

عبد الحميد، دار الجيل - بيروت، الطبعة الخامسة، 1401 هـ / 1981م، ج 1: 57.

(2) المنقّب العبدى: هو العائذ بن محسن، وقيل اسمه نهار بن شأس، شاعر جاهلي من شعراء البحرين، اتصل بالملك عمرو بن هند، ومدح النعمان بن المنذر. ينظر: معجم الشعراء محمد بن عمران بن موسى المرزباني، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار إحياء الكتب العربية - (د. م.)، 1960م: 167. والأعلام الزركلي، مجلد 3: 239.

(3) ينظر: قصيدة المنقّب، ومطلعها:

ألا إن هندا أمس رثٌ جديدها وضنت وما كان المتاع يؤودها

في ديوانه، جمع وتحقيق حسن حمد، دار صادر - بيروت، ط 1، 1996م: 42.

(4) ينظر: نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري، السفر الثالث: 261.

(5) عبد الله بن الزبيرى: كان أشعر قريش في الجاهلية، وكان أشد الناس على الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين، ولما فتحت مكة هرب إلى نجران، ثم عاد إليها واعتذر إلى الرسول وأسلم، توفي عام 15هـ. ينظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لعلي بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير (انتشارات إسماعيليان - تهران)، (د. ت.)، مجلد 3: 160.

وسلم - أن يغفر زلته ، ويتقبل عذره ، ويختم قصيدته بمدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - مدحاً يليق به وبمكانته ، يقول :

أَسَدَيْتُ إِذْ أَنَا فِي الضَّلَالِ أَهِيمُ	إِنِّي لَمَعْتَرُ إِلَىكَ مِنَ الَّذِي
قَلْبِي وَمَخْطُئُ هَذِهِ مَحْرُومُ	فَالْيَوْمَ آمَنَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
وَدَعْتُ أَوَاصِرُ بَيْنَنَا وَحَلُومُ	مَضَتْ الْعِدَاوَةُ وَاتَّقَضَتْ أَسْبَابُهَا
زَلَلِي فَإِنَّكَ رَاحِمٌ مَرْحُومُ	فَاغْفِرْ فِدَى لَكَ وَالِدِي كِلَاهُمَا
مَسْتَقْبَلٌ فِي الصَّالِحِينَ كَرِيمُ	وَاللَّهُ يَشْهَدُ أَنَّ أَحْمَدَ مِصْطَفَى
فَرَعٌ تَمَكَّنَ فِي الذَّرَى وَأُرُومُ ⁽²⁾⁽³⁾	قَرَمِ ⁽¹⁾ عِلَا بَنِيَاتِهِ مِنْ هَاشِمِ

[الكامل]

أمّا كعب بن زهير بن أبي سلمى⁽⁴⁾ فضاعت عليه الأرض بما رحبت وتكر له خلّانه بعدما أهدر الرسول - صلى الله عليه وسلم - دمه ، فلم يجد أمامه إلا طريق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فذهب إليه - صلى الله عليه وسلم - معترراً عن زلاته وهفواته ، آملاً بعفو الرسول الكريم ، معرضاً بالوشاة الذين أكثروا فيه الأقاويل ، ثم يصور مقامه بمجلس الرسول الكريم ، هذا الموقف الذي لسو وقفه الفيل أعظم الحيوانات جثةً وشأناً لظلّ خائفاً مضطرباً حتى ينال التأمين من الرسول الكريم ، يقول كعب :

وَقَالَ كُلُّ صَدِيقٍ كُنْتُ أَمْلُهُ	لَا أَلْهَيْتُكَ إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولُ
فَقُلْتُ خَلُّوا سَبِيلِي لَا أَبَالِكُمْ	فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَفْعُولُ
كُلُّ ابْنِ أُنْثَى وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ	يَوْمًا عَلَى آلَةٍ حُدْبَاءَ مَحْمُولُ
نَبِيتُ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي	وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ
مَهْلًا هَذَا الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةَ الْ	قُرْآنِ فِيهَا مَوَاعِيظٌ وَتَفْصِيلُ
لَا تَأْخُذْنِي بِأَقْوَالِ الْوِشَاةِ وَلَمْ	أُذْنِبْ وَلَوْ كَثُرَتْ فِي الْأَقَاوِيلُ

(1) قرم : فحل . ينظر : المعجم الوسيط ، ج2 : 730 .

(2) أروم : أصل . ينظر : المعجم الوسيط ج1 : 15 .

(3) السيرة النبوية : ابن هشام ، تحقيق وشرح مصطفى السقا وآخرون ، مطبعة مصطفى الحلبي - مصر ،

1355هـ - 1936م ، ج4 : 62 .

(4) كعب بن زهير بن أبي سلمى ، هجا الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين ؛ فأهدر الرسول دمه ، ثم أتاه مستأمناً ، وأنشده قصيدته (بانث سعاد) ؛ فعفا عنه الرسول ، وكساه بردته . ينظر : أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ، مجلد 1 : 240 . وبلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب لمحمود شكري الأوسي البغدادي ، شرح وتصحيح محمد بهجت ، دار الكتب العلمية - بيروت ، (دت) ، ج3 : 133 .

لَقَدْ أَقَوْمُ مَقَاماً لَوْ يَقَوْمُ بِهِ
نَظْلٌ يَرَعْدُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ

أَرَى وَأَسْمَعُ مَا لَوْ يَسْمَعُ الْفَيْلُ
مِنَ الرَّسُولِ بِإِذْنِ اللَّهِ تَنْوِيلٌ⁽¹⁾

[البسيط]

ثم يمدح كعب الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمهاجرين الذين لانوا له وأحبوا إسلامه وإيمانه ، على عكس الأنصار الذين تجهموا وغلظوا عليه⁽²⁾ ، فالرسول الكريم نور يستضاء به ، وسيف مسلول من سيوف الله ، والمهاجرون الذين أسلموا ، وهاجروا بدينهم أنوفهم شماء ، وأقدارهم رفيعة ، شجعان في ساحات الوغى لا يفرحون إن أصابوا ولا يجزعون إن أصيبوا ، لا يتأخرون عن الخوض في موارد الحتف وساحات القتال ، يقول كعب :

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٍ يَسْتَضَاءُ بِهِ
فِي عَصَبَةٍ مِنْ قَرِيشٍ قَالَ قَاتِلُهُمْ
شَمَّ الْعَرَاتِينَ أَبْطَالَ لُبُوسَهُمْ
لَيْسُوا مَفَارِيحَ إِنْ نَالَتْ رِمَاحُهُمْ
لَا يَقَعُ الطَّعْنُ إِلَّا فِي نَحْوَرِهِمْ

مَهْتَدٌ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ مَسْلُورٌ
بِبَطْنِ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زَوْلُوا
مِنْ نَسِجِ دَاوُدَ فِي الْهَيْجَا سَرَابِيلُ
قَوْمًا ، وَلَيْسُوا مَجَازِيعًا إِذَا نِيلُوا
وَمَا لَهُمْ عَنْ حِيَاضِ الْمَوْتِ تَهْلِيلُ⁽³⁾

[البسيط]

لقد كان لهذه القصيدة الأثر البالغ في نفس الرسول - صلى الله عليه وسلم - فما أنهى كعب إنشاده حتى أمته الرسول الكريم وجعله ينعم بعفوه وصفحه بعد أن كان قلقاً خائفاً ، ولم يكتف - صلى الله عليه وسلم - بذلك بل كساه بردته ، وأصبحت القصيدة لأجل ذلك تعرف باسم (البردة)⁽⁴⁾.

إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - بسعة خلقه ، وبعظم كرمه ورحمته قد قيل عذر كل من اعتذر إليه ، وعطف على كل من استعطفه⁽⁵⁾ ، كيف لا وقد بعثه الله للعالمين رحمة ، وبدين قويم يجب ما قبله ، فابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون ، الذين

(1) السيرة النبوية : ابن هشام ، ج 4 : 153 - 154 .

(2) السيرة النبوية لابن هشام ، ج 4 : 153 - 154 . وشعراء حول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : خضر تايه ونبيل الأغا ، دار البشير - عمان ، ط 1 ، 1419هـ - 1998م ، 141 .

(3) السيرة النبوية : ابن هشام ، ج 4 : 155 - 156 .

(4) تاريخ الأدب العربي - العصر الإسلامي : شوقي ضيف ، دار المعارف - مصر ، ط 7 ، (دبت) : 86 .

(5) ينظر : استعطاف قتيلة بنت النضر الرسول - صلى الله عليه وسلم - في كتاب العمدة لابن رشيق

القيرواني، مطبعة حجازي - القاهرة ، ط 1 ، 1353هـ - 1934م ، ج 1 : 41 .

يقلعون عن معاصيهم ، ويتوبون إلى ربهم توبة نصوحاً ، { فأولئك يبذل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيماً }⁽¹⁾ .

ولم يكن الاستعطاف والاعتذار في هذا العصر وقفاً على الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - فهذا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يحبس الحطيئة⁽²⁾ في بئر لهجائه الزبرقان بن بدر⁽³⁾ ، ويستعطف الحطيئة عمر بأبيات شعرية تحمل في طياتها غمراً بالزبرقان في معرض اعتذاره ومدحه لعمر، إذ يقول :

أعوذُ بجدك إني امرؤ	سقتني الأعادي إليك السجالا
فإنك خير من الزبرقان	أشدُّ نكالا و أرجى نوالا
تحنن عليّ هداك المليك	فإن لكل مقام مقالا
ولا تأخذني بقول الوشاة	فإن لكل زمان رجالا ⁽⁴⁾

[المتقارب]

ولكن عمر لم يلتفت إليه ، ولم يخرجه من محبسه ، فعاد الحطيئة مرة أخرى مستعظفاً متوسلاً بأبنائه الصغار الذين أمسوا بعد حبس والدهم عاجزين لا يملكون قوت يومهم ، ولا يوجد من يدافع عنهم أو يحميهم من مخاطر الصحراء ويردها الشديد ، ثم يمدح عمر ويشيد به ، ويتسلمه مقاليد الخلافة ، فيقول :

ماذا تقول لأفراخ بذي مَرخ	زغبُ الحواصل لا ماءً ولا شجرُ
ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة	فاغفرْ عليك سلامُ الله يا عمرُ
أنت الإمام من بعد صاحبه	ألقى إليك مقاليد النهى البشرُ
لم يؤثروك بها إذ قدموك لها	لكن لأنفسهم كانت بك الأثرُ

(1) الفرقان ، آية 70 .

(2) الحطيئة : جرول بن أوس ، يكتى أبا مليكة ، لُقّب بالحطيئة ؛ لقصره وقربه من الأرض ، شاعر مخضرم ، كان هجاءً عنيفاً ، أسلم بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وكان رقيق الإسلام ، لنيم الطبع ، توفي في نحو 45هـ . ينظر : الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ج 1 : 322 . والأعلام الزركلي ، مجلد 2 : 118 .

(3) الزبرقان بن بدر التميمي السعدي صحابي ، من رؤساء قومه ، ولأه الرسول - صلى الله عليه وسلم - صدقات قومه ، فثبت إلى زمن عمر ، كُفّ بصره في آخر أيامه ، وتوفي في أيام معاوية نحو عام 45هـ -

665م . ينظر : أسد الغابة لابن الأثير ، مجلد 2 : 194 ، والأعلام الزركلي ، مجلد 3 : 41 .

(4) الأغاني : أبو الفرج الأصفهاني ، مطبعة دار الكتب المصرية - القاهرة ، ط 1 ، 1346هـ - 1928م ، ج 2 :

فامنن على صبية بالرمل مسكنهم

بين الأباطح تغشاهم بها القرر⁽¹⁾

[البسيط]

وبعدما سمع عمر - رضي الله عنه - هذه الأبيات ، عطف على الحطيئة ، وأطلق سراحه شريطة أن لا يهجو أحداً من المسلمين .

ويروى عنه - رضي الله عنه - أنه قال : " أفضل صناعات الرجل الأبيات من الشعر ، يقدمها بين يدي حاجته يستعطف بها الكريم ، ويستتزل بها اللئيم " ⁽²⁾ .

ونلاحظ من خلال شعر الاعتذار والاستعطاف في هذا العصر أنه امتزج - كما في العصر الجاهلي - بمدح المعتذر إليه والإشادة به ، والتعريض بالوشاة والمفسدين ، كما نلاحظ ظهور الألفاظ والمعاني الدينية الجديدة في الشعر العربي .

ج - في العصر الأموي : عاد للشعر مجده وازدهاره بفضل بواعث سياسية واجتماعية طرأت في هذا العصر ، فقد ظهرت الحركات السياسية المعارضة التي أنكرت حق الأمويين في الحكم ، فاعتمد خلفاء بني أمية سياسة القوة والحزم في مواجهة هذه الحركات ، فقمعوها ونكّلوا بمن ظفروا به من قادتها وشعرائها ، كما حصل تحول في الحياة الاجتماعية لا سيما في المدن الحجازية ، وكان من مظاهر هذا التحول انتشار الغزل الحسي الماجن الذي طال حتى النساء الطائفات بالبيت العتيق حاجات أو معتمرات ، فعملت الدولة على معاقبة هؤلاء الشعراء المتغزلين للحد من هذه الظاهرة التي مسّت أقدس مقدّسات المسلمين .

ولما ازدهر الشعر بعامة في هذا العصر ، فقد كثر شعر الاستعطاف والاعتذار الذي أنشأه بعض الشعراء ابتغاء العفو عنهم ، والصفح عن زلاتهم وهفواتهم ، فهذا طفيل بن عثمان الذي زجّ به عبيد الله بن زياد⁽³⁾ في السجن ، فخطب أمه (مرجانة) مستعطفاً إياها ، متوسلاً إليها كي تشفع له عند ولدها ، فيطلق سراحه ويعيده إلى أهله ، وهو أثناء استعطافه يذكر غربته ، وابتعاده عن ذويه ، ويُعرّض بالوشاة الذين افترّوا عليه الأكاذيب التي كانت سبباً بسجنه ، يقول :

(1) الأبيات من ديوان الحطيئة ، شرح أبي سعيد السكري ، دار صادر - بيروت ، ط 1 ، 1387هـ / 1967م : 164 - 165 ، إلاّ البيت الأخير فهو من الأغاني للأصفهاني ، (طبعة القاهرة) ، ج 2 : 188 .

(2) صبح الأعشى في صناعة الإنشا: القلقشندي ، المطبعة الأميرية - القاهرة ، 1331هـ - 1913م ، ج 1 : 272 .

(3) عبيد الله بن زياد بن أبيه ، ولد بالبصرة عام 28هـ ، ولاء معاوية خراسان ثم البصرة ، حارب الخوارج ، في أيامه كانت فاجعة استشهاد الحسين بن علي - رضي الله عنه - قتله المختار الثقفي عام 67هـ . ينظر: أنساب الأشراف لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري ، تحقيق محمد باقر المحمودي ، دار التعارف للمطبوعات - بيروت ، (دت) : 164 - 287 . والأعلام للزركلي ، مجلد 4 : 193 .

يا أمَّ عبدِ اللهِ يا خيرَ شافعٍ
 نأى عنه أهلوهُ وأوحشَ منهمُ
 لذي كربةٍ نأى المحلَّ غريبُ
 وغودِرَ في كبلِ أجشٍ صخوبُ
 مقالةٌ محالٌ أحصَّ كذوبُ
 [الطويل]

ويستجيب عبد الله لشفاعته أمه ، ويطلق سراح الشاعر (1) .

أما الأحوص (2) ، الذي كان سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموي قد أمر بنفيه إلى جزيرة (دهلك) (3) لتغزله بالمسلمات ، وبعدما آلت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز ، خاطب الأحوص الخليفة الجديد مسترحماً إياه عساه يعطف عليه ويعيده من منفاه إلى بلده ويذكره بصلة القرابة التي تربطهما ، فالخليفة ينبغي أن لا يهنا بعيش ما دام خاله موثقاً في جزيرة نائية بعيداً عن أهله وبلده ، يقول :

أيا راكباً أمّا عرضتَ فبلّغن
 هديتَ أميرَ المؤمنينَ رسائلِي
 وقلْ لأبي حفصٍ إذا ما لقيته
 لقد كنتَ نفاعاً قليلَ الغوائلِ
 وكيفَ ترى للعيشِ طيباً ولذّةً
 وخالكُ أمسى موثقاً في الحبائلِ (4)

[الكامل]

ويرفض الخليفة النقي الورع العطف على الأحوص وإعادته من منفاه ، ويذكر الذين كَلّموه بشأنه أبياتاً كان الأحوص قد أنشدها متغزلاً ومتجرئاً على الدين ، ويصرُّ على إبقائه في منفاه لينال عقابه ، ويكون عبرة لسواه من الشعراء ، ويبقى الأحوص منفياً في جزيرة (دهلك) طيلة ولاية عمر .

(1) كتاب العفو والاعتذار : ابن عمران العبدى ، تحقيق عبد القدوس أبو صالح ، دار البشر ، ط3 ، 1414هـ - 1993م ، ج2 : 477 - 478 .

(2) هو عبد الله بن محمد الأنصاري من بني ضبيعة ، كان معاصراً لجريير والفرزدق ، من سكان المدينة ، لقب بالأحوص لضيق في مؤخرة عينيه ، نُفي إلى دهلك ، وأطلقه يزيد بن عبد الملك ، مات في دمشق نحو عام 105هـ - 723م . ينظر : سير أعلام النبلاء لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، تحقيق مأمون الصاعرجي ، ج4 : 593 . والأغاني للأصفهاني ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر - بيروت ، 1389هـ ، ج4 ، 268 - 224 .

(3) دهلك : جزيرة في بحر اليمن ، وهي مرسى بين بلاد اليمن والحبشة ، بلدة ضيقة حرجة حارة ، وكان بنو أمية إذا سخطوا على أحد نفوه إليها . ينظر : معجم البلدان : شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي ، دار صادر - بيروت ، 1374هـ / 1955م ، مجلد1 : 195 .

(4) الأغاني : أبو الفرج الأصفهاني ، طبعة بيروت ، ج4 : 247 .

أما الكُمَيْتُ بنُ زَيْدٍ⁽¹⁾ الذي كان مناصراً للشيعة ضد بني أمية ، فنراه يقف أمام هشام بن عبد الملك مستعظفاً ومعتذراً إليه عما بدر منه من إساءة بحق الأمويين ، ويذكر هشاماً أن العفو عن المسيء وغفران ذنبه من شيم بني أمية الذين أضحوا أملاً لكل واقع في ملة ، ثم ينتقل الكُمَيْتُ إلى مدحهم والإشادة بهم وباستلامهم مقاليد الخلافة ، فهم أهل لها ، وجدّيون بها من معاوية أولهم إلى هشام عاشرهم ، ويأمل الشاعر أن تستمر الخلافة فيهم إلى قيام الساعة ، وفي هذا يقول :

كَمْ قَالَ قَائِلُكُمْ لِعَا	لَكَ عِنْدَ عَثْرَتِهِ لِعَاثِر
وَعَفَرْتُمْ لَذَوِي الدُّنُو	بِ مِنْ الأَكَابِرِ والأَصَاغِر
أَبْنِي أُمِيَّةَ إِيكُمْ	أَهْلَ الوَسَائِلِ وَالأَوَامِر
ثِقْتِي لِكُلِّ مِلْمَةٍ	وَعَشِيرَتِي دُونَ العِشَائِر
أَنْتُمْ مَعَادُنُ لِلخِيَلِ	فَةِ كَابِرًا مِنْ بَعْدِ كَابِر
بِالْتَّسَعَةِ المَتَتَابِعِينَ	خِلَافًا وَبِخَيْرِ عَاشِرٍ ⁽²⁾
وَإِلَى القِيَامَةِ لَا تَزَالُ	لِشَافِعِ مِنْكُمْ وَوَاتِرٍ ⁽³⁾

[مجزوء الكامل]

ويعفو هشام عن الكُمَيْتِ ، وما أن تعود الحرّية إليه حتى يرجع إلى نضاله مع الشيعة ضد بني أمية⁽⁴⁾ .

د - في العصر العباسي : يعد هذا العصر الذي يقسم إلى قسمين : أول وثانٍ أطول العصور ، وبالتالي فإن الكمّ الشعري فيه يزيد عن سواه من العصور سألقة الذكر .

(1) الكُمَيْتُ بنُ زَيْدِ بنِ خَنِيسِ الأَسَدِيِّ ، وُلِدَ بالكُوفَةِ عام 60هـ ، كان منحاذاً لبني هاشم ، كثير المدح لهم ، أشهر شعره الهاشميات ، اجتمعت فيه خصال لم تجتمع لشاعر ، فكان ققيماً وفارساً شجاعاً ، وخطيباً ، وسخياً ، توفي نحو 126هـ - 744م . ينظر : معجم الشعراء للمرزباني : 238 ، والأعلام للزركلي ، مجلد 5 : 232 .

(2) يقصد خلفاء بني أمية العشرة ، وهم : معاوية بن أبي سفيان 41 - 60هـ ، وابنه يزيد 60 - 64هـ ، وابنه معاوية 64 - 64هـ ، ثم مروان بن الحكم 64 - 65هـ ، وابنه عبد الملك 65 - 86هـ ، وابنه الوليد 86 - 96هـ ، وأخوه سليمان 96 - 99هـ ، ثم عمر بن عبد العزيز 99 - 101هـ ، ثم يزيد بن عبد الملك 101 - 105هـ ، وأخوه هشام 105 - 125هـ . ينظر : فنلثة التواريخ لأبي عبيد الله محمد بن سلامة بن حكيمون القضاعي ، تحقيق عبد الرحيم محمد عبد الحميد ، دار البشير - عمان ، ط 1 ، 1419هـ : 54 .

(3) ينظر : الأغاني للأصفهاني ، طبعة بيروت ، ج 17 : 12 .

(4) تاريخ الأدب العربي - العصر الإسلامي : شوقي ضيف : 325 .

وقد اختلفت دوافع الاستعطاف في هذا العصر فمن شاعر محكوم عليه بالموت ، إلى سجين يلتمس إطلاق سراحه ، إلى فقير معدم يبتغي القوت لسد رمقه ، فهذه امرأة فقيرة تستوقف هارون الرشيد وهو بمكة المكرمة ، وتذكر فقرها ، وصنيع الأيام بها ، وتطلب من الرشيد القوت ابتغاء الأجر والثوبة من الله تعالى ، تقول :

طحننا كلال الأعوام	وبرتنا طوارق الأيام
فاتيناكمو نمذ أكفأ	لانتقام من زادكم و الطعام
فاطلبوا الأجر والثوبة فينا	أيها الزائرون بيت الحرام ⁽¹⁾

[الخفيف]

(وبكي الرشيد عطفاً على هذه المرأة ، ويأمر أصحابه بأن يدفعوا إليها صدقاتهم ، فيلقوا عليها الثياب حتى توارىها ، ويملأوا حجرها دراهم ودنانير)⁽²⁾ .

وهذا أبو نواس⁽³⁾ يستعطف هارون الرشيد الذي ألقى به في السجن ، فيطمع بعطفه الذي وسع به الناس جميعاً ، فزلته لم تبلغ مبلغ الخيانة ، ولم تحدته نفسه بها قط، فهو مخلص للرشيد ، مطبوع على حبه ، لا ينبغي أن يهان أو يذل ، وقد استجار بأمير المؤمنين يقول :

فلا يتعذرني علي عفو	وسعت به جميع العالمينا
فأني لم أحنك بظهر غيب	ولا حدثت نفسي أن أخونا
فشفع حسن وجهك في أسير	يدين بحبك الرحمن ديتنا
إذا ما الهون حل بمستجير	فليس لجار بيتك أن يهونا ⁽⁴⁾

[الوافر]

ويستجيب الرشيد لاستعطافه ، ويطلق سراحه .

(1) المستطرف في كل فن مستظرف : الأبيهي ، تحقيق سعيد محمد اللحام ، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت ، ط1 ، 1419هـ - 1999م : 300 .

(2) المستطرف في كل فن مستظرف : الأبيهي : 300 .

(3) أبو نواس : الحسن بن هانئ ، ولد بالأهواز ، وقيل بالبصرة ، تتلمذ على يد والبة بن الحباب ، كان أدب الناس وأعرفهم بكل شعر ، اختلف في عام وفاته ، حيث كانت بين عام 195 - 199 هـ . ينظر : طبقات الشعراء لعبد الله بن المعتز بن المتوكل العباسي ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، دار المعارف - مصر ، ط4 ، (د.ت) : 193 . وأبو نواس في تاريخه وشعره ومبائله وعبئه ومجونه : ابن منظور المصري تحقيق محمد سعيد كمال ، مكتبة المعارف - بيروت ، 1969م : 19 .

(4) أعتاب الكتاب : ابن الأبار ، تحقيق صالح الأشر ، مجمع اللغة العربية - دمشق ، ط1 ، 1380هـ - 1961م

أما تميم بن جميل الذي أمر المعتصم بقتله ، وأحضر بين يديه لتنفيذ الحكم فيه ، فكان استعطافه أبلغ تأثيراً ، فقد أدرك أنه ميت لا محالة ، وتعذر عليه العذر والحجة بعدما رأى السيف والنطع أمامه ، وهو لا يخشى الموت لأنه قضاء الله المحتوم ، والناس جميعاً واقعون به ولكنه يجزع على أطفاله الصغار الذين سيتركهم خلفه ، لا يجدون من يعيّلهم أو يدفع عنهم مصائب الدهر ، يقول :

وأكبرُ ظني أنك اليومَ قاتلي وأيُّ امرئٍ مما قضى الله يفلتُ
ومن ذا الذي يُدلي بعذرٍ وحجةٍ وسيفُ المنايا بينَ عينيه مصلتُ
وما جزعي من أن أموتَ وإنني لأعلمُ أن الموتَ شيءٌ مؤقتُ
ولكنَّ خلفي صبيةٌ قد تركتهم وأكبأدهم من حسرةٍ تتفتّتُ
فإن عشتُ عاشوا خافضينَ بغيطةٍ أودُ الردى عنهم وإن متُّ مؤتوا⁽¹⁾

[الطويل]

(فتبسم المعتصم وقال : كاد والله يا تميم أن يسبق السيف العذل ، اذهب ، فقد غفرت لك الصبوة⁽²⁾ ، وتركك للصبية)⁽³⁾ .

وتستوقفنا في هذا العصر روميّات أبي فراس⁽⁴⁾ الأسير الذي لبث في أسره أمداً ، وتلكأ سيف الدولة الحمّداني في إطلاقه من أسره ، فيرسل إليه أشعاره شاكياً معاتباً مستعطفاً ، (ويرقّ في شكواه ، ويسمو في استعطافه حتى ليظنّ أنّه يرثي نفسه رثاءً مقنعاً ، وتصفو نفس أبي فراس ، وتتصل بالله في مناجاة صادقة طالباً منه العون على بلواه ، والفرج من مصيبته)⁽⁵⁾ ، ثم ينتقل إلى مدح سيف الدولة ، والإشادة به ، وتذكيره بالمحبة التي يكنّها له وأواصر القرابة التي تربطهما قبل أن يطلب منه العمل على إطلاقه من أسره ، وفي هذا يقول في إحدى قصائد روميّاته :

هل تعطفان على العليل لا بالأسيرِ ولا القتييلِ
باتت تقبله الأكــــ فأُحبابة الليلِ الطويلِ

(1) العقد الفريد : ابن عبد ربه الأندلسي ، تحقيق عبد المجيد الرحيني ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط1 ،

1983م ، ج2 : 33 .

(2) الصبوة : الطيش والميل إلى اللهو . ينظر : المعجم الوسيط ، ج1 : 507 .

(3) العقد الفريد : ابن عبد ربه ، ج2 : 33 .

(4) أبو فراس : الحارث بن سعيد بن حمدان الحمّداني ، ابن عمّ سيف الدولة ، شاعر وفارس ، ولد عام 320هـ ، أسرته الروم في إحدى المعارك ، ولبث في الأسر سبع سنوات ، قُتل عام 357هـ . ينظر : وفيات الأعيان لابن خلكان ، ج2 : 58 - 64 .

(5) فنون الشعر في مجتمع الحمّدانيين : مصطفى الشكعة ، مطبعة المعرفة - مصر ، 1378هـ / 1958م : 262 .

فَقَدَ الضُّيُوفُ مَكَتَهُ	وبكاه أبناء السبيلِ
واستوحشت لفراقه	يوم الوغى سرب الخيولِ
وتعطلت سمر الرما	ح وأعمدت بيض النصولِ
يا فارح الكرب العظيم	م وكاشف الخطب الجليلِ
كن يا قوي لذا الضعيف	ف ويا عزيز لذا الدليلِ
قربته من سيف الهدى	في ظل دولته الظليلِ
لم أرو منه ولا شفي	ت بطول خدمته غليلي
ولئن حننت إلى ذرا	ه لقد حننت إلى وصولِ
لا بالعضوب ولا الكذو	ب ولا القطوب ولا الملولِ
يا عدتي في النائبا	ت وظلتي عند المقيبلِ
أين المحببة والذما	م وما وعدت من الجميلِ؟
أجمل على النفس الكريـ	مة في القلب الحمول ⁽¹⁾

[مجزوء الكامل]

ويطلق سراح أبي فراس بعد بضع سنوات من أسره نظم خلالها قصائده المشهورة بالروميات ، وفيها مزج الشاعر الاستعطاف بالفخر حيناً ، وبالعتاب حيناً ، وبالشكوى تارةً ثالثة .

وأمر جديد ظهر في هذا العصر وشاع ، وهو استعطاف الشاعر لغيره⁽²⁾ .
فهذا المتنبي⁽³⁾ يستعطف سيف الدولة الحمداني لبني كلاب ، وكان سيف الدولة قد أغار عليهم ، وغنم منهم الأموال وسبى النساء ، فأتى بعضهم أبا الطيب وسأله أن يذكرهم لسيف الدولة في شعره ويستعطفه ، فالتمس منه أبو الطيب الرفق بهم ، فهم عبيده وإن أخطأوا ، يجيبونه إذا دعاهم للنوائب ، وليسوا بأول قوم يخطئون ويتوبون ، ثم يبين أن

(1) ديوان أبي فراس الحمداني : شرح ابن خالويه ، تحقيق سامي الدهان (دن) - بيروت ، 1944م ، ج 2 :

321 .

(2) ينظر : العمدة في صناعة الشعر ونقده : ابن رشيق القيرواني ، (طبعة القاهرة) ، ط 1 : 44 - 45 .
استعطاف أبي قابوس الشاعر الرشيد للبرامكة ، واستعطاف أبي تمام مالك بن طوق لقومه .

(3) أحمد بن الحسين بن الحسن الكوفي الكندي ، ولد بالكوفة عام 303هـ ، ونشأ بالشام ، ثم تنقل بالبادية يطلب الألب وعلم العربية ، وأيام الناس ، قال الشعر صبياً ، وأدعى النبوة ، فسجن حتى تاب ، ورجع عن دعواه ، وفد على سيف الدولة في حلب فمدحه ، ثم قصد مصر والعراق وشيراز ، قتله فاتك الأسدي عام 354هـ / 965م . ينظر : وفيات الأعيان : ابن خلكان ، ج 1 : 120 - 125 . والأعلام للزركلي ، مجلد 1 : 115 .

الخطأ الذي بسببه عوقبت القبيلة بكاملها ارتكبه بعض السفهاء ، ولكن عقاب سيف الدولة عمّ جميع القبيلة ، وفي هذا يقول :

ترَفَّقَ أَيُّهَا المولى عليهم	فإن الرَفَّقَ بالجاتي عتابُ
فبأثمَّ عبيدك حيث كانوا	إذا تدعو لنا نائبةً أجابوا
وعينُ المخطئين هم ، وليسوا	بأولَّ معشرٍ خَطِئوا فتابوا
وجرمُ جرّه سفهاء قوم	وحلَّ بغيرِ جارمِهِ العذابُ ⁽¹⁾

[الوافر]

هـ - في العصر الأندلسي السابق لعصر ملوك الطوائف : ويقسم هذا العصر إلى عصور ثلاثة : عصر الولاية ، وعصر الإمارة ، وعصر الخلافة .

وقد كثر شعر الاستعطاف في نهاية العصر الثالث وتحديداً في فترة الحجابة العامرية إلا إننا نقف عند نص شعري أنشئ في عصر الإمارة وهو لعاصم بن زيد⁽²⁾ ، وكان هذا الشاعر قد وجد عليه ابنُ لعبد الرحمن بن معاوية (الداخل) فنكّل به بسمل عينيه وقطع لسانه (فأما لسانه فانجبر بعيد وقت إلا قليلاً ، واقتدر على الكلام إلا تلعثماً كان يعترضه ، واستمر العمى ، فعظم عليه مصابه ، فكثر في شكواه أشعاره)⁽³⁾ ، ومنها قصيدة أنشدها له (صبي كان قد علّمه ودرّبه)⁽⁴⁾ ، إذ إنه كان لا يبين الإنشاد ، وهو في قصيدته يشكو عاهته الجديدة بعد أن فقدَ بصره ، وأمسى عاجزاً عن تأمين قوت عياله ، والشاعر يطنب في الحديث عن معاناته استنارةً لعطف عبد الرحمن الداخل الذي يأمل منه بإعالة ذريته ، والإنفاق عليهم ، يقول :

خضعتُ أمّ بناتي للعِدا	إذا قضى الله بأمرٍ فمضى
ورأتُ أعمى ضريراً إثمًا	مشيّه في الأرض لمسّ بالعصا
فبكتُ وجداً وقالت قولاً	وهي حرى حلقّت مني المدى
ففؤادي قرح من قولها	ما من الأدواء داء كالعمى

(1) العُرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ، شرح ناصيف اليازجي (د.ن) ، 1887م : 398 - 399 .
(2) عاصم بن زيد بن يحيى بن حنظلة التميمي ، من أهل البيرة ، وكان شاعراً غزير القول ، حسن المعاني ، مدح بني أمية في الأندلس ، وعرض بهشام بن عبد الرحمن الداخل أثناء مديح أخيه سليمان ، فحقد عليه هشام ، ولما تمكّن منه نكّل به . ينظر : الإحاطة في أخبار غرناطة : لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، الشركة المصرية للطباعة والنشر - القاهرة ، ط1 ، 1397هـ - 1977م ، مجلد 4 : 231 - 232 .
(3) الإحاطة في أخبار غرناطة : لسان الدين بن الخطيب ، مجلد 4 : 232 .
(4) الإحاطة في أخبار غرناطة : لسان الدين بن الخطيب ، مجلد 4 : 233 .

وإذا نال العمى ذا بصر
وذريتي قد تجاوزتُ بها
قاصداً خيراً منافٍ كلَّها
ومنافٍ خيراً من فوق الثرى⁽⁴⁾
كان حياً مثل ميتٍ قد نعى⁽¹⁾
مُهمَّها⁽²⁾ فقراً⁽³⁾ إلى أهلِ الندى

[الرمل]

ونلاحظه يعتبر ما تعرض له من تكيلٍ وتعذيب كان قضاءً من الله لا سبيل لرده ويجب عليه الرضى به ، كما نلاحظه يتوسل ببنااته وذريته، ويختم قصيدته بمدح عبد الرحمن الداخل كي ينال عطفه وإحسانه .

وننتقل إلى فترة الحجابة العامرية ، حيث استبدَّ المنصور بن أبي عامر بالحكم وحجر على الخليفة هشام المؤيد ، وقمع المعارضين ، وكل من ظنَّ أنه سيوقف في طريقه بقسوة ؛ فقتل بعضهم وسجن البعض الآخر ، فما كان من هؤلاء إلا مخاطبته معتذرين إليه مستعطفين إياه ، راجين صفحه وعفوه ، فهذا عبد الملك بن إدريس الجزيري⁽⁵⁾ الذي سخط عليه المنصور فصادر أمواله وسجنه في سجن (المطبق) ، يصف هذا السجن الواقع في منطقة مرتفعة كأنه صومعة عبادة ، تأوي إليه الطيور الجارحة ، وتعصف به الرياح الشديدة ، يشكو من أقام فيه من لوعة الفراق ، وألم الانقطاع عن الأهل والأحبة ، ثم يأمل الشاعر من المنصور رضاه وعفوه ، فيخرجه من هذا السجن ، ويخلصه من الفراق القاسي ، يقول :

في رأسٍ أجردٍ شاهقٍ عالي الذرى
ياوي إليه كلُّ أعورٍ ناعبٍ
ويكادُ من يرقى إليه مرةً
ما بعده لموحِّدٍ من مَعْمَرٍ
وتهبُّ فيه كلُّ ريحٍ صرصرٍ
في عمره يشكو انقطاعَ الأبهَرِ

[الكامل]

وفي آخر القصيدة يخاطب الشاعر بنيه قائلاً :

(1) الذيل والتكملة في كتابي الموصول والصلة : لابن عبد الملك الأنصاري ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة - بيروت ، السفر الخامس ، القسم الأول : 102 - 103 .

(2) مُهمَّها : مهمه فلاناً ، قال له مه مه أي انكف . ينظر : المعجم الوسيط ، ج 2 : 890 .

(3) فقراً : مشتقياً فقره من كسر أو مرض . ينظر : المعجم الوسيط ج 2 : 697 .

(4) الإحاطة في أخبار غرناطة : لسان الدين بن الخطيب ، مجلد 4 : 233 . ونلاحظ أن كنية الشاعر قد اختلفت في المصدرين السابقين ففي الذيل (أبو المخشي) ، أما في الإحاطة (أبو المخشبي) ، والأرجح أن يكون الذيل هو الصواب ، لكثرة التصحيف في الإحاطة .

(5) أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري ، وزير أندلسي من الكتاب ، من أهل قرطبة ، تولى الإنشاء أيام المنصور بن أبي عامر ، وبقي إلى زمن ابنه المظفر ، توفي نحو 394هـ - 1004م . ينظر : بغية الملتبس لأبن عميرة : 374 - 375 . والأعلام للزركلي ، مجلد 4 : 156 .

لا تسأموا إحضاره رغباتكم
وعسى رضى المنصور يسفر وجهه
فهباته مبسوطة لم تحظر
فيديل من وجه الفراق الأغير⁽¹⁾
ويعطف عليه المنصور لما سمع هذه الأبيات ، ويطلق سراحه من سجنه ، ولكن الشاعر
كان يطمع بأكثر من ذلك ، فكتب إلى المنصور :

عجبت من عفو أبي عامر
كذلك الله إذا ما عفا
لا بد أن تتبعه منة
عن عبده أدخله الجنة
[السريع]

(فسر المنصور بذلك وأعادته إلى حاله ، وأطلق له ما اعتقل من ماله)⁽²⁾ .
ولكن المنصور لم يستجب لكل الشعراء الذين خاطبوه مستعطفين إياه ،
فالحاجب الوزير جعفر بن عثمان المصحفي⁽³⁾ استعطفه بشعر يذيب القلب أعرب فيه
عن ندمه على إساءته إن كان قد أساء ، وذكر كبير سنه وضعفه ، وأمل بعفو المنصور
وصفحه ، فالفغو والرحمة من صفات الملوك ، يقول :

هبني أسأت فأين العفو والكرم
يا خير من مدت الأيدي إليه أما
إذ قادني نحوك الإذعان والندم
ترثي لشيخ نعاه عندك القلم
إن الملوك إذا ما استرحموا رحموا⁽⁴⁾
[البسيط]

ولكن هذا الاستعطف ذهب أدراج الرياح ، إذ إن المنصور أجابه بأبيات لا تعرف معنى
الرحمة⁽⁵⁾ ، إذ يقول :

الآن يا جاهلاً زلت بك القدم
أغریت بی ملکا لولا تثبتُهُ
تبغي التكرم لما فاتك الكرم
ما جاز لي عنده نطق ولا كلم

(1) إعتاب الكتاب : ابن الأبار : 195 .

(2) إعتاب الكتاب : ابن الأبار : 196 .

(3) أبو الحسن جعفر بن عثمان ، وزير وأديب أندلسي ، استوزره الحكم الثاني (المستنصر) ، وعندما آلت
الخلافة إلى ابنه هشام المؤيد تقلد حجابته ، وتصرف في أمور الدولة ، وقوي عليه المنصور بن أبي عامر ،
فاعتقله وضيق عليه ، فاستعطفه جعفر بمنظومة ومنتورة ، فلم يرق له ، قتل في سجنه نحو 372هـ - 982م .
ينظر : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب لأحمد بن محمد المقرئ التلمساني ، تحقيق إحسان عباس ، دار
صادر - بيروت ، 1388هـ / 1968م ، ج 1 : 600 . والأعلام للزركلي ، مجلد 2 : 125 .

(4) الحلة السيرة : ابن الأبار ، تحقيق حسين مؤنس ، الشركة العربية للطباعة والنشر - القاهرة ، ط 1 ،
1963م ، ج 1 : 265 .

(5) ويقال إن هذه الأبيات لعبد الملك الجزيري أمره المنصور بنظما ليرد على المصحفي . ينظر : نفح الطيب
للمقرئ ، ج 1 : 601 .

فَيَأْسُ مِنَ الْعَيْشِ إِذْ صرَتْ فِي طَبِقِ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا مَا اسْتَنْقَمُوا نَقَمُوا
نَفْسِي إِذَا سَخِطَتْ لَيْسَتْ بِرَاضِيَةٍ وَلَوْ تَشَفَّعَ فَيْكَ الْعُرْبُ وَالْعَجَمُ⁽¹⁾
وبقي المصحفي في سجنه إلى أن مات فيه .

وبعد اطلاعنا على هذه الأشعار الاستعطافية في العصور المختلفة نلاحظ أموراً منها :

أولاً : أن النابغة الذبياني - وإن لم يكن أول من نظم شعر الاستعطاف - عُدَّ قَدْوَةً لشعراء الاستعطاف والاعتذار الذين خلفوه ، فقد سار جُلُهم على نهجه ، فمدحوا من استعطفوه ، واعتذروا إليه ، وطلبوا - بإلحاح - عفوه وصفحه ، وعرضوا بالوشاة والمفسدين الذين أفسدوا العلاقة بينهم وبين من يستعطفون .

ثانياً : توسّل الشعراء الذين جاءوا بعد النابغة بوسائل مختلفة لينالوا العطف والصفح ممن يستعطفون ، فقد ذكّروه بأجر الله وثوابه للكاظمين الغيظ ، العافين عن الناس ، كما ذكروا أبناءهم ، وانعدام عائلتهم بعدهم ، وتحدّثوا عن غربتهم وابتعادهم عن أهلهم وذويهم استدراراً لعطف مستعطفهم ، واستمالةً لقلبه .

ثالثاً : كانت هذه الأشعار الاستعطافية موجّهة إلى الحاكم ، والحاكم المستعطف بين أمرين : إما أن يردّ الشاعر المستعطف خائباً فلا يعطف عليه ، ولا يعفو عنه ، وإما أن يستجيب لاستعطافه ، ويقبل عذره ، ويعفو عنه . والأمر الأول كان قليلاً إلا أنه وجد ، وبخاصة عندما يكون ذنب الشاعر متعلّقاً بمعصية دينية تستوجب عقاباً ، عندها يصرّ الحاكم على معاقبته إقامةً لشرع الله ، وزجراً لغيره ممن تسوّّل لهم أنفسهم ارتكاب المعاصي والموبقات ، أو عندما يكون جُرم الشاعر كبيراً بحيث يستصغر الحاكم منه قصيدة استعطاف أمام جرمه العظيم .

أمّا الأمر الثاني : وهو قبول العُذر ، ومنح العطف ، والعفو عن المذنب ، فكان أكثر شيوعاً ، ذلك (أن الاستعطاف والاعتذار برُّ من الصديق ، وذلٌّ من العدو)⁽²⁾ .

رابعاً : كان لأشعار الاستعطاف بواعث مختلفة ؛ فمن محكوم عليه بالموت يبتغي العفو عنه ، إلى سجين يرنو لإطلاق سراحه وإعادة الحرية له ، إلى منفيٍّ عن وطنه وأهله يطمع بالعودة إلى بلاده وذويه ، إلى فقيرٍ مُعَدِّمٍ يطلب القوت والطعام ممن يملكه .

(1) الحلة السيرة : ابن الأثير ، ج 1 : 267 .

(2) نهاية الأرب في فنون الأدب : للتويري ، السفر الثالث : 261 .

خامساً : الاستعطاف إما أن يكون ذاتياً - وهو الأغلب - حيث يستعطف الشاعر نفسه، وإما أن يكون غيرياً فيستعطف الشاعر لغيره .

سادساً : الشاعر المستعطف قد يخاطب الحاكم مباشرة ، أو قد يخاطبه عبر وسيط فيقوم هذا الوسيط بنقل استعطاف الشاعر للحاكم ويشفع له .

سابعاً : لم يلتزم الشعراء ببحرٍ واحد ، ولا بقافيةٍ واحدة أتساء نظمهم لأشعارهم الاستعطافية ، حتى أن النابغة قدوتهم خاطب النعمان بقصائد ثلاث تختلف بحورها وقوافيها .

ويجدر بنا أن نختم هذا الفصل بالإشارة إلى شعراء أبت عليهم عزّة نفوسهم استعطاف غيرهم من البشر مهما عظم شأنهم ، وعلت رتبهم ، ومن هؤلاء القاضي أبو الحسن السعدي⁽¹⁾ الذي يقول :

أدنى من الناس عطفاً خالقُ الناسِ	قالوا تعطف قلوبَ الناسِ قلتُ لهم
جدوى أتيتُهُمُ سعياً على الرّأسِ	ولو علمتُ لسعيي أو لمسألتي
قبضتُها عن بني الدنيا على الياسِ	وكيف أبسطُ كفي للسؤالِ وقد
من استلامي كفّ البرّ والقاسي ⁽²⁾	تسليمُ امرئٍ إلى الرّحمنِ أمثلُ بي

فالشاعر أبت عليه نفسه استعطاف الناس ، وأثر على ذلك طلب العطف والرحمة من خالق الناس - سبحانه وتعالى - الذي بيده المنح والمنع ، والخير والشر ، فالناس منهم البرّ الكريم ، ومنهم القاسي اللئيم ، والمرء عندما يستعطف أحداً منهم لا يدري من أي الصنفين يكون .

إن تتبّع الأشعار الاستعطافية عبر العصور التاريخية المتعاقبة كان مقدمة للحديث عن شعر الاستعطاف في الشعر الأندلسي في عصر ملوك الطوائف ، ذلك العصر الذي ازدهر فيه الشعر بعامّة ، وكثُر فيه شعر الاستعطاف بشكل خاص ، وسنتناول الحديث عنه في الفصول اللاحقة بشيءٍ من التفصيل .

(1) القاضي أبو الحسن السعدي ، يتضح من كتاب الصلّة أن هذا الشاعر عاش بين القرنين الخامس والسادس الهجريين ، في بلدة (عيذاب) على ساحل البحر الأحمر ، وفيها تولّى القضاء ، وأطلق عليه واليها لقب قلضي القضاة ، كما كان عالماً بالنحو . ينظر : الصلّة : ابن بشكوال ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ط1 ، 1966 ، القسم الثاني : 584 .

(2) الصلّة : ابن بشكوال ، القسم الثاني : 584 .

الفصل الثاني

الشعراء المستعطفون في عصر ملوك الطوائف
دوافعهم إلى الاستعطف ، وطرائقهم فيه

الفصل الثاني

الشعراء المستعطفون في عصر ملوك الطوائف

دوافعهم إلى الاستعطاف ، وطرائقهم فيه

ازداد شعر الاستعطاف في عصر ملوك الطوائف زيادة لافتة للنظر ، وكان لانعدام الاستقرار في هذا العصر دور كبير في زيادة الأشعار الاستعطافية ، ذلك أن الاستقرار السياسي والاجتماعي يصحبه دائماً استقرار نفسي ، يجعل الناس آمنين متعاطفين متراحمين ، صدورهم رحبة ، وطباعهم سميحة ، فلا يشتطون في عقوبة ، ولا يسرفون في تكليل ، ولكن في عصور الضيق الاقتصادي ، والقلق الاجتماعي ، والاضطراب السياسي ، تضيق الصدور ، وتظلم القلوب ، ويظنّ الناس ببعضهم الظنون ، ومن هنا يشتطّ القوي في العقوبة ، ويتمادى الضعيف في التوبة ، ويمعن في الاعتذار ، فيكون الاستعطاف⁽¹⁾ .

يلحظ الدارس لشعر الاستعطاف في هذا العصر أنه لم يقتصر على الحاكم المشتطّ في العقوبة ، بل تعداه إلى المحبوبة التي قطعت أواصر المحبة بينها وبين محبّها ؛ فتركته حزيناً هائماً يئنّ من ذلّ الحبّ وهوانه ، فخاطبها مستعطفاً إيّاها ، عساها تعطف عليه ، وتعود إليه ، وتخلّصه من عنّت البُعد والحرمان ، كما يجد للوالد الواجد على ولده نصيب من هذه الأشعار ، ينظمها ابنه ملتسماً عفو أبيه وصفحه ، لذا يمكن القول : إن الشعراء المستعطفين قد نظموا أشعارهم الاستعطافية في مجالات ثلاثة هي : استعطاف الحاكم ، واستعطاف المحبوبة ، واستعطاف الوالد .

أولاً : استعطاف الحاكم :

كان لاستعطاف الحاكم النصيب الأكبر من هذه الأشعار الاستعطافية ، فالحاكم - بغض النظر عن مسماه - يعاقب المسيء ، وقد يعاقب البريء ظلماً أو خطأ بفعل دسائس الوشاة ، والعقوبة تتخذ أشكالاً متعددة ؛ فقد يأمر بالقتل أو بالحبس في غيابات السجون ، وقد ينفي عن الوطن ومسقط الرأس ، والشاعر المعاقب أو الذي قد يلحق به العقاب يسترحم

(1) البيئّة الأندلسية وأثرها في الشعر : سعد إسماعيل شلبي ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر - القاهرة (د.ت) :

ويستعطف عساه يظفر بعطف الحاكم وعفوه ، فيخلصه من العقوبة الواقع بها أو التي تنتظره، وأشهر الشعراء الذين استعطفوا الحكام في هذا العصر هم :

1. ابن زيدون:⁽¹⁾

سبب اعتقاله : أحظى أبو الحزم بن جهور⁽²⁾ حاكم قرطبة⁽³⁾ ابن زيدون ، وقربه منه ، وقلده الوزارة في دولته ، (ومنحه لقب " ذي الوزارتين " وهو لقب للوزير الذي يعمل مع الملك في تدبير الملك، ويتولّى عنه بعض الشئون من جيش أو جباية ، فيكون تصرفه في شئون الرعية بالقول والفعل)⁽⁴⁾ ، وظلّت العلاقة بينهما حسنة لا تشوبها شائبة ، ولا يعكّر صفوها معكّر ، (إلى أن وقع لابن زيدون طلب صيره إلى الاعتقال)⁽⁵⁾ ، ولم يتعرّض مصدر واحد من المصادر الأدبية والتاريخية إلى سبب هذا الاعتقال ، (وإن كانت كل المصادر تتفق على أنه سجن بتأثير الوشايات من أعدائه وحساده ، أما نوع هذه الوشايات فغامض مجهول لم يُعرف على جهة القطع)⁽⁶⁾ ، لكنّ الباحثين المحدثين توقعوا أسباباً لسجنه ، فمنهم من

(1) ابن زيدون : أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن زيدون المخزومي ، وزير وكاتب وشاعر ، من أهل قرطبة ، ولد عام 394هـ ، وكان منقطعاً إلى الوزير أبي الحزم بن جهور حتى تغير عليه وحبسه ؛ فاستعطفه ابن زيدون فلم يعطف عليه ؛ فهرب من سجنه واتصل بالمتعزّد ملك إشبيلية فولّاه وزارته ، توفي في إشبيلية عام 463هـ . ينظر جنوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس للحميدي ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب المصري - القاهرة ، ط 2 ، 1403هـ / 1983م ، القسم الأول : 205 . وبغية الملتبس لابن عميرة الضبي : 186 - 187 . وسير أعلام النبلاء للذهبي ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، ج 18 : 240 . والأعلام للزركلي ، مجلد 1 : 158 .

(2) ابن جهور : أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور ، ولد عام 364هـ ، ولي الوزارة أيام بنسي عامر إلى أن انقضت دولتهم ، بايع هشاماً المعتد مع أهل قرطبة ، ولما خلع هشام عام 422هـ استقلّ أبو الحزم بقرطبة ، وساسها أحسن سياسة ، توفي عام 435هـ . ينظر مطمح الأنفس ومسرح التأس في ملح أهل الأندلس للفتح ابن خاقان ، تحقيق محمد علي شوابكة ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، ط 1 ، 1403هـ / 1983م : 153 - 166 .

(3) قرطبة : مدينة عظيمة ، تقع في وسط الأندلس ، بينها وبين البحر مسير خمسة أيام ، كانت عاصمة لمملوك بنسي أمية ، وكانت محصنة بسور عظيم من الحجارة ، استمرّ عزّها ومجدها حتى عام 440هـ ، حين عُمرت إشبيلية عمارة صارت بها سرير ملك الأندلس ، وخزيت قرطبة وصارت كإحدى المدن المتوسطة . ينظر معجم البلدان لياقوت الحموي ، مجلد 4 : 324 .

(4) تاريخ الأدب العربي في الأندلس : إبراهيم علي أبو خشب ، دار الفكر العربي - القاهرة ، 1966م : 341 .

(5) المغرب في حلى المغرب : ابن سعيد المغربي ، تحقيق شوقي ضيف ، دار المعارف - القاهرة ، ط 2 ، (د.ت) ، ج 1 : 63 .

(6) ابن زيدون عصره - حياته - أبه : حسن جاد حسن ، المطبعة المنيرية - مصر ، 1375هـ / 1955م : 66 .

رأى أن اتّهامه بالاستيلاء على عقار لبعض مواليه بعد وفاته أدّى به إلى السجن⁽¹⁾ ، ومنهم من جعل حبسه بسبب هجائه المقذع للوزير ابن عبدوس غريمه في حبّ ولادة⁽²⁾ ، ومنهم من عزا حبسه إلى سبب آخر ؛ وهو بَعْطَش نفس ابن زيدون للمجد ، وتسويلها له بالانقلاب على أبي الحزم ، واستخلاص الأمر لنفسه ، مستغلاً حنين الناس إلى الخلافة الأموية ، وتذمّرهم من حكم أبي الحزم الذي ساهم ابن زيدون في صنعه ، وأسهم في رفعه⁽³⁾ ، ولعل هذا هو السبب المرجح لاعتقاله ؛ (لأنّ أشدّ ما يخشاه الحكام هو تطلّع من حولهم إلى السلطة ، وهم لا يتورعون عند الضرورة عن ضرب أقرب المقربين إليهم ، ولو كانوا أخوة لهم بل أبناء)⁽⁴⁾ ، وعليه فإنّ الأسباب الأخرى تُعدّ تافهة لا يُعقل أن يقضي ابن زيدون لأجلها مدة طويلة من الاعتقال تحت سمع أبي الحزم وبصره ، وقد كان علماً من أعلام دولته ، وركناً من أركانها ، ويلمح ابن زيدون في شعره إلى سبب اعتقاله ، ويبين أنّه ارتكب ذنباً غير متعمّد ، فقام أعداؤه وحسادته بتحويل أمره ، وإظهاره بمظهر الذنب العظيم الذي لا يُغتفر ، لكنّ ابن زيدون لم يوضح ماهية هذا الذنب ، إذ يقول :

ومثلي قد تهفو به نشوة الصّبا ومثلك من يعفو وما لك من مثل
هي النّعل زلت بي فهل أنت مكذّب لقليل الأعداي أتها زلة الحسّل⁽⁵⁾

[الطويل]

ومهما يكن السبب الذي لأجله سجن ابن زيدون ، فقد لعب كارهوه وحاسدوه دوراً كبيراً في إيغار صدر أبي الحزم عليه ، حيث أنّه يُظهر نفسه بمظهر الإنسان البريء

(1) ابن زيدون : شوقي ضيف ، دار المعارف - مصر ، ط 9 ، (د.ت) : 23 . والحضارة العربية الإسلامية في

الأندلس : سلمى الخضراء الجيوسي ، مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت ، ط 1 ، 1988م ، ج 1 : 514 .

(2) القطوف اللبّانة من ثمار جنة الأندلس الدائية : عبد الله أنيس الطّبّاع ، دار ابن زيدون - بيروت ، ط 1 ، 1406هـ / 1986م : 190 .

(3) ملامح الشعر الأندلسي : عمر الدّقّاق ، دار الشرق - بيروت ، ط 1 ، 1975م : 135 .

(4) ملامح الشعر الأندلسي : عمر الدّقّاق : 135 .

(5) ديوان ابن زيدون : شرح وتحقيق كرم البستاني ، دار صادر - بيروت ، ط 1 ، 1975م : 162 .

المفتري عليه الذي سُجِن بسبب (نميمة أهداها كاشح ، ونبأ جاء به فاسق)⁽¹⁾ .
مدة سجنه : سُجِن ابن زيدون وهو في ريعان الشباب ، ولَمَّا يبلغ الثلاثين من عمره ، ويشير
 إلى ذلك في قصيدة نظمها في سجنه ، حين يقول :

لم تطو بُردَ شبابي كَبْرَةً و أرى بَرَقَ المشيبِ اعْتلى في عارضِ الشَّعْرِ
 قبلَ الثلاثين إذ عَهْدَ الصِّبَا كَتَبَ وللشبيبةِ عُصْنٌ غيرَ مُهْتَصِرٍ⁽²⁾

[البسيط]

ولبت في سجنه خمسمئة يوم ، أشار إليها في بيتين من الشعر : الأول استعطف به ابن
 جهور ، حيث يقول :

أفصبرٌ مئِنَّ خمساً من الأيا م ناهيكَ عن عذابِ أليم⁽³⁾
 [الخفيف]

أما الثاني ، فقاله في قصيدة عقب فراره من السجن ، يترجى فيها صديقه أبا بكر بن مسلم
 أن يشفع له عند أبي الحزم بن جهور :

مئون من الأيام خمساً قطعتها أسيرٌ وإن لم يَبْدُ شَدْ ولا قَمَطُ⁽⁴⁾
 [الطويل]

وهذا يعني أن ابن زيدون مكث في سجنه نحواً من ستة عشر شهراً وعشرين يوماً .
استعطافه شعراً : ما انفك ابن زيدون يستعطف أبا الحزم بن جهور شعراً ونثراً⁽⁵⁾ ؛ ليرقق
 قلبه ؛ ويلين جانبه ؛ ويستدر رحمته ، وهو في قصائده الاستعطافية جميعها يحمل على
 الوشاة والحاسدين ، ويحاول جاهداً أن يبرئ نفسه من كل التُّهَم التي رُمي بها ، ويظهر أن
 سجنه كان بسبب دسائس هؤلاء الوشاة الذين نسبوا إليه مآثم لم يقترفها ، ومعاييب لم

(1) الرسالة الجنيّة لابن زيدون . ينظر إليها في النخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتيري ، تحقيق إحسان
 عباس ، دار الثقافة - بيروت ، ط1 ، 1399هـ / 1979م ، قسم 1 ، مجلد 1 : 340 - 346 . ديوان ابن زيدون
 ورسائله : تحقيق علي عبد العظيم ، مكتبة نهضة مصر ، 1957م : 680 - 718 . وفي الأندلسي : جودت
 الركابي ، دار المعارف - مصر ، ط2 ، (د.ت) : 266 - 281 .

(2) ديوان ابن زيدون : 148 .

(3) ديوان ابن زيدون : 124 .

(4) ديوان ابن زيدون : 86 .

(5) استعطفه نثراً في رسالته الجنية . ينظر إليها في النخيرة لابن بسام ، قسم 1 ، مجلد 1 : 340 - 346 . وفي
 ديوان ابن زيدون ورسائله : 680 - 718 .

يرتكبها، فكان مثاله كمثل الذئب الذي آتهم زوراً وبهتاناً بدم يوسف - عليه السلام - ، وفي ذلك يقول :

كان الوشاة وقد مُنيتُ بِإفكيهم أسباطُ يعقوبَ وكنْتُ الذَّيباً⁽¹⁾

[الكامل]

وهم إنما تألب حقدهم عليه ، واشتعلت نيران حسدهم بسبب تقدّم ابن زيدون عليهم بعلمه وفضله ، فاتهموه بأمر باطلة لم تحدّثه نفسه بها قطّ :

بلغتُ المدى إذ قصرُوا فقلوبهم مكامن أضغانٍ أساودها رُقُطُ
وقد وسموني بالتي لستُ أهلها ولم يُمنِ أمثالي بأمثالها قطّ⁽²⁾

[الطويل]

استعطف ابن زيدون أبا الحزم بقصائد عدّة ، ولعل أولى هذه القصائد قصيدته اللامية التي (نظمها الشاعر في مُفتتح حياته التعسة بسجنه)⁽³⁾ ، ويستهلّها بالتماس الرحمة من كائنات جديرة بمشاركته عواطفه ومشاعره ، صعابه ومآسيه ؛ فالغمام أن له أن يبكي على مصابه ، يطالب البرق بئارات حقه المهضوم ، وتقيم أنجم الليل المآتم نادبةً ما تعرّض له الشاعر من سجن وعناء، ولو أنصفته هذه النجوم التي هي كفؤ لهمته لتهاوت من أبراجها لما ناله من نلّ وضير :

ألم يأن أن يبكي الغمام على مثلي ويطلبُ ثأري البرقُ منصلتَ النّصلِ
وهلاً أقامت أنجمُ الليل مآتماً لتندبَ في الآفاق ما ضاعَ من نثلي
ولو أنصفتني وهي أشكال همّتي لألقتُ بأيدي الذلِّ لما رأته ذلّي⁽⁴⁾

[الطويل]

وينتقل الشاعر للحديث عن حال الزمن الذي لا ينصف ذوي الأفهام والعقول ، وكان بينه وبينهم ثأراً ؛ فيسلط عليهم أعداءهم من الجهلة والسفهاء ، ولو كان بمقدور الشاعر أن يستبدل جهلاً ببعض من حلمه ليرضى هؤلاء لفعل ذلك :

(1) ديوان ابن زيدون : 133 .

(2) ديوان ابن زيدون : 87 .

(3) ابن زيدون : شوقي ضيف : 60 .

(4) ديوان ابن زيدون : 159 .

أَخْصُ لِفَهْمِي بِالْقَلَى وَكَأَنَّمَا
 يَبِيْتُ لَذِي الْفَهْمِ الزَّمَانُ عَلَى ذَحَلٍ⁽¹⁾
 وَلَوْ أَنَّي أُسْطِيعُ كِي أَرْضِي الْعِدَا
 شَرِيتُ بِيَعْضِ الْحَمِّ حِظًّا مِنَ الْجَهْلِ⁽²⁾

[الطويل]

ولا يلبث الشاعر أن يتحامل على ذاته ، ملتمساً جانب الصبر ، ليخاطب أمه الساهرة العينين
 همماً وغمماً خوفاً على مصيره ، وإشفاقاً لماله ، مذكراً إياها بأنها ليست أول أم تفجع بفراق
 ولدها ، وليكن لها في أم موسى عبرة عندما أَلَقَتْ بفلذة كبدها إلى اليم راضية بحكم الله ،
 مؤمنة بقضائه :

أَقْلِي بكَاءَ لَسْتِ أَوْلَ حُورَةٍ
 طَوْتُ بِالْأَسَى كَشْحاً عَلَى مَضْضِ التَّكْلِ
 وَفِي أُمِّ مُوسَى عِبْرَةٌ إِنْ رَمَتْ بِهِ
 إِلَى الْيَمِّ فِي التَّابُوتِ فَاعْتَبِرِي وَاسْلِي
 وَلِلَّهِ فِينَا عِلْمٌ غَيْبٍ وَحَسْبُنَا
 بِهِ عِنْدَ جُورِ الدَّهْرِ مِنْ حَكْمِ عَدْلِ⁽³⁾

[الطويل]

وينتقل الشاعر لمدح أبي حزم قبل أن يسهب في الحديث عن معاناته ، ويشبه
 الشاعر نفسه بالجواد الذي يسبق نظراءه من الجياد في ميادين السباق ، ولكنه أسمى ثاوياً
 في مربط الهون ، يعلو تصهاله مشتكياً متألماً ، لكن لا أحد يستمع إلى شكاويه المتكررة ،
 ويعاتب الشاعر أبا الحزم على إهماله رسائله المتكررة التي تحته على العفو عنه وإطلاق
 سراحه ، وعلى الرغم من ذلك ما زال الشاعر يأمل بعفو أبي الحزم الذي يتشوق إليه كما
 تتشوق الأرض الماحلة إلى الماء المنهمر من السحب الماطرة :

جَوَادٌ إِذَا اسْتَنَّ الْجِيَادُ إِلَى مَدَى
 تَمَطَّرَ فَاسْتَوَلَى عَلَى أَمْدِ الْخَصْلِ
 أَفِي الْعَدْلِ أَنْ وَافَتَكَ تَتْرَى رَسَائِلِي
 فَلَمْ تَتْرَكْنَ وَضَعاً لَهَا فِي يَدِي عَدْلٍ
 أَعْدُكَ لِلْجَكْسِيِّ وَأَمَلُّ أَنْ أَرَى
 بِنِعْمَاكَ مُوسِوماً وَمَا أَنَا بِالْغَفْلِ
 وَمَا ذَاكَ وَعَدُّ النَّفْسِ لِي مِنْكَ بِالْمُنَى
 كَأَنِّي بِهِ قَدْ شِمْتُ بَارِقَةَ الْمَحْلِ⁽⁴⁾

[الطويل]

(1) الذَّحَلُ : الثَّار . ينظر المعجم الوسيط ، ج 1 : 309 .

(2) ديوان ابن زيدون : 159 - 160 .

(3) ديوان ابن زيدون : 160 .

(4) ديوان ابن زيدون : 161 .

ثم يُعرِّض الشاعر بالوشاة الذين أوغروا صدر أبي الحزم عليه ، ويوضح أنه لم يقترف إثماً عظيماً ، ولم يرتكب جريرة لا تغتفر ، وإنما كان ذنبه نزوة من نزوات الشباب التي ينبغي أن يغفرها أبو الحزم ويعفو عنها :

ولو أنني واقعتُ عمداً خطيئةً لما كان بدعاً من سجايك أن تُملي
فلم أستثر حرب الفجار⁽¹⁾ ولم أطع مسيلاً إذ قال : إني من الرُّسلِ
ومثلي قد تهفو به نشوة الصِّبا ومثلك من يعفو و ما لك من مثلي⁽²⁾

[الطويل]

ويُفند الشاعر دعوى الوشاة ، فعقله ينهاه عن ارتكاب ما زعمه هؤلاء ، كما ينهاه عن اتخاذ ناقضة الغزل⁽³⁾ قدوة له ، فلا يعقل أن ينقض الشاعر القصائد التي مدح بها أبا حزم بذنب مشين ، أو يقابل إحسان أبي حزم إليه ونعمه عليه بإساءة ، ويعود الشاعر مرة أخرى ليوضح لأبي الحزم أن خطاه لم يكن مقصوداً ، لكن الأعداء هَوَّلوا أمره ، وأظهروه بمظهر الذنب العظيم الذي يدل على خسة الشاعر ودنايته :

وإني لنتهايَ نهايَ عن التسي أشادَ بها الواشي ويعقني عقلي
أنتكثُ فيك المدحَ من بعدِ قسوةِ فلا أقتدي إلا بناقضة الغزلِ
وما كنتُ بالمهدى إلى السؤددِ الخنا ولا بالمسيء القول في الحسنِ الفعلِ
ومالي لا أنتهي بآلاءِ منعمٍ إذا الروض أثنى بالنسيم على الطلِ
هي النعل زلت بي فهل أنت مكذبٌ لقليل الأعداءِ إنها زلةُ الحسنِ⁽⁴⁾

[الطويل]

ويختم الشاعر قصيدته هذه طامعاً ليس في إطلاق سراحه فحسب ، وإنما بغفران أبي الحزم ، وصفحه الجميل ، وعودة العلاقة بينهما حسنة كما كانت لا تشوبها شائبة ، فيكون عند ذلك مثال الشاعر كمثال العاشق المتيّم الذي يحقق أمانيه بوصال محبوبته ،

(1) حرب الفجار : نشبت بعد عام الفيل بين قريش وهوازن ، سميت بالفجار ؛ لأن القتال حدث في الأشهر الحرم . ينظر الموسوعة العربية الميسرة : إشراف محمد شفيق غربال ، دار الجيل - مصر ، 1416هـ / 1995م ، مجلد 1 :

. 117

(2) ديوان ابن زيدون : 161 - 162 .

(3) إشارة إلى الآية للكريمة [ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً] . النحل ، آية 92 .

(4) ديوان ابن زيدون : 162 .

ويعرب الشاعر عن ثقته بأخلاق أبي الحزم العالية ، وأفعاله الحميدة التي ستمكنه من الحصول على عفوهِ وصفحه ، وأما إذا تعذّر عليه ذلك ، وبقيت القطيعة بينهما ، فسيشدّ الشاعر رحاله بعد إطلاقه ، وسيرحل إلى بلاد بعيدة ، لكنّه سرعان ما يعود ليبحثّ أبا الحزم على النظر إليه بعين الرضى ، ليقابل الشاعر ذلك بمدح أبي الحزم والثناء عليه ، والإشادة به في محافل الناس ومجالسهم :

ألا إن ظنني بين فيعنيك واقف
وقوف الهوى بين القطيعة والوصل
فإن تمن لي منك الأمانى فشيمة
لذاك الفعال القصد و الخلق الرسل
وإلا جنيت الأنس من وحشة النوى
وهول السرى بين المطية والرحل
وأين جوابك منك ترضى به العلاء
إذا سألتني بعد السنة الحقـل⁽¹⁾

[الطويل]

لقد استعطف ابن زيدون أبا الحزم في هذه القصيدة استعطاف الأبي المحافظ على كرامته ، المفتخر بنفسه (وظهر بنفس كبيرة ، حتى أنه مدح نفسه أكثر من ابن جهور ، فكان عاتباً أشدّ منه مادحاً)⁽²⁾ ، لذا فقد يكون هذا من الأسباب التي جعلت أبا الحزم لا يستجيب لتوسلات الشاعر ، وأصرّ على إبقائه في محبسه ، فعاد ابن زيدون مرة ثانية يستعطفه بقصيدة رائية⁽³⁾ استهلها بالغزل مجارة للشعراء الأقدمين ، وفيها يعبر عن سهادته وأرقه لهجر محبوبته قبل أن يتحدّث عن معاناته في سجنه ، هذه المعاناة التي أثقلت كاهله ، وهو ما زال في ريعان شبابه :

من يسأل الناس عن حالي فشاهاها
محصّ العيان الذي يُغني عن الخبر
لم تطو برّد شبابي كبرّة وأرى
برق المشيب اعتلّى في عارض الشعر
قبل الثلاثين إذ عهد الصبا كئسب
و للشبيبة غصن غيّر مهتصر⁽⁴⁾

[البسيط]

ويقف الشاعر بشموخ أمام الشامتين الذين قرّت عيونهم بمعاناته ، مذكراً إياهم أن السجن لا يعيبه ، ولا ينقص من قدره ، فهو كالأشجار الباسقة التي تعصف بها الرياح ، وكالشمس

(1) ديوان ابن زيدون : 163 .

(2) بلاغة العرب في الأندلس : أحمد ضيف ، مطبعة الاعتماد - مصر ، ط2 ، 1356هـ / 1938م : 71 .

(3) ومطلعها : ما جاد بعدك لحظي في سنا القمر . إلا نكرتك ذكر العين بالأثر .

(4) ديوان ابن زيدون : 148 .

والقمر اللذين يكسفان ويخسفان دون غيرهما من النجوم ، وكالسيف الصارم البتار الذي يغمد في قرابه :

لا يُهنئُ الشامتَ المرتاحَ خاطِرُهُ أني معني الأمانى ضائع الخطرِ
هل الرياح بنجم⁽¹⁾ الأرضِ عاصِفَةٌ؟ أم الكسوف لغيرِ الشمسِ و القمرِ؟
إن طالَ في السّجنِ إيداعي فلا عَجَبٌ قد يودع الجفنَ حدُّ الصّارمِ الذِّكرِ⁽²⁾
[البسيط]

ثم يلتفت الشاعر السجين إلى أبي الحزم محاولاً أن يكسب وده ، ويحظى بعطفه (فيلتمس له بعض العذر في إطالة أمد سجنه ، ويحمل القدر هذه التبعة دونه)⁽³⁾ ، ويعجب الشاعر من أبي الحزم وهو ملجأ المنيع ، وحصنه الحصين أن ألمت به الملمات ، أو أصابته مصائب الدهر كيف يحمله أوزار ذنوب لم يرتكبها ، وكبائر لم يقترفها ، ثم يأمل الشاعر بتأني أبي الحزم وعفوه وصفحه في وقت يحذر فيه من تجنيه وعقابه :

وإن يُنبِطُ أبا الحزمِ الرضى قَدْرٌ عن كشفِ ضريّ فلا عتَبَ على القَدْرِ
ما للذنوبِ التي جاتي كبائرِها غيري ، يُحملني أوزارها وزري؟⁽⁴⁾
مَنْ لم أزل من تَأنيهِ على ثِقَةٍ ولم أزل من تجنيهِ على حَذْرِ⁽⁵⁾
[البسيط]

(1) النجم : النبات الذي لا ساق له . ينظر المعجم الوسيط ، ج 2 : 905 .

(2) ديوان ابن زيدون : 148 - 149 .

(3) ملامح الشعر الأندلسي : عمر الدقاق : 143 .

(4) الوزر : الملجأ . ينظر المعجم الوسيط ، ج 2 : 1028 .

(5) ديوان ابن زيدون : 149 .

وينتقل الشاعر بعد ذلك لمدح أبي الحزم ، والإشادة به ، وذكر مناقبه قبل أن يعزف على وتر آخر من أوتار الحسّ الإنساني وهو إدالة الإنسان من العزّ إلى الذل ، ومن السعادة إلى الشقاء (ويذكر الشاعر أميره بما كان عليه من رفيع المنزلة في سلم الوجاهة ، وما صار إليه من التمرغ بحمأة المذلة والمتربة)⁽¹⁾ ، ثم يرنو الشاعر إلى رضى أبي الحزم الذي يتشوق إليه كتشوق الظمان إلى الماء البارد الزلال ، وكان حقاً عليه إن رأى بشائر هذا

٥٨٢١٥٤

الرضى شكر الأمير والثناء عليه والوفاء له :

قد كنتُ أحسبُني والنجمُ في قَرْنِ
هل من سبيل فمَاءِ العَتَبِ لي أسينُ
فقيمُ أصبحتُ منحنطاً إلى العَفْرِ ؟
نذرتُ شركك لا أنسى الوفاءَ به
إلى العذوبة من عُنْبِكَ والخَصْرِ
إن أسفرتُ لي عنها أوجهُ البَشْرِ⁽²⁾

[البسيط]

ويتابع الشاعر لافتاً نظر أبي الحزم إلى أنه لا يريد المستحيل ، ولا يتعسف في الطلب ، فهو لا يسأله الصباً لمن أوفي على المشيب ، وإنما يطلب أمراً سهلاً لا يعدو أن يكون لفنة كريمة من لفتات الأمير بقبول عذره ، وإقالة عثاره ، فهو وإن أخطأ يبقى من البشر ، وليس فيهم معصوم عن الخطأ ، أو محصن من الزلل ، وزلل المحكوم يرافقه أبداً صفح الحاكم وحلمه ، والإغضاء عن صغائر الذنوب زينة السيادة ، كما أن الحياء زينة الحُسن وبهاؤه :

لا تلهُ عني فلم أسألكَ معتسِفاً
هبني جهلتُ فكان العلقُ سيئةً
ردّ الصبّا بعد إيفاءٍ على الكِبْرِ
إبهاءَها ، وبهاءِ الحُسنِ في الخَفْرِ⁽³⁾
لا عذرَ منها سوى أنّي من البَشْرِ
إنّ السيادةَ بالإغضاءِ لابسَةٌ

[البسيط]

ويلجّ الشاعر في طلب الشفاعة من أميره ، هذه الشفاعة التي إن تكرّم الأمير بها ، فلا أحد يستطيع ردّها ، والشاعر إن نالها يكون كمن يحيا في وطنه ، بين أحبائه وخلانسه بسعادةٍ وهناء ، ثم يختم قصيدته بتمني السعادة والنعيم لأmirه في الدنيا ، وبجنات الخلد في الآخرة :

(1) ابن زيدون : نديم مرعشلي ، دار الشرق الجديد - بيروت ، ط1 ، 1961م : 66 .

(2) ديوان ابن زيدون : 150 - 151 .

(3) ديوان ابن زيدون : 151 .

لك الشفاعة لا تُنتهى أعتتها
 والبس من النعمة الخضراء أيكته
 دون القبول بمقبول من العذر
 ظللاً حراماً على الآفات والغير
 نعيم جنّة إن هي اتصرت
 نعمت بالخلد في الجنات والنهر⁽¹⁾

[البسيط]

نظم ابن زيدون قصيدته هذه وغيرها من القصائد ، وأرسل الرسائل المتتابعة إلى أبي الحزم ملتسماً عطفه ، وراجياً رحمته ، ولكن جهوده هذه باءت بالفشل ، إذ أصرّ أبو الحزم على إبقائه في سجنه ، وعدم العفو عنه ، ورأى الشاعر أن مخاطبة الأمير مباشرة لا تجدي نفعاً ، فلجأ إلى طريقة جديدة وهي مخاطبة وسيط علّه يتوسط له ، ويتشفع فيه ، فالتفت إلى صديقه أبي حفص بن بُرد⁽²⁾ يستجد به ، ويلتمس منه العون ، ويسأله التوسط لدى الأمير ، فخاطبه بقصيدة⁽³⁾ استهلها بالحكمة مجارة لشعراء المشرق⁽⁴⁾ ، ثم انتقل لمدح صديقه أبي حفص قبل أن (يعجب لمن آلفه من الأصدقاء ، كيف لا يسعون إلى خلاصه ، وهو يائس شقي في غياهب السجن)⁽⁵⁾ ، والأسوأ من ذلك أن هؤلاء الأصدقاء تتكروا للود ، وخانوا العهد ؛ فأشاحوا عن الشاعر بوجوههم ، واتقوا الاقتراب منه ، كما لو كان السامري (وهو الذي أضلّ بني إسرائيل ، ودعاهم إلى الشرك لما خرج موسى - عليه السلام - لمناجاة ربه ، فعاقبه الله بأنه لا يمسه إنساناً إلا أدركتهما الحمى معاً)⁽⁶⁾ ، فكان الناس يتحاشونه ، ويخشون مساسه ، وليس هذا فحسب ، وإنما انقلب بعض هؤلاء الأصدقاء على الشاعر ذئاباً يتمنون انتهاش لحمه ، وإلحاق الأذى به ، يسألون عنه ، ويتسقطون أخباره ، كما يعتس الذئب فريسته في ظلام الليل :

(1) ديوان ابن زيدون : 151 .

(2) أبو حفص أحمد بن محمد بن أحمد بن برد الأصغر ، تميزاً له عن جدّه الذي كان يعرف بالأكبر ، وزير وكاتب وشاعر ، له رسالة (السيف والقلم) . ينظر مطمح الأنفس لابن خاقان : 207 ، ورايات المبرزين وغايات المميزين لعلي بن سعيد الأندلسي ، تحقيق النعمان عبد المتعال القاضي ، مطابع الأهرام - القاهرة ، 1393هـ / 1973م : 71 .

(3) ومطلعها : ما على ظني بأسُ يجرحُ الدهرُ ويأسو

(4) القطوف البانعة : عبد الله الطباع : 189 .

(5) ابن زيدون شاعر العشق والحنين : عبد المجيد الحرّ ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط1 ، 1413هـ / 1993م :

. 122

(6) مختارات من الشعر الأندلسي : محمد رمضان الذابية ، منشورات المكتب الإسلامي - دمشق ، 1969م : 78 .

رِ وضوحٍ والتباسُ	أنا حيرانٌ وللأملِ —
لوا عن العهدِ و خاسوا	ما ترى في معشرِ حا
يتقى منه الميساسُ	ورأوني سامرياً
فاتتهاش ⁽¹⁾ وانتهاش ⁽²⁾	أذوبُ هامت بلحمي
لي ، ولذئبِ اعتساس ⁽³⁾	كلهم يسأل عن حا

[مجزوء الرمل]

ولكن الشاعر بعد هذا الغضب وذاك اليأس يعاوده الرضى والأمل ، فهذه الشدة سيعقبها فرج ، وهذا العسر سيتبعه يسر ؛ فالماء يتفجر من الصخر الصلد ، والغيوم تحبس الغيث ثم تطلقه غزيراً منهمراً ، أما الأسد الجريء فيلبد ويسكن قبل أن ينقض على فريسته :

إن قسا الدهرُ فللما	ء من الصخرِ انجاسُ
ولئن أمسيتُ محبو	ساً فالغيثِ احتباسُ
يلبدُ الوردُ السبنتي ⁽⁴⁾	وله بعدُ افتراس ⁽⁵⁾

[مجزوء الرمل]

ويختم الشاعر هذه القصيدة بمخاطبة صديقه أبي حفص قائلاً له : (وأنت أيها الصديق كن لي كما كنت ، وليبق ما بيننا من عهد مديداً دائماً ، بعمر الآس ، لا كذلك الورد الذي سرعان ما يداهمه الذبول ، ذكراً أي في ساعات سعادتك)⁽⁶⁾ ، واغتتم لحظات اللذة والصقاء ؛ لأن الحياة ليست إلا تلك اللحظات التي يختلسها الإنسان اختلاساً قبل أن تداهمه صروف الليالي ، أما أنا فأرجو أن يخلصني الدهر من هذه المعاناة ، وهذا الامتاع الطويل ، فأشاركك ساعات فرحك ، ولحظات سرورك :

لا يكن عهدكُ ورداً	إن عهدي لكُ آسُ
وأدرِ ذكري كاساً	ما امتطت كفكُ كاسُ

(1) الانتهاش : الأخذ بالفم . ينظر المعجم الوسيط ، ج 2 : 958 .

(2) الانتهاش : الأخذ بمقدم الأسنان . ينظر المعجم الوسيط ، ج 2 : 958 .

(3) ديوان ابن زيدون : 82 .

(4) الورد السبنتي : الأسد الجريء . ينظر المخصص لعلي بن إسماعيل المعروف بابن سيده ، دار الفكر - بيروت ،

(د.ت) ، سفر 8 ، مجلد 2 : 62 - 65 .

(5) ديوان ابن زيدون : 83 .

(6) ابن زيدون: نديم مرعشلي : 80 .

واغتم صفو الليالي
وعسى أن يسمح الدهر
إنما العيشُ اختلاسُ
رُ فقد طال الشَّماسُ⁽¹⁾

[مجزوء الرمل]

هدف ابن زيدون من قصيدته هذه إلى تذكير صديقه به ، وإثارة عاطفته ، وحمله على التشفع فيه عند أبي الحزم بن جهور ، وسواء أشفع فيه أبو حفص ، أم لم يفعل ذلك ، فقد ظلَّ الشاعر قابلاً في سجنه .

كان شعور الكبرياء يشيع في قصائد ابن زيدون السابقة ، وكانت أقرب إلى الفخر بنفسه منها إلى الاستعطاف ، فكان يعتزّ بنفسه كلَّ الاعتزاز ، ويتهم الزمان وأهله بإنكار قدره وجحود فضله ، ولكن في نهاية المطاف تغلب ظلام السجن عليه ، وكسر من حدته ؛ لذا نقرأ له أشعاراً نجد فيها كبرياءه مهزومة ، وعزته مكلومة ، فسها هو يتحدث عن معاناته التي جعلت رأسه يشيب وهو ما زال في حداثة سنّه ، هذه المعاناة التي لو تعرضت لها الجبال الشاهقة لتهاوت من شدتها ، ثم ينعت نفسه بالسيف الصديء الذي يملك الأمير حق التصرف فيه كيفما شاء :

مالي وللأيام لَجَّ مع الصِّبَا عدواتها فكسا العذار مَشِيْبَا
لألم بي ما لو ألم بشاهق لانهال جانبُه فصار كَثِيْبَا
أنا سيفك الصديء الذي مهما تشأ تُعدّ الصقال إليه والتدريبا⁽²⁾

[الكامل]

وفي قصيدة أخرى يصل الشاعر إلى حضيض اليأس ، ودرك المذلة ، فيصف نفسه بالذليل الذي فقد الأمل بالعفو عنه ، والرضى عليه :

(إِبَاتِي) فِي جِوَارِكُمُ الذَّلِيلُ وَحَدَى فِي رَجَائِكُمُ الْكَلِيلُ
أَتْحِيَا أَنْفُسُ الْأَمَالِ فِيكُمْ وَلِي أَتْنَاءُهَا أَمْلٌ قَتِيلٌ؟؟⁽³⁾

[الوافر]

(1) ديوان ابن زيدون : 83 .

(2) ديوان ابن زيدون : 131 - 133 .

(3) ديوان ابن زيدون ورسائله : 332 . الكلمة الأولى في البيت أضافها محقق الديوان لتناسب المقام .

وعلى الرغم من ذلك لم يستمع أبو الحزم لتوسلات الشاعر ، وظلّ غاضباً عليه ، مصراً على حبسه ، ولكنّ ابن زيدون لم ييأس تماماً من عفو الأمير وصفحه ، فخاطبه مخاطبةً أخيرة عندما أرسل له (الرسالة الجديّة)⁽¹⁾ ، ويبدو أنّ ابن زيدون قد استنفد المعاني في قصائده المتتابعة ، لذا نراه يكررها نثراً في رسالته هذه ، فقد أعرب فيها عن أمله بعفو أبي الحزم ، وعرض بالوشاة والشامتين ، وبرأ نفسه من الذنب الذي رمي به ، ثم ألحّ في طلب شفاعه الأمير التي هي (زكاة المروءة ، وفضل الجاه)⁽²⁾ ، لكن ما يعنينا في هذه الرسالة هو القصيدة الميمية⁽³⁾ التي خُتمت بها على أنّها جزء منها ، ولكن بعد الاطلاع على القصيدة ندرك أنها ليست جزءاً من الرسالة ، فالرسالة الجديّة كتبها ابن زيدون وهو يرزخ في قيود السجن ، وأرسلها إلى الأمير أبي الحزم بن جهور ، أما القصيدة فقد خاطب بها الشاعر أحد الوزراء :

أيهذا الوزيرُ ها أنا أشكو والعصا بدءُ قرعها للحليم⁽⁴⁾

[الخفيف]

ويطلب الشاعر من هذا الوزير التوسط له والتشفّع فيه ، ويثني عليه ثناءً يفوق ثناءه على الأمير ، فهو بشفاعته وتوسطه كالرياح التي تؤلف بين السحب المتفرقة فتجمعها ، والفضل في انهمار المطر يعود لهذه الرياح وليس للغيوم المتبعثرة :

للشفيع الثناء ، والحمدُ في صَوِّ ب الحيا للرياح لا للغيوم⁽⁵⁾

[الخفيف]

ولا نجد في القصيدة ذكراً للسجن ، فالشاعر يطلب من هذا الوزير أن يذلل له الصعاب ، ويعيده إلى حمى الأمير :

(1) ينظر إليها في النخيرة لابن بسام ، قسم 1 ، مجلد 1 : 340 - 346 . وديوان ابن زيدون ورسائله : 680 - 718 .

وفي الأدب الأندلسي لجودت الركابي : 266 - 281 .

(2) الرسالة الجديّة ، ديوان ابن زيدون ورسائله : 680 - 718 .

(3) ومطلعها : الهوى في طلوع تلك النجوم والمنى في هبوب ذلك النسيم

(4) ديوان ابن زيدون : 124 .

(5) ديوان ابن زيدون : 125 .

وزعيم⁽¹⁾ بأن يذلل لي الصغـ بـ مثابي إلى الهمام الزعيم⁽²⁾

[الخفيف]

كما نجد الشاعر يكرر المعاني والصور التي تناولها في قصائده السابقة المرسلة إلى أبي الحزم ، فما هو يشبهه نفسه بالشمس والقمر اللذين يكسفان دون غيرهما من النجوم ، ثم يشبهها بالفرس التي سئمت مربوطها ، وبالسيف الذي أفسده طول بقائه في غمده :

قَمَرُ الْأُفُقِ إِنْ تَأَمَّلْتَ وَالشَّمْسُ — سُهُمَا يُكْسِفَانِ دُونَ النُّجُومِ
مَا عَنَّا أَنْ يَأْتِفَ السَّابِقُ⁽³⁾ الْمَر — بِطٍ فِي الْعَتَقِ مِنْهُ وَالتَّهْطِيمِ⁽⁴⁾
وَبَقَاءِ الْحُسَامِ فِي الْجِفَنِ يَتَنِي — مِنْهُ بَعْدَ الْمَضَاءِ وَالتَّصْمِيمِ⁽⁵⁾

[الخفيف]

ولا يُعقل أن يكرر الشاعر هذه الصور ، وقد خاطب بها الأمير سابقاً دون جدوى .
وكما مرّ بنا فقد لبث ابن زيدون في سجنه خمسمئة يوم ، ونراه في هذه القصيدة يذكر هذه المدة :

أفصبر مئتين خمسا من الأيّـ ام ناهيك من عذاب أليم⁽⁶⁾

[الخفيف]

ويستبعد أن يكون الشاعر قد نظم هذه القصيدة في آخر يوم له في السجن ، فقد كان مشغولاً بأمرٍ أهم من نظم الشعر وهو الفرار من سجنه ؛ لذا أرجح أن يكون الشاعر قد نظم هذه القصيدة بعد فراره ، وألحقها برسالة أرسلها إلى أحد أصدقائه مستشفعاً فيه ، وأخطأ الكتاب السابقون عندما ألحقوا هذه القصيدة ومقدمتها النثرية بالرسالة الجدّية⁽⁷⁾ .

(1) زعيم : كفيل . ينظر المعجم الوسيط ، ج 1 : 394 .

(2) ديوان ابن زيدون : 125 .

(3) السابق : الحصان الذي يتقّم على سائر الخيول . ينظر المخصّص لابن سيده ، سفر 6 ، مجلد 2 : 177 .

(4) التطهيم : التمام من كل شيء . ينظر المعجم الوسيط ، ج 2 : 569 .

(5) ديوان ابن زيدون : 123 - 124 .

(6) ديوان ابن زيدون : 124 .

(7) لم تصلنا جميع أعمال ابن زيدون النثرية ، فقد ذكر المقرئ أن له كتاباً في التاريخ بعنوان (التبيين) ، لم تصلنا منه إلا فقرات وردت في (نفع الطيب) ، كما أن ابن زيدون كتب رسائل غير الرسالتين المشهورتين الجدّية والهزلية ، وخاطب في بعضها أصدقاء له وطلب منهم التشفع فيه ؛ كالرسالتين البكرية والمظفرية (ينظر إليهما في ديوان ابن زيدون ورسائله : 718 و 754) ، وحتى رسائله التي وصلت لم تصلنا مكتملة ، بل ضاعت أجزاء منها ، كما ألحقت فقرات من رسالة برسالة أخرى ، ومن هنا جاء الخطأ في إلحاق هذه القصيدة بالرسالة الجدّية .

فراره من السجن :

وأخيراً يضيق ابن زيدون بالسجن ، ويعزّ عليه أن يقضي حياته بين جدرانها ، ويدرك أن جميع محاولاته لاستعطاف أبي الحزم باءت بالفشل ، فيقرر الفرار من السجن ، ويتمكن من ذلك ، ولكنه يبقى متخفياً في قرطبة خائفاً مترقباً ، فيراسل أصدقاءه وهم قليلون بعد محنته يستشفع بهم ، ويخشى أن يتهموه في كرامته بسبب هذا الفرار ، فيعتذر عنه إلى صديقه أبي بكر بن مسلم (... ولم أستطع صبراً ، ولم أستجز أن أكون ثالث الأذليين : العير والوند ، وذكرت أن الفرار مما لا يطاق من سنن المرسلين ، وقد قال تعالى على لسان موسى : " ففرت منكم لما خفتكم " ، وقال الشاعر :

لا عارَ لا عارَ في الفرارِ فقد فرّ نبي الهدى إلى الغار⁽¹⁾

[المنسرح]

ثم يخاطب صديقه بقصيدة طائية⁽²⁾ يستهلها بالتعزّل بولادة ، قبل أن يفضي بالحديث عن معاناته التي أحالته إلى فريسة لكل مفترس ، ونهب لكل ساطٍ ، ثم يشبه نفسه بتشبيه طالما استخدمه في قصائده السابقة ، فهو كالجواد الصافن الذي أزرى به الربط ، وأثقله القيد :

ألا هل أتى الفتيان أن فتاهم فريسة من يعدو ونهزة من يسطو ؟
وأن الجواد الفانت الشاؤ صافن تخوته شكل وأزرى به رباط⁽³⁾

[الطويل]

وعلق الشاعر آماله على صديقه أبي بكر ، فهو ليس صديقاً فحسب ، وإنما هو بمثابة الأب بل بمنزلة الرهط بعدما فقد الشاعر أباه ، وتكرّر له رهطه ، ثم يذكر نعم صديقه عليه دون جحود أو نكران ، وكأنه يستحثه على تتويج هذه النعم بالاستشفاع له عند الأمير :

عليك أبا بكر بكرت بهمّة لها الخطرُ العالي ، وإن نالها حظ
أبي بعدما هيل التراب على أبي ورهطي فذا حين لم يبق لي رهط
لك النعمة الخضراء تتدى ظللها علي ولا جحدٌ لدي ولا غمط⁽⁴⁾

[الطويل]

(1) الذخيرة لابن بسام ، قسم 1 ، مجلد 1 : 356 .

(2) ومطلعها : شحطنا وما بالذار نأي ولا شحط

(3) ديوان ابن زيدون : 85 .

(4) ديوان ابن زيدون : 85 - 86 .

وشط بمن نهوى المزار وما شطوا

هَرِمْتُ وما للشَّيْبِ وَخَطَّ بِمِفْرَقِي ولكنْ لِشَيْبِ الهَمِّ فِي كَبْدِي وَخَطَّ
وَطَوَّلَ سَوْءَ الحَالِ نَفْسِي فَانْكَرْتُ مِنَ الرُّوضَةِ الغَنَاءِ طَاوَلَهَا القَحْطُ⁽¹⁾

[الطويل]

ولم تكن هذه المعاناة ، وهذا السجن إلا بسبب افتراء افتري به على الشاعر ،
وعندما فشل في إقناع أميره ببراعته فرّ من السجن ، والفرار لا يعيبه ، فقد فرّ موسى
- عليه السلام - من القبط لما همّوا بقتله :

وقد وسموني بالتي لست أهلها و لم يُمنَ أمثالي بأمثالها قَطُّ
فررتُ فإن قالوا الفرارُ إرابةٌ فقد فرّ موسى حين همّ به القِبطُ⁽²⁾

[الطويل]

ويختم الشاعر قصيدته آملاً أن تعود حياته كما كانت سعيدة هنيئة ، ينعم فيها بالأمن
والاطمئنان ، راجياً من صديقه أن يحقق له أمله ، ويختصّه بشفاعته تبقى ميسماً يزين حياته:

وإني لراج أن تعودَ كَبْدِيهَا لي الشِّيمَةُ الزَّهْرَاءُ والخَلْقُ السَّبِطُ
فمالك لا تختصني بشفاعته يلوحُ علي دَهْرِي لميسمها عَطُّ⁽³⁾⁽⁴⁾

[الطويل]

ولا ندري هل استجاب أبو بكر للشاعر واختصّه بالشفاعة التي طلب ؟ أم خيب أمله ؟ ،
على أي حال فقد ظلّ أبو الحزم غاضباً على الشاعر المختفي في أرجاء قرطبة حتى (ألقى
نفسه على أبي الوليد بن جهور في حياة والده أبي الحزم ، فشفع له ، وانتشله من نكبته ،
وصيره في صنائعه)⁽⁵⁾ ، فكان عفو أبي الحزم عن الشاعر بفضل شفاعته ابنه ، غير أن
بعض المؤرخين نفى هذه الشفاعه وزعم أنّ الشاعر (استشفع بأبي الوليد وتوسل ، واستدفع
به تلك الأسنّة المشرعة والأسل ، فما ثنى عليه عنان عطفه ، ولا كفّ عنه فنون صرفه ،
فتحيل لنفسه حتى تسلل من حبسه ، ففرّ فرار الخائف ، وسرى إلى إشبيلية سُرى الخيال

(1) ديوان ابن زيدون : 86 .

(2) ديوان ابن زيدون : 87 .

(3) العَطُّ : سواد تخطّه المرأة في وجهها تتزيّن به . ينظر المعجم الوسيط ، ج 2 : 621 .

(4) ديوان ابن زيدون : 87 - 88 .

(5) إعتاب الكتاب لابن الأبار : 208 .

الطائف (1)، ولكن هناك أمران يجعلان الباحث يفتد هذا الزعم ، ويرجح الرواية الأولى :
الأول شعر ابن زيدون الذي نعلم منه أن أبا الوليد قد أقاله من عثرته في حياة والده ، وأن
الشاعر يحفظ له هذا الجميل ، حيث يقول في قصيدة مدحه بها :

إِنَّ مَنْ أَضْحَى أَبَاهُ جَهْورًا قَالَتْ الْأَمَالُ عَنْهُ فَفَعَلْ
لِي ذِكْرٌ بِالَّذِي أَسَدَيْتَهُ نَابَهُ وَدُ حَسُودٍ لَوْ خَمَلٌ (2)

[الرمل]

والثاني أدلة تثبت أن ابن زيدون لم يهرب من سجنه إلى إشبيلية ، وإنما ظل في قرطبة طيلة
ولاية أبي الحزم ، حيث رثاه عند موته (3) وفاء بحق ابنه أبي الوليد ، ولا نظراً أنه رثاه وهو
بعيد عنه في إشبيلية ، ثم أن أبا الوليد (لما ولي الأمر بعد والده نوه به - أي بابن زيدون -
وأسنى خطته ، وقدمه في الذين اصطنعهم لدولته) (4) ، (وأوسع راتبه ، وعينه للنظر على
أهل الذمة في بعض الأمور المعترضة) (5) .

ونستطيع القول : إن ابن زيدون قد نال العفو بشفاعة أبي الوليد بن جهور ، وبقي
في قرطبة طيلة ولاية أبي الحزم ، وفي ولاية أبي الوليد استعاد مجده ، ومرة أخرى سطع
نجمه ، حتى بدأت سحب الجفاء بينهما تبدو ؛ فنزح الشاعر عن وطنه إلى إشبيلية مختاراً .
لماذا أخفق ابن زيدون في استعفاف أبي الحزم ؟

يبدو أن أبا الحزم كان متيقناً من أن الشاعر قد اقترف ذنباً ، فأصر على إبقائه في
سجنه لينال عقابه ، لكن الذي يهمننا هنا هو تلك الهنات والعيوب التي حوتها قصائد ابن
زيدون ، والتي جعلته يفشل في استمالة قلب الأمير إليه ، واستدراار عطفه ، فالشاعر عندما
كان يخاطب أميره من وراء القضبان (كان يخاطبه على شيء من الاعتداد بأدبه ، ورفاه

(1) قلاند العقيان : الفتح بن خاقان ، المطبعة الخديوية - مصر ، 1866م : 73 . والمغرب في حلى المغرب لابن
سعيد المراكشي : 63 - 64 .

(2) ديوان ابن زيدون : 127 - 128 .

(3) رثاه بقصيدة مطلعها : ألم تر أن الشمس قد ضمها القبرُ وأن قد كفانا فقدها القمرُ البدرُ . ينظر : ديوان ابن
زيدون ورسائله : 523 .

(4) الذخيرة لابن بسام ، قسم 1 ، مجلد 1 : 363 .

(5) إعتاب الكتاب لابن الأبار : 212 - 213 .

الشعراء ويساميهـم (1) ، كما كان مفتخراً بنفسه - كما مرّ بنا في قصائده السابقة -
 (مدركاً لمزايـاه ، غير مسترسل في مدح ابن جهور إلا من خلال نفسه) (2) ، حتّى ليكاد
 يكون معظم شعره فخراً واعتداداً أكثر منه تتصلاً واستعطافاً (3) .
 كما أنّ هناك أبياتاً استشفّ أبو الحزم من معانيها إساءة إليه ، وانتقاصاً منه ، فـها
 هو الشاعر يهدد بالالتجاء إلى غير أميره من الأمراء ، وإن قال ذلك على سبيل التهكم بمن
 يزين له ذاك السبيل :

يا مُرشِدي جهلاً إلى غيـره أغنى عن المصباح ضوء الصبـاح (4)
 [السريع]

ونجده في قصيدة أخرى يتعجل أجل أميره ، وإن كان هذا التعجل متزيناً بحلل المديح :
 يا بهجة الدهر حياً وهو إن فنيت حياته زينة الآثار والسيـر (5)
 [البسيط]

كما نراه يصف ما تعرّض إليه من سجن وعناء بنار البغي التي سرت إلى جنّة
 الأمن فأحالتها صريماً ، وكأنّه بذلك ينعت الأمير بالبغي والظلم :
 نارُ بغي سرى إلى جنّة الأمن نظّاهـا فأصبحت كالصريم (6)
 [الخفيف]

حتى الرسالة الجدية التي (حاول ابن زيدون أن ينحو نحو النابغة في اعتذارياته ،
 واستعطف بها في تذلل وتملق) (7) لا تخلو من معانٍ تتنافى ومقام الأمير ؛ كقوله في ختامها
 (وإنما أبست (8) لك لتدر ، وحركتُ لك الحوار (9) لتحن) (10) .

(1) أبناء العرب : بطرس البستاني ، دار مارون عبّود - بيروت ، 1979م ، ج 3 : 134 .

(2) في الألب الأندلسي : جودت الركابي : 266 .

(3) ابن زيدون عصره - حياته - أبنه - حسن جاد حسن : 158 .

(4) ديوان ابن زيدون : 146 .

(5) ديوان ابن زيدون : 150 .

(6) ديوان ابن زيدون : 125 .

(7) الجامع في تاريخ الألب العربي : حنا الفاخوري ، ج 1 : 927 .

(8) بس بس : صوت تدعى به الناقة أو الشاة للحلب . ينظر المعجم الوسيط ، ج 1 : 55 .

(9) الحوار : ولد الناقة من وقت ولادته إلى أن يُطم ويُفصل . ينظر المعجم الوسيط ، ج 1 : 205 .

(10) الرسالة الجدية ينظر إليها في النخيرة لابن بسام ، قسم 1 ، مجلد 1 : 340 - 346 . وديوان ابن زيدون

ورسانته : 680 - 718 .

لقد عفا أبو الحزم عن ابن زيدون في النهاية بفضل شفاعته ابنه ، وليس بفضل قصائده الاستعطافية المتكررة التي حوت عيوباً وهنات كانت نتيجتها أن ألبت الأمير عليه بدل أن تستدرّ عطفه ، وتستثير رحمته .

2. ابن عمار⁽¹⁾ :

ابن عمار⁽²⁾ والمعتمد⁽³⁾ ، لم يكن المعتضد بن عبّاد⁽⁴⁾ راضياً عن العلاقة التي تربط ابنه وولي عهده المعتمد مع ابن عمار ، فقد كان الاثنان متفقين (في الميول والأهواء وفنون الأدب والشعر والملاهي وأنواع السرور ، ولما تولّى المعتمد ولاية شلب⁽⁵⁾ جعل ابن عمار وزيراً له هناك ، وترك له الحكم والأمر والنهي ، وهناك عاش مع المعتمد عيشة اللهو والطرب والمجون)⁽⁶⁾ ، فخشي المعتضد على ابنه من هذا الشاعر ، ونهاه عن صحبته (ثم

(1) ابن عمار : أبو بكر محمد بن عمار المهري الأندلسي ، وُلد عام 422هـ ، مدح المعتضد ، ثم علت مكانته في أيام المعتمد ، ولُقّب بـ (ذي الوزارتين) ، قتله المعتمد عام 477هـ . ينظر وفيات الأعيان لابن خلكان ، ج 4 : 425 - 429 .

(2) ينظر قصة المعتمد مع ابن عمار في قلائد العقيان لابن خاقان : 90 - 99 . وأعمال الأعلام في من بويغ قبل الاحتلام للسان الدين بن الخطيب ، تحقيق ليفي بروفنسال ، دار المكشوف - بيروت ، ط 2 ، 1956م : 159 - 162 . والحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 134 . والنخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 405 - 433 . والمعتمد بن عبّاد : علي أدهم ، مكتبة مصر ، (دت) : 151 - 178 .

(3) المعتمد : أبو القاسم محمد بن عبّاد بن محمد بن إسماعيل ، المعتمد على الله ، وُلد في باجسه عام 431 ، كان شاعراً فصيحاً ، وكاتباً مترسلاً ، ولي إشبيلية بعد وفاة أبيه ، وامتلك قرطبة وكثيراً من البلاد الأندلسية ، استعاث بأمير المرابطين يوسف بن تاشفين عندما شعر بعظم خطر الإسبان ؛ فأغاثه وانتصر معه على الإسبان في موقعة الزلاقة عام 479هـ ، ثم تغرّر عليه ابن تاشفين وأسرّه في أغمات ، وظلّ فيها أسيراً إلى أن توفي عام 488هـ . ينظر وفيات الأعيان لابن خلكان ، ج 5 : 21 - 39 . وريات المبرزين لابن سعيد الأندلسي : 37 . وسير أعلام النبلاء للذهبي ، ج 19 : 58 - 67 . والأعلام للزركلي ، مجلد 6 : 181 .

(4) المعتضد بالله عبّاد بن محمد ، حكم إشبيلية بعد وفاة أبيه عام 433هـ ، اتصف بالذهاء والقسوة ، توفي عام 461هـ . ينظر النخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 24 - 25 .

(5) شلب : بكسر الشين أو فتحها ، مدينة بغربي الأندلس بينها وبين قرطبة مسيرة عشرة أيام ، امتاز أهلها بحبهم للأدب ونظمهم للشعر ، ينسب إليها جماعة من العلماء . ينظر معجم البلدان لياقوت الحموي ، مجلد 3 : 357 .

(6) بلاغة العرب في الأندلس لأحمد ضيف : 113 .

خوفه ففرّ ابن عمار إلى سرقسطة⁽¹⁾ (2) ، وأقام فيها إقامة تعسة ، يحنّ إلى المعتمد وأيامه معه ، ومن هناك أرسل إليه قصيدة يرثي فيها حاله ، ويندب حظّه ، ويخيل إليه أن سائر الكائنات حوله متعاطفة معه ، حزينة على مصابه :

عَلَيَّ وَإِلَّا مَا بُكَاءُ الْغَمَائِمِ وَفِيَّ وَإِلَّا مَا نِيحُ الْحَمَائِمِ
وَعَنِي أَثَارُ الرَّعْدِ صرْحَةً طَالِبِ لثَارٍ وَهَزَّ الْبَرْقُ صَفْحَةً صَارِمِ
وَمَا لَيْسَتْ زَهْرُ النُّجُومِ حِدَادَهَا لغيري وَلَا قَامَتْ لَه فِي مَائِمِ⁽³⁾

[الطويل]

وما سبب هذا الحزن إلاّ ابتعاده عن بلاد عزيزة على قلبه ، قضى فيها أسعد لحظات شبابه في عيش ناعم رغيد :

أشْلُبُ؟ وَلَا تَنْسَابُ عَبْرَةَ مُشْفِقِ وَحِمَصُ⁽⁴⁾؟ وَلَا تَعْتَادُ زَفْرَةَ نَادِمِ
كسَاهَا الْحَيَا بُرْدَ الشَّبَابِ فَبَاتَهَا بِلَادَ بِهَا عَقَّ الشَّبَابُ تَمَائِمِي⁽⁵⁾

[الطويل]

وكان حقاً على الشاعر أن يحزن ، وقد انتقل من بيئة العلم والأدب والشعر إلى بيئة تفتقد العلم والعلماء والأدب والأدباء ، فكان كالفتى العربي الذي ألقت به الأقدار بين أعاجم لا يألفهم ولا يألفوه ، ولم تكن إقامته بين هؤلاء طوعاً بل كرهاً ، بسبب تغير أصحابه وسخطهم عليه ، ولومهم إياه حتى أرغموه على مغادرة بلادهم :

(1) سرقسطة : مدينة أندلسية شهيرة ، تقع على نهر كبير ، اشتهرت بفاكهتها ، وبالتياب التي تُصنع بها وتسمى باسمها ، وكان الناس يبالغون في محاسنها ، فيقولون : أن الأفاعي لا تعيش فيها ، وأن الأطمعة تبقى فيها مدة طويلة ولا تتعفن . ينظر معجم البلدان لياقوت الحموي ، مجلد 3 : 212 - 213 . والخلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية لشكيب أرسلان ، المطبعة الرحمانية - مصر ، ط 1 ، 1355هـ / 1936م ، ج 2 : 116 .

(2) المغرب في حلى المغرب لابن سعيد المراكشي : 389 .

(3) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 372 .

(4) حمص (إشبيلية) : مدينة أندلسية كبيرة ، عاصمة بني عبّاد ، تقع على نهر كبير ، تحيط بها بساتين الأشجار والزيتون وسائر الفاكهة ، وكان يزرع فيها اللقطن ، ويحمل منها إلى جميع بلاد الأندلس والمغرب . ينظر معجم البلدان لياقوت الحموي ، مجلد 1 : 195 . ونزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الإدريسي ، عالم الكتب - بيروت ، ط 1 ، 1409هـ / 1989م ، مجلد 2 : 541 .

(5) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 372 .

هو العيشُ لا ما أشتكيه من السرى
وصُحبة قومٍ لم يهدبَ طباعهم
وما حالٌ من ربته أرضُ أعرابٍ
ونبتت إخوان الصفاء تغيروا
لقد سخطوا ظمأً على غيرٍ ساخطٍ
إلى كل ثغرٍ أهلٍ مثل طاسمٍ
لقاءً أديبٍ أو نوادرٍ عالمٍ
وألقت به الأقدارُ بين الأعاجمِ
وذموا الرضى من عهدي المتقادمِ
عليهم ، ولاموا ضلةً غيرَ لائمٍ⁽¹⁾
[الطويل]

ويختم الشاعر قصيدته بمخاطبة المعتمد مخاطبة الخاضع الدليل حتى لو بلغ أسمى
المراتب وأعلى الأمكنة ، راجياً أن تعود أيام الوصال كما كانت سعيدة هنيئة ، فيدول ترح
البُعد والفراق إلى فرح العودة واللقاء :

أنا العبدُ في ذلِّ الخضوعِ لو أنني
وإني إذا أنصفتَ بعدك خادمٍ
لعل الذي أقدى بترحةٍ راجلٍ
فترجع أيام مضت وكأنها
أرى البذر تاجي و النجوم خواتمي
لدهري ، وكان الدهرُ عندك خادمي
عيوناً سيجلوها بفرحةٍ قادمٍ
إذا امتثلتها النفس لذةً حالمٍ⁽²⁾
[الطويل]

وتوفي المعتمد وخلفه المعتمد ابنه الذي سرعان ما أعاد صديقه ابن عمار من
منفاه، وجعله ملازماً له ، (وصار عنده كجعفر عند الرشيد)⁽³⁾ ، وأخذ يستشيرَه في أمور
الدولة ويأخذ برأيه ، وحدث أن أراد المعتمد ضم مرسية⁽⁴⁾ ، وأراد أن يحتاط للأمر فرأى
الاستعانة بصاحب برثلونة (الكونت ريموند) ؛ فأرسل ابن عمار ليفاوضه ، فوافق الكونت
على تقديم المساعدة لقاء مبلغ كبير من المال ، وتم الاتفاق بينهما على أن يرسل الكونت ابن
أخيه رهينة عند المعتمد حتى لا يخل بشروط الاتفاق ، ووعده ابن عمار من جانبه أنه إذا لم
يصل المال إلى الكونت في الأجل الذي ضربه ، يصبح الرشيد بن المعتمد الذي كان يقود
الحملة رهينة عند الكونت ، وكان المعتمد يجهل هذا الشرط من شروط الاتفاق ، وأرسل

(1) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 374 .

(2) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 375 - 376 .

(3) المغرب في حلى المغرب لابن سعيد المراكشي ، ج 1 ، 289 .

(4) مرسية (تميمير) : مدينة بالأندلس بناها عبد الرحمن بن الحكم حفيد عبد الرحمن الداخل ، وسماها تميمير ، تكثر
فيها الأشجار والحدائق المحدقة بها . ينظر معجم البلدان لياقوت الحموي ، مجلد 5 : 107 .

المعتمد ابنه الرشيد في جيش إشبيلية ، وأخذ يسعى في تدبير المال المطلوب وفي نيته أن يلحق به بعد جمعه ، (ولم يكن ابن عمار يُقدر أن المعتمد قد يتأخر في إرسال المال المطلوب ، ولذلك قبل شرط أن يرهن كل واحد منهما ما يثق به ، واعتقد أن شرط الرهن لن يُطبَّق)⁽¹⁾ .

وتأخر المعتمد في إرسال المال المطلوب ، فاعتقد الكونت أن المعتمد قد مكر به ؛ فقبض على ابن عمار وعلى الرشيد بن المعتمد وقيدهما ، وعجز جيش إشبيلية عن تخليصهما ، فعلم المعتمد بالخبر ، فغضب على ابن عمار غضباً شديداً ، وبعد أيام أطلق الكونت سراح ابن عمار ، وأبقى الرشيد مقيداً ، فتوجه ابن عمار إلى المعتمد ، ولكنه لم يجترئ على المثل بين يديه⁽²⁾ ؛ فأرسل إليه قصيدة يُعرب فيها عن حيرته أيقبل على المعتمد صاغراً نادماً أم يهيم على وجهه في ربوع الأرض ؛ فذنبه عظيم ، وجريته لا تُغفر ، فهو لم يبرم اتفاقاً مع الكونت يجهله المعتمد وحسب ، بل أن ابن المعتمد وقائد جيشه يبرزخ الآن في السلاسل والقيود بسببه :

أصدقُ ظني أم أصيخُ إلى صحبي فأمضى عزمي أم أعوجُ مع الركب
وأصبحتُ لا أدري أفي البعدِ راحتي فأجعلهُ حظي أم الحظُّ في القرب
إذا انقذتُ في أمري مشيتُ مع الهوى وإن أتعبه نكصتُ على عقبي⁽³⁾

[الطويل]

وعلى الرغم من ذلك يظهر الشاعر رانياً إلى رضى مليكه ، طامعاً بعفوه :

على أنني أدري بأنك مؤثرٌ على كل حال ما يُزخرحُ من كربى
أهابك للحق الذي لك في دمي وأرجوك للحب الذي لك في قلبي⁽⁴⁾

[الطويل]

والشاعر إن أذنب فقد كان ذنبه غير متعمد ، فالمعتمد كلفه بمهمة شاقة ، وأخفق بها وعجز عنها ؛ لذلك أضحى الابتعاد عنه أكثر أنساً من مواجهته والمثل بين يديه :

(1) المعتمد بن عبّاد لعلي أدهم : 153 .

(2) الحلة السيرة لابن الأبار ، ج2 : 135 - 138 . والمعتمد بن عبّاد لعلي أدهم : 151 - 156 .

(3) النخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 407 . وقلاند العقيان لابن خاقان : 90 - 91 . والحلة السيرة لابن الأبار ، ج2 : 135 .

(4) النخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 407 . والحلة السيرة لابن الأبار ، ج2 : 136 .

وما جئتُ شيئاً فيه بغِيَ لطالبٍ يضافُ به رأيٌ إلى العجزِ والعجبِ
سوى أنني أسلمتني لملمةٍ فقلتُ بها حدِّي وكسرتَ من غربي
وما أغربَ الأيامَ فيما قضتُ به تُريني بُعدي عنكَ آنسٌ من قُربي⁽¹⁾

[الطويل]

ويحاول الشاعر أن يبرأ نفسه ، ويلمح من طرف خفي أن الذنب ليس ذنبه ، وإنما هو ذنب المعتمد الذي تلكأ في إرسال المال المطلوب ، ولكن الشاعر يحمل نفسه فوق ما تحتمل ، وينسب إليها الذنب اعترافاً منه بفضائل المعتمد وأياديه البيضاء عليه :

أما أنه لولا عوارفك التي جرت جريان الماء في الغصن الرطب
لما سمنت نفسي ما أسوم من الأذى ولا قلتُ أن الذنبَ فيما جرى ذنبي⁽²⁾

[الطويل]

ويختتم الشاعر قصيدته راجياً عفو المعتمد ، ذلك العفو الذي سيكون برداً وسلاماً على قلبه المتقد خوفاً ورهبة :

سأستمنح الرُحْمى لديك ضراعةً وأسأل سقياً من تجاوزك العذب
فإن نفحتني من سمانك حرجف⁽³⁾ سأهتف يا برد النسيم على قلبي⁽⁴⁾

[الطويل]

وكان المعتمد يشعر بما عليه من تبعه فيما حدث ، وأن الذنب والتقصير كانا من جانبه ؛ لذا لم يصبَّ جام غضبه على ابن عمار ، وإنما كتب إليه بقصيدة ليدخل الاطمئنان إلى قلبه ، ويشجعه على المجيء إليه ، والمعتمد في قصيدته هذه يدعو ابن عمار إلى القدوم ، فهو ما زال - كما عهدته ابن عمار - صفوحاً عن الجاني ، معرضاً عن الذنوب ، فقلبه ليس قاسياً ، والتتكر للأذمة والخلان ليس من شيمه :

تقدّم إلى ما اعتدتَ عندي من الرُحْب وردّ تلقّك العنبي حجاباً من العتبِ
متى تلقّني تلقّ الذي قد بلوتَه صفوحاً عن الجاني رؤوفاً على الصّخبِ
سأوليك مني ما عهدتَ من الرّضى وأعرضُ عما كان - إن كان - من ذنبِ

(1) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 407 . والحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 136 .

(2) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 407 . والمعتمد بن عبّاد : علي أدهم : 151 - 157 .

(3) حرجف : الرياح الباردة . ينظر المعجم الوسيط ، ج 1 : 165 .

(4) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 407 . والمعتمد بن عبّاد : علي أدهم : 151 - 157 .

فما أشعر الرحمن قلبي قسوةً ولا صار نسيان الأذمة من شعبي⁽¹⁾

[الطويل]

والتقى ابن عمار والمعمد ، وحللاً المشكلة التي واجهتهما ، فدفعاً إلى الكونت المال المطلوب ، وأطلق سراح الرشيد ، وأخفقت محاولة ضمّ مرسية ، إلا أن المعتمد لم يرجع عن طلبها ، فقد حاول مرّة أخرى ، ونجح في محاولته ، فقد اقتحمها جيوشه ، وضمّتها إلى مملكته ؛ فأرسل ابن عمار حاكماً عليها ، وممثلاً له فيها ، ولكن ابن عمار ما أن وصلها حتى أخذ يتصرف باستقلالية ، فقد جلس مجلس التهنئة للخوادم والعوام ، وأنشد الشعراء القصائد التي نظمها في مدحه هو ، وتزيّى بزّي المعتمد في حمل الطويلة على رأسه كما كان يفعل المعتمد في مثل هذه المناسبة ، وحاكاه فيما كان يكتبه في آخر الالتماسات التي تُقدّم إليه وهو (ينفذ هذا إن شاء الله) دون أن يذكر اسم المعتمد ، وتختّم في كتبا يديه ، ولما علم المعتمد بذلك استاء ، وأرسل إلى ابن عمار ببيتين يعبر فيهما عن أساه وما خالجه من ظنون :

تغيّر لي فيمن تغيّر حارثُ وكلُّ خليلٍ غيرتهُ الحوادثُ
أحارثُ إن شوركُ فيك فطالما نعمنا وما بيني وبينك ثالثُ⁽²⁾

[الطويل]

ويسارع ابن عمار للردّ على المعتمد ، نافياً ما اتهم به ، فهو وفيٌّ لملكه ، مخلصٌ له ، محافظٌ على عهده ، ولكنّ الوشاة المفسدين لا يهمهم إلا إفساد العلاقة بينه وبين المعتمد باتهامه بالتغيّر عليه ، وخيانة عهده ، وهذا ما لم يحصل لا سيّما أنه مكث خمساً وعشرين سنة خادماً مخلصاً له ، وسوف يبقى كذلك حتى مماته :

لك المثل الأعلى وما أنا حارثُ ولا أنا ممن غيرتهُ الحوادثُ
أظنّ الذي بيني وبينك أذهبُ حلاوتهُ عنّي الرجالُ الأخابثُ
تنكرت لا أني لفضلك ناكِرُ لديّ ولا أني لعهدك ناكِثُ
أبعدُ انقضا خمسٍ وعشرين حجّةً تجافت لنا عنها الخطوبُ الكوارثُ
وهل أنا إلا عبدٌ طاعتك التي إذا متُ عنها قامَ بغدي وارثُ⁽³⁾

(1) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 408 . والحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 136 .

(2) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 405 . والحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 143 .

(3) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 406 . والحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 143 - 144 .

[الطويل]

ويدعو الشاعر المعتمد إلى أن يترى في الحكم عليه ، وأن لا يصدق أولئك الوشاة الذين يحاولون جاهدين تأجيج نيران العداوة بينهما ، ولا يفوت الشاعر أن يشير إلى مناقبه ، فهو ذو رأي حاضر وبصيرة نافذة ، يفوق المحيطين بالمعتمد قوة وذكاء ، لا ينبغي للملك أن يطيع العدا فيه ، فيتخلى عنه لأنه سيحتاج يوماً إلى قدراته التي طالما عادت بالنفع عليه وعلى دولته :

أعد نظراً لا توهن الرأي أنه قديماً كبا هاف وأدرك رائث
ستذكرني إن بان حبلي وأصبحت تبين بكفك الحبال الرثائث
وتطلبني إن غاب للرأي حاضر وقد غاب عني للخواطر باعث
أعود بعهد نطته بك أن ترى تحل عراه العاقبات النواكث⁽¹⁾

[الطويل]

كان ابن عمار يعرف ما فطر عليه المعتمد من سماحة نفس وسجحة خلق ؛ لذلك فقد عرف كيف يخاطبه ويستميل قلبه ، أو لنقل عرف كيف يخدعه بلسانه ، وصدق المعتمد وعاد إلى حسن رأيه فيه ، ولكن سريرة ابن عمار لم تكن سليمة ، وكان يدور فيها عكس ما قال وزعم ، فقد كان بعيد الطموح ، مفرط الغرور ، محباً في الاستعلاء قاصداً الانفصال عن المعتمد والتكبر له ، وحدث أن غضب ابن عمار على ابن طاهر حاكم مرسية السابق التي أطاحت به جيوش المعتمد وسجنه ، وكان ابن طاهر صديقاً حميماً لابن عبد العزيز حاكم بلنسية⁽²⁾ ، فلما علم ابن عبد العزيز باعتقاله خاطب المعتمد شافعاً له ، ومناضلاً عنه ، واستجاب المعتمد لرجاء ابن عبد العزيز ، فأمر ابن عمار بإطلاق سراحه ، ولكن ابن عمار لم يحفل بأمر المعتمد ، وأبى أن يفك اعتقاله ، وركب رأسه ولجّ في عناده ، وهكذا اتسع الخرق بين الصديقين ، وفسدت العلاقة بينهما فساداً لا يرجى صلاحه ، رافقه قصائد متبادلة سخر فيها المعتمد من ابن عمار ، وقابله ابن عمار بشعر هجاه فيه ، وهجا أباه :

مما يقبح عندي ذكر أندلس سماع معتضد فيها ومعتمد

(1) الحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 144 .

(2) بلنسية : مدينة بالأندلس تقع شرقي قرطبة ، تكثر فيها الأشجار والأنهار ، سقطت بيد الروم عام 487هـ ، واستردّها المرابطون عام 495هـ ، قال ياقوت عن أهلها : (إنهم خير أهل الأندلس) . ينظر معجم البلدان لياقوت الحموي ، مجلد 1 : 194 .

أسماء مملكة في غير موضعها كألهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد⁽¹⁾

[البسيط]

وبالغ في الإساءة في قصيدته اللامية⁽²⁾ حين سبّ المعتمد وزوجه وأولاده سباً قبيحاً ، وأسفّ فيها إسفافاً شنيعاً ، ثم مضى يطعن المعتمد في رجولته ، وينكر عليه الكرم والشجاعة ، وينذره بأنّه سيستمرّ في هتك عرضة ، وتشويه سمعته ، ومما قاله في هذه القصيدة :

تخيّرتها من بنات الهجان	رميكة ما تساوي عقالا
فجاءت بكلّ قصير العذار	لثيم النجارين عمّاً وخالا
فيا عامر الخيل يا زيدها	منعت القرى وأبخت العيالا
أراك توري بحبّ النساء	وقدماً عهدتكَ تهوى الرجالا
أتذكر أيامنا بالصبا	وأنت إذا لحت كنت الهلالا

سأهتك عرضك شيئاً فشيئاً وأكشف سترك حالاً فحالاً⁽³⁾

[المتقارب]

(1) وفيات الأعيان لابن خلكان ، ج 4 : 428 . وسير أعلام النبلاء للذهبي ، ج 18 : 583 .

ذكر المقرئ أن هذين البيتين لابن رشيق القيرواني ، وورد البيتان في ديوان ابن رشيق مع تغيير بسيط في عجز البيت الأول ؛ فالكلمة الأولى فيه كانت (تلقيب) في نفع الطيب و (سماع) في الديوان ، كما حدث ابن شرف أنه دعا ابن رشيق لجواز البحر إلى الأندلس بعدما خرّبت القيروان فأجابه بهذين البيتين .

وأرجح أن يكون البيتان لابن عمار وليس لابن رشيق الذي غادر الأندلس فتي عام 406هـ أي قبل تولي المعتضد الحكم ، ولم تذكر المصادر التي ترجمت له وجود علاقة بينه وبين المعتضد أو المعتمد ؛ لذا أستبعد أن يكون قد هاجمها لانعدام الأسباب التي تجعله يقدم على ذلك ، أمّا ابن عمار فقد نفاه المعتضد وتأزمت العلاقة بينه وبين المعتمد غير مرة ، الأمر الذي جعلنا نتفهم سبب هجائه لهما . ينظر : نفع الطيب للمقرئ ، ج 1 : 214 . والذخيرة لابن بسام قسم 4 ، مجلد 2 : 597 . وديوان ابن رشيق القيرواني ، شرح صلاح الدين الهوارى ، دار الجيل - بيروت ، ط 1 ، 1416هـ / 1996م : 66 . ورسائل الانتقاد في نقد الشعر والشعراء : محمد بن شرف القيرواني ، تحقيق حسن

حسني عبد الوهاب ، دار الكتاب الجديد - بيروت ، ط 1 ، 1983م : 9 .

(2) ومطلعها : ألا حيّ بالغرب حيّاً حلالاً أناخوا جمالاً وحازوا جمالاً

(3) نفع الطيب للمقرئ ، ج 4 : 212 - 213 . الحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 157 - 158 . والمعتمد بن عباد لعلي أدهم : 169 .

(لقد أحرق ابن عمار بهذه القصيدة سفنه ، وأصبح الصلح بينه وبين المعتمد غير ميسور ، فلا هو ولا الرميكية زوجته ولا أولاده يمكن أن يتسامحوا في قبول مثل هذا الهجاء القاسي ، وقد دلّ ابن عمار بهذه القصيدة على خسة وسوء أدب متناهيين ، وتطاول تطاولاً غير مستساغ على ولي نعمته الذي أخذ بضبعه من حضيض المهانة ، ورفعته إلى الذروة)⁽¹⁾ ، ولم يسارع المعتمد إلى معاقبة ابن عمار ، فقد جاء عقابه من حيث لا يحتسب ، إذ أن صديق ابن عمار وقائد جنده (ابن رشيق)⁽²⁾ خانته بعدما سلّم أقاربه وبقائه المناصب القيادية الحساسة في مرسية ، ثم حرّض الجند على طلب إعطياتهم المتأخرة منه ، وعندما عجز ابن عمار عن أداء ذلك والوفاء به ثار عليه الجند وهددوه بأن يسلموه للمعتمد إذا لم يرضهم ؛ فارتعدت فرائص ابن عمار من هذا التهديد ، وخشي عاقبته ، وفرّ هارباً إلى سرقسطة ، وهناك لاذ بكنف ملكها المقتدر بن هود ، ولم يستطع ابن عمار العيش هناك بمعزل عن السياسة ؛ لذا فقد تطوّر بإعادة منطقة انتزى بها عامل لابن هود ، وفعلاً تمكّن ابن عمار من ذلك ، فقد غدر هذا العامل ، وكانت تربطهما صداقة قديمة ، واستطاع قتله ، وأعاد هذه المنطقة إلى ملك المقتدر ، ثم عنّ له بعد ذلك أن يقنع المقتدر بالاستيلاء على حصن شقورة وهو حصن منيع قريب من سرقسطة ، ظلّ محافظاً على استقلاله ، وأراد ابن عمار الاستيلاء عليه بالخدعة ، كما فعل عندما قتل العامل المنتزى ، فذهب ابن عمار إليه ، وطلب مقابلة القائمين عليه ليوقعهم في شركه ، وتمّ له ذلك ، ولكن بدل أن يوقعهم في الشرك وقع هو فيه ، فقد اعتقله القائمون على هذا الحصن وقيدوه ، وعرضوه للبيع لمن يدفع أكثر من أمراء الأندلس ، وفي ذلك يقول :

أصبحتُ في السوّقِ يُنادى على رأسي بأنواع من المالِ
و الله ما جَارَ على مالِهِ من ضمّني بالثمن الغالي⁽³⁾
[السريع]

(1) المعتمد بن عباد لعلي أدهم : 170 .

(2) ابن رشيق : عبد الرحمن بن رشيق ، قائد الجند في مرسية ، خدع ابن عمار واستولى على الحكم ، وظلّ ملكاً لمرسية حتى استولى عليها يوسف بن تاشفين . ينظر أعمال الأعلام لابن الخطيب : 160 .

(3) النخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 419 . وقلاند العقيان لابن خاقان : 92 . والمغرب في حلى المغرب لابن سعيد المراكشي : 390 .

خفَّ المعتمد لشراء ابن عمار ، بل إنه اشترى حصن شقورة بكامله ، وأرسل ابنه الراضي ليتسلم ابن عمار ، وأمر الذين أرسلهم مع الراضي أن يزيدوا في الاحتياط عليه وتقديده ، فخرجوا به حتى أدخلوه قرطبة مقيداً ذليلاً مهيناً .
ابن عمار يستعطف أبناء المعتمد :

عندما اعتقل ابن عمار في حصن شقورة أدرك أنه سيسلم إلى المعتمد ، وسيلاقى جزاء خيانتة له ، وإنكاره نعمه ، ولكنه لم يفقد الأمل في عفو المعتمد وصفحه ، فلجأ إلى طلب الشفاعة من الراضي بن المعتمد ، فكتب إليه عند قدومه شقورة لتسلمه راجياً منه أن يفتديه ، ويتشفع فيه عند أبيه ، ويكون سبباً في العفو عنه :

قالوا : أتى الراضي ، فقلتُ : لعنها	خلعتُ عليه من صفاتِ أبيه
يا أيُّها الراضي وإن لم تلقني	من صفحة الراضي بما أدريه
هَبْكَ احتجبت لوجهِ عذريِّين	بذلُ الشفاعةِ أي عذريِّ فيه
سهل على يدك الكريمة أحرقاً	في مَنْ أسرت فتنتني تفتديه ⁽¹⁾

[الكامل]

ويبدو أن الراضي لم يستجب إليه ، ولم يحاول الاستشفاع له ، فأعاد ابن عمار الكرة ، لكن هذه المرة مع المأمون الفتح بن المعتمد إذ خاطبه عندما قارب قرطبة قائلاً :

هلاً سألت شفاعة المأمون	أو قلت ما في نفسي يكفيني
ما ضرراً لو نبهته بتحية	يسري النسيم بها على دارين ⁽²⁾
يا فتح جردها عناية فارس	درب على نصر الولي أمين
واقرن شفاعتك الكريمة عنده	بتواضع في عزة لا هون ⁽³⁾

[الكامل]

وخاطب الرشيد بن المعتمد كما خاطب أخونه من قبله مستشفعاً مستعظفاً :
قل لبرق الغمام ظاهر بريدي قاصداً بالسلام قصر الرشيد

(1) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 423 . والحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 151 .

(2) دارين : قرية في بلاد فارس على شاطئ البحر ، وهي مرفأ سفن الهند بأنواع الطيب والمسك ، فيقال : مسك دارين . ينظر معجم ما استعجم لعبد الله بن عبد العزيز البكري الأنلسي ، تحقيق مصطفى السقا ، عالم الكتب - بيروت ، ط 2 ، 1403هـ / 1983م ، مجلد 1 : 538 .

(3) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 424 . والحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 151 .

فتقلب في جوّه كـفـؤادي وتناثر في صحنه كالقريد
وانتحب في صلاصل الرعد تحكي ضجتي في سلاسل وقيودي
فاذا ما اجتلاك أو قال : ماذا ؟ قلت : إني رسولُ بغضِ العبيد
بغضُ مَنْ أبعدته عنك الليالي فاجتني طاعةَ المحبِّ البعيد⁽¹⁾
[الخفيف]

إن الأخوة الثلاث لم ينسوا إساءة ابن عمار لهم ولأمهم ولأبيهم ، فقد هجاهم جميعاً بعدما خان والدهم وتغير عليه ؛ لذلك لم يتشفع أي واحد منهم فيه ، بل كانوا جميعاً متلهفين على عقابه جزاء خيانتته وسوء أفعاله .

ابن عمار يستعطف المعتمد :

أقام ابن عمار في سجنه ينتظر مقابلة المعتمد ، وكان في أسوأ حال ، فذنبه عظيم مع سيده وولي نعمته ، وخجله من هذا الذنب أعظم :

والله ما أدري إذا قالوا : غداً يوم اللقاء
ما أقتل الحاليين لي إن كان خوفي أو حيائي⁽²⁾

[مجزوء الكامل]

وأدخل على المعتمد في قرطبة ذليلاً مهيناً ، فجعل المعتمد يعدد أياديه ونعمه عليه ، وابن عمار مطرق لا ينبس ، فلما أتم المعتمد كلامه توسل إليه ابن عمار كي يعفو عنه ، فأبى المعتمد ذلك ، وأمر بنقله إلى إشبيلية ، وهناك حبس في غرفة على باب قصر المعتمد ، وطال سجنه فيها ، فبعث ذلك الأمل في نفسه ، فكتب إلى المعتمد معترفاً مستعظفاً ومُعترفاً بذنبه ، آملاً بعفوه وصفحه :

سجايك - إن عافيت - أندى وأسمح وعذرك - إن عاقبت - أجلي وأوضح
وإن كان بين الخطتين مزية فأتت إلى الأندى من الله أجنح⁽³⁾

[الطويل]

وكجلاً الشعراء المستعطفين ينتقل الشاعر للحديث عن الوشاة الذين لا هم لهم سوى إيغار صدر المعتمد على الشاعر :

(1) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 426 . والحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 152 - 153 .

(2) الحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 154 .

(3) قلاند العقيان لابن خاقان : 98 . والحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 153 . وأعمال الأعلام لابن الخطيب : 161 .

حَنَاتِيكَ فِي أَخْذِي بِرَأْيِكَ ، لَا تَطْعُ
وَشَاتِي وَلَوْ أَثْنَوْا عَلَيَّ وَأَفْصَحُوا
وَأَنَّ رَجَائِي أَنْ عِنْدَكَ غَيْرَ مَا
يَخُوضُ عَدُوِّي الْيَوْمَ فِيهِ وَيَمْرَحُ⁽¹⁾

[الطويل]

ويذكر الشاعر المعتمد بالود الذي يكنه له ، وبالخدمات الجليلة التي قتمها له ولدولته ، وهما كفيلان بتخفيف وطأة ذنبه ؛ فالإنسان يخطئ ويصيب ، وكم مفسد أعقب فساده بصلاح ، وخطأه بصواب . ثم يطلب من المعتمد إقالته من عثرته ، وصفحه عن زلته :

وَلَمْ لَا ، وَقَدْ أَسْلَفْتُ وُدًّا وَخِذْمَةً
يَكْرَانِ فِي لَيْلِ الْخَطَايَا فَيَصْبِحُ
وَهَبْنِي قَدْ أَعْقَبْتُ أَعْمَالَ مُفْسِدٍ
أَمَّا تَفْسِدُ الْأَعْمَالَ ثَمَّتْ تَصْلُحُ
أَقْنِي بِمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنْ رَضَى
لَهُ نَحْوِ رُوحِ اللَّهِ بِأَبِّ مُفْتَحٍ⁽²⁾

[الطويل]

ويعود الشاعر مرّة أخرى للتعريض بالوشاة ، وهذه المرّة يخصّ بني عبد العزيز حكام بلنسية ، وكان بين الشاعر وبينهم عداوة ، ويتخيلهم الشاعر وقد افتروا عليه ، ونسبوا إليه ما لم يقترفها كي يعاقبه المعتمد فيشمتون به :

وَلَا تَسْتَمِعْ زُورَ الْوَشَاةِ وَإِفْكَهْمُ
فَكُلُّ إِنَاءٍ بِالَّذِي فِيهِ يَرشَحُ
سَيَأْتِيكَ فِي أَمْرِي حَدِيثٌ وَقَدْ أَتَى
بِزُورِ بَنِي عَبْدِ الْعَزِيزِ مُوَشَّحُ
تَخَيَّلْتَهُمْ ، لَا دَرَّ اللَّهُ دَرَّهُمْ
أَشَارُوا بِجَاهِي بِالشَّمَاتِ وَصَرَّحُوا⁽³⁾

[الطويل]

ويعرب الشاعر عن ثقته بعفو المعتمد ؛ فالوشاة والأعداء يأملون بعقابه ، لكنه يأمل من المعتمد أن يصفح عنه ؛ فالحب الذي يكنه له سيبعد عنه العقاب ، وسيمكنه من الحصول على عفو المعتمد وصفحه :

(1) قلاند العقيان لابن خاقان : 98 . والحلة السيرا لابن الأبار ، ج 2 : 153 . وأعمال الأعلام لابن الخطيب : 161 .

(2) قلاند العقيان لابن خاقان : 98 . والحلة السيرا لابن الأبار ، ج 2 : 153 .

(3) قلاند العقيان لابن خاقان : 98 . والحلة السيرا لابن الأبار ، ج 2 : 153 .

وقالوا : سيجزيه فلان بذنبه
فقلتُ : وقد يغفو فلان ويصنح
ألا إن بطشاً للمؤيد يرتضى
ولكن عفواً للمؤيد يرجح
وبين ضلوعي من هواه تميمة
ستنفع لو أن الحمام يجلس⁽¹⁾

[الطويل]

ويكرّر الشاعر الاعتراف بذنبه ، هذا الذنب العظيم الذي لا يفوقه عظمة إلا حلم المعتمد :

وماذا عسى الأعداء أن يتزيدوا
سوى أن ذنبي ثابت متصحح
نعم لي ذنبٌ غير أن لحلمه
صفاء يزل الذنب عنها فيسفح⁽²⁾

[الطويل]

ويختم الشاعر قصيدته بتأكيد حبه للمعتمد ، فهو ثابت على مودته وسيبقى محباً له ،

ومتشوقاً إليه حتى مماته :

سلامٌ عليه كيف دار به الهوى
إليّ فيدنو ، أو عليّ فينزح
ويهنئه إن مت السلو فاتني
أموتُ وبى شوقٍ إليه مبرح⁽³⁾

[الطويل]

مقتل ابن عمار :

كاد المعتمد أن يغفو عن ابن عمار ، بل أنه قال له قولاً يتضمّن العفو عنه تعريضاً لا تصريحاً ؛ فسارع ابن عمار بالكتابة إلى الرشيد بن المعتمد يعلمه بذلك ؛ فأخبر الرشيد خاصته ، وكان منهم من يكنّ العدا لابن عمار ؛ فذهب هؤلاء إلى المعتمد وزعموا أن ابن عمار قد أشاع خبر العفو عنه في إشبيلية ، وأن أصحابه يعدّون العدة لاستقباله ، فما أن علم المعتمد بذلك حتى فقد صوابه ، وأرسل إلى ابن عمار من يسأله : " هل أخبرت أحداً بما جرى بيني وبينك في الأمسية الأخيرة ؟ ؟ " ، فأنكر ابن عمار بدايةً ، ثم اعترف أنه كتب رسالةً إلى الرشيد يخبره ، فاستشاط المعتمد غضباً ، وتذكّر خيانة ابن عمار له ، وكان المعتمد قد عرض به قبل ذلك قائلاً :

(1) قلاند العقيان لابن خاقان : 98 . والحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 154 .

(2) قلاند العقيان لابن خاقان : 98 . والحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 154 .

(3) قلاند العقيان لابن خاقان : 98 . والحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 154 .

والشَيْخُ لَا يَتْرُكُ أَخْلَاقَهُ حَتَّى يُوَارَى فِي ثَرَى رَمْسِيهِ
إِذَا ارْعَوَى عَادَ إِلَى ضِدِّهِ كَذِي الضُّئَى عَادَ إِلَى نَكْسِيهِ⁽¹⁾

[السريع]

لقد أدرك المعتمد أن ابن عمار مطبوع على الخيانة والغدر ، وأنه سيعود إلى أخلاقه الدنيئة إن هو عفا عنه ، فها هو يكذب عليه ، ويفشي سرّه وهو ما زال رازخاً في قيده ؛ فقام المعتمد من مجلسه وهو يحمل في يديه فأساً حادّة ، ودخل عليه ، وأخذ يضربه بالفأس على رأسه حتى ثبتت فيها ، وخرج يقول لزوجته الرميكية : لقد تركته كالهدد . وبهذه الخاتمة الدامية انتهت حياة ابن عمار التي دفعها ثمناً لطموحاته السياسية الكبيرة التي رأى أن يحققها بالغدر والخيانة .

3. المعتمد بن عباد :

محنة المعتمد : حين اشتدّ خطر (الأذفونش ألفونسو) حاكم قشتالة الإسباني ، وكادت البلاد الأندلسية تقع في قبضته ، فكّر المعتمد بالاستعانة بيوسف بن تاشفين⁽²⁾ أمير المرابطين في المغرب ، وعندما حذّره بعض بطانته من مغبة ذلك ، وأنّه كمن يستجير من الرمضاء بالنار ، قال لهم المعتمد بحزم : (لأن أرعى الجمال عند ابن تاشفين خير من أن أرعى الخنازير عند الأذفونش) ، وفعلاً فقد ذهب المعتمد إلى إفريقيا ، وهناك استتجد بأمر المرابطين ، وحثّه على نصرته إخوانه المسلمين في الأندلس ، واستجاب ابن تاشفين لنجدة المعتمد ، فجهّز جيشاً من المرابطين البربر ، ودخل الأندلس والتحم جيشه مع جيش المعتمد ، وحارب الجيشان القشتاليين وانتصروا عليهم نصراً مؤزراً في معركة الزلاقة . وعاد ابن تاشفين وجيشه إلى المغرب ، ولكنّه اجتاز البحر مرّة أخرى إلى الأندلس ، وأطاح بملوك الطوائف ، وتلّ عروشهم ، وكان المعتمد أعظم هؤلاء الملوك مكانةً وأرحبهم ساحة . ولسنا بمعرض الحديث عن الأسباب التي جعلت ابن تاشفين يدخل الأندلس للمرّة الثانية ويقضي على ملوك الطوائف ، لكنّ الذي يهّمنا هنا هو ما حصل للمعتمد ، فقد استتبسل

(1) الحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 149 .

(2) يوسف بن تاشفين : أبو يعقوب أمير المسلمين وملك الملمثين ، وُلد عام 410هـ ، ولي الحكم عام 463هـ ، بنى مدينة مراكش ، استتجد به المعتمد ؛ فنجّده ، انتصر معه على الإسبان في معركة الزلاقة عام 479هـ ، ثم عاد إلى الأندلس مرّة ثانية لما رأى بذخ ملوك الطوائف وترفهم ؛ فأطاح بهم وتلّ عروشهم ، كان رجلاً شجاعاً عادلاً مقداماً ، توفي عام 500هـ . ينظر وفيات الأعيان لابن خلكان ، ج 7 : 112-130 . والأعلام للزركلي ، مجلد 8 : 222 .

المعتمد في مقاومة المرابطين الذين حاصروا قصره ، وخرج يقاتلهم بسيفه حتى تمكنوا منه وأسرره ، (لقد دُلَّ بعد عزة ، وأسرَ مع أبنائه وحرائرته ، وصُفِّدَ بالأغلال على مشهدٍ من أمته ، وانتزِعَ من قصره بالأندلس ، وسبقَ إلى سجنه بإفريقية ، والناس على طول الطريق شهود ، وهناك يمرض فيعوزه الطبيب ، ويجوع فيعوزه الغذاء ، ويعرى فلا يجد الغطاء)⁽¹⁾ ثم تمادى ابن تاشفين في تعذيبه ، وخاصة بعد أن ثار أحد أبناء المعتمد في الأندلس⁽²⁾ .

لبث المعتمد في سجنه بأغصان⁽³⁾ أربع سنوات ، وتوفي فيه ، وكانت معه في السجن زوجته اعتماد الرميكية التي كانت تقاسمه آلامه تارة ، وتحرك ساكن أشجانه أخرى . إنَّ مَنْ يطلِّع على شعر المعتمد خلال محتته ، حيث أمسى (فراشه الغبراء ، وغطاؤه صفحة الهواء ، وأنيسه البكاء ، وقرينه الداء ، وسميره كلُّ نوعٍ من أنواع البلاء)⁽⁴⁾ يدرك أنه قاسى الويلات ، وتجرع العلقم ، بعدما كان ينعم في عزّة الملِّك ونعيم السلطان .

لقد كان ليوسف بن تاشفين الكثير من الفضائل والصفات الحميدة ، فقد كان تقياً حازماً شجاعاً ، ولكن كان ينقصه حُسنُ معاملة العدو المنهزم ؛ فمعاملته للمعتمد كانت مثار نقد المؤرخين ومنهم ابن الأثير الذي كان شديد الإعجاب بابن تاشفين ، وتحدّثَ عن مناقبه ، وذكرَ أنه (كان حليماً كريماً دينياً خيراً يحبُّ أهل العلم والدين ، ويحكمهم في بلاده ، وكان يحبُّ العفو عن الذنوب والصفح)⁽⁵⁾ ، ولكن عندما تحدّثَ عن صنيع ابن تاشفين ببني عبّاد قال : (وفعل أمير المسلمين بهم فعلاً لم يسلكها أحد من قبله ، ولا يفعلها أحدٌ ممّن يأتي بعده إلا من رضي لنفسه بهذه الرذيلة ، ذلك أنه سجنهم ، فلم يجزِ عليهم ما يقوم بهم حتى كانت بنات المعتمد يغزلن للناس بأجرة ينفقنها على أنفسهم ، وذكرَ المعتمد ذلك في أبيات ، فأبان أمير المسلمين بهذا الفعل عن صغر نفسٍ ولؤم قدر)⁽⁶⁾ .

(1) البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر : سعد إسماعيل شلبي : 39 .

(2) قلاند العقيان لابن خاقان : 39 .

(3) أغصان : ناحية في بلاد البربر من أرض المغرب ، بينها وبين مراكش مسافة ثلاثة فراسخ (الفرسخ يقدر بثلاثة أميال) ، كثيرة الخيرات والفواكه ، يغلب على أهلها الجفاء وعدم الرقة . ينظر معجم البلدان لياقوت الحموي ، مجلد 1 : 225 .

(4) رحلة الأندلس : محمد لبيب البتوني ، مطبعة مصر ، ط2 ، (د.ت) : 161 .

(5) الكامل في التاريخ : ابن الأثير ، دار صادر - بيروت ، 1399هـ / 1979م ، ج10 : 417 .

(6) الكامل في التاريخ لابن الأثير ، ج10 : 190 .

هل استعطف المعتمد ابن تاشفين؟؟

كان المعتمد ملكاً عظيماً طالما وقف ببابه الشعراء ونوو الذنوب سائلين مستعطفين عندما كان في أوج عزه وحنفوان مجده ؛ لذا فقد منعه ماضيه المجيد ، وأبت عليه عزه نفسه الوقوف موقف أولئك الذين كانوا يقفون ببابه ، فأبى أن يستعطف ابن تاشفين ويسأله الرحمة والشفقة ، بل إنه كان في بداية محنته متمسكاً محافظاً على رباطه جأشه ، فقد رفض أن يستعطف المرابطين أو أن يخضع لهم ، وخرج إليهم وقائلهم بشجاعة واستبسال ، حتى وقع في أيديهم أسيراً ، يقول في ذلك :

لَمَّا تَمَاسَكَتِ الدُّمُوعُ	و تَهَنَّةَ الْقَلْبِ الصَّدَّيْعِ
قَالُوا : الْخُضُوعُ سِيَاسَةٌ	فَلْيَبْدُ مِنْكَ لَهُمْ خُضُوعٌ
وَأَلْذُ مِنْ طَعْمِ الْخُضُوعِ	عَ عَلَى فَمِي السَّمِّ النَّقِيعِ
قَد رَمْتُ يَوْمَ نِزَالِهِمْ	أَلَّا تَحْصِنَنِي الدُّرُوعِ
وَبَرَزْتُ لَيْسَ سِوَى الْقَمِيهِ	صِ عَنِ الْحِشَاءِ شَيْءٌ دَفُوعِ ⁽¹⁾

[مجزوء الكامل]

ويعرب المعتمد عن أسفه لعدم سقوطه قتيلاً في تلك المجابهة ؛ فالموت أحب إليه من المصير الذي آل إليه :

أَجَلِي تَأَخَّرَ لَمْ يَكُنْ	بِهَوَايَ ذَلِّي وَالْخُشُوعِ
مَا سَرْتُ إِلَّا لِلْقَتَا	لِ وَكَانَ مِنْ أَمَلِي الرُّجُوعِ
شَيْمُ الْأَلَى أَنَا مِنْهُمْ	وَالْأَصْلُ تَتَبَعُهُ الْفُرُوعِ ⁽²⁾

[مجزوء الكامل]

ويلمس القارئ في هذه القصيدة أثراً لكبرياء الملوك وأنفتهم ، حيث ظهر المعتمد ألباً مفتخراً بأبائه وأجداده ، ولكنه لم يبق هكذا عندما توالى عليه الأيام العصبية في سجنه ، فأخذ شعره يفتقد هذا الشعور بالكبرياء والعزة شيئاً فشيئاً ، لقد أذله السجن وطعن كبرياءه في الصميم . سأله يوماً بعض الشعراء مآلاً فردّ عليهم ردّاً يحمل في طياته نوعاً من النذل ، ويفتقر إلى الكبرياء وفرض الذات التي اعتادت على السؤدد ، كما يخلو من الحنق والغضب

(1) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 53 ، والحلة السيرة لابن الأبار ، الجزء الثاني : 65 .

(2) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 53 ، والحلة السيرة لابن الأبار ، الجزء الثاني : 66 ، وأعمال الأعلام

لابن خاقان : 163 .

الذين كانا من المتوقع أن يصدرا عن ملك جار عليه الزمن فانتزع منه مجده وأسباب عزته،
ردّ عليهم قائلاً :

سألوا اليسير من الأسير وأنه بسؤالهم لأحقّ منهم فاعجب
لولا الحياء و عزّة لخميّة طي الحشا لحكامهم في المطّلب⁽¹⁾
[الكامل]

لقد منعه حياؤه ، وأبت عليه عزّة نفسه سؤال ابن تاشفين أو استعطافه ، والقارئ
لشعر المعتمد أثناء محنته يدرك أنه لم يستعطف ابن تاشفين تصریحاً إلاّ أنه استعطفه تلميحاً
في أكثر من مرّة ، وثمة إشارات ودلائل تدل على ذلك منها :

أ- مدح المعتمد يوسف بن تاشفين ، وأعلن حبّه له ، وهذا أمرٌ مستغرب . فابن تاشفين
أساء للمعتمد أيّة إساءة ؛ فقد خلعه عن عرشه ، وزجّ به في السجن ، ولا يُعقل أن يمدح
إنسان من أساء إليه إلاّ بدافع إثارة عطفه ، واستمالة قلبه ، وكما مرّ بنا في جلّ القصائد
الاستعطافية السابقة وجدنا أن المدح يكون ملازماً فيها للاستعطاف ، بل أن (جماعة من
أهل الأدب قد ألحقوا الاستعطاف بالمديح)⁽²⁾ وقد أشاد المعتمد بابن تاشفين في حربته
ضدّ القشتاليين الإسبان الذين أفضوا مضاجع المسلمين ، وتحدّث عن شجاعته ، ولعل
المعتمد (حاول أن يستميل ابن تاشفين ويستلن قلبه بالإشادة بموقفه في يوم الزلاقة)⁽³⁾ ،
وفي ذلك يقول :

و قلبي نزوع إلى يوسف فلولا الضلوع عليه اطارا
و يوم العروبة ذدت العدا نصرت الهدى وأبيت الفرارا
رأينا السيوف ضحى كالنجوم وكالليل ذاك الغبار المثارا
فله درك في هولائه فقد زاد بأسك فيه اشتهار⁽⁴⁾
[المتقارب]

(1) الخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 67 ، وشنرات الذهب في أخبار من ذهب : عبد الحي بن عماد الحنبلي ،
دار الأفاق الجديدة - بيروت ، (دت) ، ج 3 : 389 - 390 .

(2) نهاية الأرب للنويري ، السقر الثالث : 258 .

(3) المعتمد بن عبّاد : علي أدهم : 298 .

(4) المعتمد بن عبّاد : علي أدهم : 296 - 297 نقلاً عن ديوان المعتمد .

ب- التمس المعتمد العطف من القيد ، وناشده الرحمة ، واستجدى منه الحنان ، والمعتمد عندما خاطب القيد إنما خاطب مَنْ قَيْدِهِ فِيهِ ، فهو يدرك أَنَّ القيد كائن جامد لا يعلم ولا يشفق ولا يرحم ، فكلمة (مسلماً) في البيت الأول تدل على أَنَّ المعتمد أراد مخاطبة ابن تاشفين الذي كان يلقب بـ (أمير المسلمين) ، وكان ينبغي على هذا الأمير أن يرحم المسلمين ، والمعتمد أحدهم لا أن يقيدهم ويضعهم في غياهب السجون دون شفقة أو رحمة ، قال المعتمد عندما رآه ابنه أبو هاشم مقيداً فارتاع من ذلك :

قيدي أما تعلمني مسلماً	أبيت أن تُشْفِقَ أو ترحمنا
دمي شراب لك واللحم قد	أكلته ، لا تهشم الأعظما
يُبصرني فيك أبو هاشم	فبينثي والقلب قد هشما
إرحم طفيلاً طائشاً لبه	لم يخش أن يأتيك مسترحما
و ارحم أخيات له مثله	جرعتهنَّ السُّمَّ و العلقما ⁽¹⁾

[السريع]

ج- وازن المعتمد بين ما كان عليه من عزٍّ وسلطان ، وما آل إليه من ذلٍّ وهوان ، وهذه الموازنة تثير العطف على عزيز قوم ذلٍّ ، انقلب حاله من الأوج إلى الحضيض ، والمعتمد بموازنته هذه كأنما أراد لفت نظر ابن تاشفين إلى أن الأيام دول ، وأن دوام الحال من المحال ، فما تعرّض إليه هو قد يتعرّض إليه ابن تاشفين ، فالقوي ينبغي له أن يرحم حتى يُرحم إن دالت أيامه ، وتضعضت أحواله . يقول المعتمد وقد دخلت بناته عليه يوم عيد في ثياب بالية وحالة بؤس ، وكنَّ يغزلن للناس بأجرة في أغمات :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا	فساءك العيد في أغمات مأسورا
تري بناتك في الأطمار جائعة	يغزلن للناس لا يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة	أبصارهنَّ حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطين والأقدام حافية	كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا
قد كان دهرك أن تأمره ممتثلاً	فردك الدهر منهياً ومأمورا

(1) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 73 - 74 ، وشذرات الذهب لابن عماد الحنبلي ، ج 3 : 379 .

مَنْ بَاتَ بِغَدَاكَ فِي مَلِكٍ يُسْرُ بِهِ فَإِنَّمَا بَاتَ بِالْأَحْلَامِ مَغْرُورًا⁽¹⁾

[البسيط]

د- تظهر المعاني الدينية واضحة جلية في شعر المعتمد خلال محنته ، ولم يكن لهذه المعاني وجود في شعره قبل المحنة ، فالمعتمد عرف أن ابن تاشفين ورع ، فأراد أن يستثير عطفه ، ويستدر رحمته ، عن طريق مخاطبته بهذه المعاني ، يقول مُذَكِّراً ابْن تاشفين بموقعة الزلاقة:

فلولاك يا يوسف المتقى	رأينا الجزيرة للكفر دارا
ستلقي فعالك يوم الحسا	ب تَنْتَرُ بِالْمِسْكِ مِنْكَ انْتِثَارَا
وللشهداء ثناءً عليك	بِخُسْنِ مَقَامِكَ ذَلِكَ النَّهَارَا
وإتهم بك يستبشرو	نَ أَلَا تَخَافُ وَلَا تُضَارَا ⁽²⁾

[المتقارب]

لقد حاول المعتمد إثارة عطف ابن تاشفين عليه تلميحاً لا تصريحاً ، ولعله ظن أن أشعاره تصل إلى مسامح ابن تاشفين ، ولكنه عندما يس من ذلك حاول أن يحمل نفسه على قبول ما ابتلاه به الحظ ورمته به الأيام ليريح قلبه ، ويبعث الطمأنينة في نفسه المعذبة ، يقول :

أَفْتَعِ بِحِظِّكَ فِي دُنْيَاكَ مَا كَاتَا	وَعِزَّ نَفْسِكَ إِنْ فَارَقْتَ أَوْطَانَا
فِي اللَّهِ مِنْ كُلِّ مَفْقُودٍ مَضَى عَوْضٌ	فَأَشْعِرِ الْقَلْبَ سُلْوَانًا وَإِيمَانَا
أَكَلَمَا سَنَحَتْ ذِكْرِي طَرِبْتَ لَهَا	مَجَتْ دُمُوعُكَ فِي خَدَيْكَ طُوفَانَا
وَطَنَ عَلَى الْكُرْهِ وَارْقَبْ إِثْرَهُ فَرَجًا	وَاسْتَغْنِمِ اللَّهَ تَغْنَمَ مِنْهُ غُفْرَانَا ⁽³⁾

[البسيط]

إن الدنيا التي تبذت للمعتمد بزینتها وبهرجها لم تثبت أن تجهمت له وانقلبت عليه ، وعند صفو الليالي يحدث الكدر ، لقد عبر المعتمد عن محنته بشعر صادق العاطفة ؛ (لأنَّ أصدق عاطفة في الوله هي التي تصدر عن شخص الشاعر يتحسر فيها على نفسه ، أو على

(1) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 73 ، وقلائد العقيان لابن خاقان : 25 ، وشذرات الذهب لابن عماد الحنبلي ، ج 3 : 388 - 389 .

(2) المعتمد بن عباد : علي أدهم : 297 نقلاً عن ديوان المعتمد .

(3) نفع الطيب للمقري ، ج 4 : 116 .

ملك زال ومجد هوى ، وعلى الأخص إذا كان المتوجع أو المتوجع ملكاً⁽¹⁾ ، ولكن صدق عاطفة المعتمد لم تنثر عاطفة ابن تاشفين الذي أبقاه في سجنه يعاني آلام القهر والخيبة حتى وافاه أجله المحتوم ، وعلى الرغم من كثرة أصدقاء المعتمد الذين ظلوا يحتفظون له بأصدق مشاعر الوفاء لم أجد - فيما قرأت - أحداً منهم يستشفع له عند ابن تاشفين .

إن بضع سنوات يقضيها امرؤ في ظلمات السجن مقيداً بالقيود والأصفاد ، لا ينال إلا أسوأ مطعم ومشرب ، إضافة إلى ما يعانيه من آلام القهر والخيبة كفيلاً بأن تهدأ أركانه ، وتقرب الحتف من حياته⁽²⁾ ، لقد شعر المعتمد بأن منيته قد دنت فراح يرثي نفسه قبل حين الرثاء ، فقد نظم أبياتاً وأوصى أن تكتب على قبره ، منها :

قبرُ الغريبِ سقاكُ الرَّايحِ الغادي	حقاً ظفرت بأشلاءِ ابنِ عبادِ
نعم هو الحقُّ حاباتي به فقدر	من السماءِ فوافاتي لميعادِ
ولم أكن قبلَ ذاكُ النعشِ أعلمه	أنَّ الجبالَ تهاوى فوقَ أعوادِ
كفأكُ فارفقُ بما استودعتُ من كرمِ	رواكُ كلِّ قطوبِ البرقِ رعادِ ⁽³⁾

[البسيط]

لقد كان سجن المعتمد مأساة حقيقية ، إلا أن هذه المأساة أفادت الأدب العربي بل والعالمية إفادة عظيمة ، (فالقصائد التي نظمها المعتمد في سجنه ، وصور فيها مرارات السجن وآلام النفي تعد من أروع ما لدينا من غرر الشعر العالمي)⁽⁴⁾ .

4. عبد الملك بن غصن الحجاري :

(1) قضايا أندلسية : بدير متولي حميد ، دار المعرفة - القاهرة ، ط 1 ، 1964م : 320 .

(2) بين ابن بسام أن المعتمد حظي بمعاملة حسنة في سجن ابن تاشفين ، وقال عن المعتمد وآله : " ... وصلوا إلى أمير المسلمين وناصر الدين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين - رحمه الله - فبقوا هنالك في كنفه ، ودرى فضله ، تحت إحسان عميم ، وبذل نائل جسيم حتى انقضت هنالك أيامه " . ينظر الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 56 - 57 ، وناقض ذلك عندما قال في المجلد نفسه : " ودخل عليه ابنه أبو هاشم وهو يرسف في قيوده ، ويتقلب في حديدته . ينظر الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 73 ، كما أنه أورد جميع أشعار المعتمد التي تحدثت فيها عن معاناته وآلامه .

(3) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 57 ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب : 164 .

(4) الشعر الأندلسي : أمليو غرسيه غوميس : 160 .

هجا عبد الملك بن غصن الحجاري⁽¹⁾ المأمون بن ذي النون⁽²⁾ هجاءً مقذعاً ، بقوله :
تلقبت بالمأمون ظلماً ، وإتني
لأمن كلباً حيث لست مؤتمه
حرام عليه أن يجود ببشره
وأما الندى فاندب هنالك مدفنه
سطور المخازي دون أبواب قصره
بحجابه للقاصدين معنونه⁽³⁾

[الطويل]

فلما تمكن منه المأمون سجنه ، فأخذ ابن غصن يستعطفه حتى (أنه كتب إليه رسالة في
صفة السجن والمسجون والحزن والمحزون دلت على مكانه من العلم والأدب والحفظ ،
وأودعها ألف بيت من شعره في الاستعطاف)⁽⁴⁾ ، وفي رسالته هذه يتحدث ابن غصن -
كما تحدث سابقوه - عن المعاناة والضنك اللذين ألما به نتيجة حبسه ، ويحاول أن يبرئ
نفسه ، ويتصل من التهم التي رمي بها ، إذ يقول :

أزاح الدهر حلوا الماء عني
وبالمرجوا إن أظفر به من
على ظلماً وأسقاني زعاقه⁽⁵⁾
رضى المأمون يحلي لي مذاقه
وناس لفتني بهم شقاء
ألم فزمت في ساقبي سباقه
ولم يك لي بذاك العير عير
ولا بقطيع ذاك الذود ناقه⁽⁶⁾

[الوافر]

ويعتبر الشاعر بالدنيا وتقلباتها ، فلا حال يدوم فيها ؛ فالفرح قد ينقلب حزناً ، والتعاسة قد
تصبح سعادة ، ثم يأمل الشاعر بعفو المأمون وعطفه ، يقول :

أرى نوب الدنيا تروح وتغدي
فمن فرح ناء وهم مخيم

(1) عبد الملك بن غصن الخشني أبو مروان من وادي الحجارة ، كان فقيهاً وأديباً وشاعراً ، اعتقله المأمون بن ذي
النون ، وعندما أطلقه انتقل إلى بلنسية ، ثم إلى قرطبة ، وتوفي في غرناطة عام 454هـ . ينظر الذيل والتكملة لابن
عبد الملك الأنصاري ، السقر الخامس ، قسم 1 : 31 .

(2) المأمون بن ذي النون : اسمه يحيى ، ملك طليطلة ، استولى على قرطبة وقتل ابناً للمعتمد فيها ، ثم استولى على
بلنسية ، احتل الإسبان بلاده واشتروا عليه أن يظاهرهم على أهل بلنسية مقابل انسحابهم من طليطلة ؛ فقبل
شرطهم . ينظر نفع الطيب للمقري ، ج 4 : 440 - 441 .

(3) نفع الطيب للمقري ، ج 3 : 363 .

(4) إعتاب الكتاب لابن الأبار : 218 .

(5) الزعاق من الماء : المر الغليظ الذي لا يطاق شربه . ينظر المعجم الوسيط ، ج 1 : 394 .

(6) إعتاب الكتاب لابن الأبار : 218 .

إذا شئت إسعافَ الزمانِ وعطفهُ
ونادِ بيا يحيى يحيى بكِ بالمنى
فبادرِ بدارِ المُسرِعِ المتغَمِّمِ
وثنْ بِإِسْمَاعِيلَ تَسْمُ وتَعْظُمِ
بعطفَةِ ذي المجدِّينِ أرجو من الردى
خلاصى ولو ألقيتُ في شِدْقِ أرقم⁽¹⁾
[الطويل]

ويطنب الشاعر في الحديث عن معاناته في السجن ، ويرجو الشاعر الله أن تزول هذه المعاناة ، وتنتهي هذه الشدة ، يقول :

ما لنا في وطءِ البسيطةِ حظُّ
في محلِّ كآتهِ ظلَّفُ شاةِ
ولا في نشقِ الهوائِ نصيبُ
ليس فيه لذي دبيبِ دبيبُ
وكأن الكبلِ الثقيلِ إذا ما
رنَّ في الساقِ للخطوبِ خطيبُ
إن رمثنا يدُ الخطوبِ بقوسِ
طالما كان سهمها لا يصيبُ⁽²⁾
[الخفيف]

ثم يتأسى الشاعر بالأنبياء والمرسلين الذين عانوا أكثر مما عانى ، وابتلوا أكثر مما ابتلى به ، ثم فرج الله عليهم ، وبدل بشدتهم فرجاً ، وحول عسرهم إلى يسر ، يقول :

أو يكن عثرَ الزمانِ فرجواً
قد أجابَ الإلهَ دعوةَ نُوحِ
لإنعاشنا القريبُ المجيبُ
وشفى ذو الجلالِ علَّةَ أيو
حين نادى بآتهِ مغلوبُ
وانقضى سجنُ يوسفَ وقد استب
بَ وقد شارفَ الردى أيوبُ
أس وارثاً مبصراً يعقوبُ⁽³⁾
[الخفيف]

ولم يعف المأمون عن الشاعر ولم يطلق سراحه ؛ فكتب الشاعر قصيدة إلى ابن هود حاكم سرقسطة رجاء فيها أن يستشفع له عند المأمون ، حيث يقول في قصيدته :

أيا راكبَ الوجناءِ بلِّغْ تحيةَ
ولمّا دهنتى الحادثاتُ ولمْ أجذِ
أميرَ جذامٍ من أسيرِ مقيدِ
فعلك أن تخلو بفكرِكَ ساعةً
لها وزراً أقبلتُ نحوكَ أعتدي
لنتقذني من طولِ همِّ مُجددِ

(1) إعتاب الكتاب لابن الأبار : 219 .

(2) إعتاب الكتاب لابن الأبار : 220 .

(3) إعتاب الكتاب لابن الأبار : 220 .

حنائك ألفاً بعد ألفٍ فإتني جعلتك بعد الله أعظم مقصدي⁽¹⁾

[الطويل]

(فرق له ابن هود ، وتحيل حتى خلّصه بشفاعته)⁽²⁾ .

5. ابن اللبّانة :⁽³⁾

كان ابن اللبّانة شاعراً يتكسب بشعره ، يطوف على ملوك الطوائف مادحاً مسترفداً ، وقد اضطر لاستعطافهم مرتين : الأولى عندما حلّ ببلاط المتوكل على الله ، ملك بطليوس فاحتفى به المتوكل وبالغ في إكرامه ؛ فنارت حفيظة أعداء الشاعر وحسّاده ؛ وأخذوا يكيّدون له كيداً ليفسدوا ما بينه وبين المتوكل ، وتمّ لهم ذلك عندما افترخوا على الشاعر ، ونجحوا في إيغار صدر مليكه عليه ؛ ففرّ الشاعر هارباً وهام على وجهه في ربوع الأرض ، وأثناء هروبه أرسل إلى المتوكل قصيدة يستعطفه فيها ويعتذر إليه ، وقد استهلّ قصيدته تلك بعتاب المتوكل عتياً رقيقاً مهذباً ، ثم تحدّث عن مشاعره وأحاسيسه بسبب ازورار مليكه عنه ، وتغيّره عليه ، الأمر الذي جعله يشعر وكأنّ مصائب الدنيا قد وافته مجتمعة ، ثم عبّر بعد ذلك عن الحبّ الشديد الذي يكنّه لمليكه ، يقول :

فوافتنى النوائبُ عند ذاكَا	نبأ بيدي حسامٍ من رِضاكا
ولكنّ التجاوزَ ما أطباكا ⁽⁴⁾	تجاوزَ فيك ودي كلّ حدّ
لنلتُ بكِ المجرّة والسماكا	ولو جازيتني قدرَ اعتقادِي
لما أوما إلى أحدٍ سواكا ⁽⁵⁾	ولو يؤتى مناه نورُ طرفِي

[الوافر]

(1) نفع الطيب للمقري ، ج3 : 363 .

(2) نفع الطيب للمقري ، ج3 : 364 . في الذخيرة رسالة أرسلها المقتدر إلى المأمون يشكره فيها على إطلاقه لابن

غصن من السجن . ينظر الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 193 .

(3) ابن اللبّانة : هو أبو بكر محمد بن عيسى بن محمد اللخمي الداني ، ولد في دانية ، ونسب إلى أمه التي كانت تبيع

اللبن ، كان أشعر أهل زمانه ، وفد على ملوك الطوائف ومدحهم ، وحين وفد على المعتمد بن عبّاد ظلّ ملازماً له

مانحاً إياه ، مستقراً في كنفه حتى استولى المرابطون على إشبيلية ، وسجنوا المعتمد ، وظلّ الشاعر وفياً كلّ الوفاء

للمعتمد ، وتشهد على ذلك أشعاره التي خاطبه بها في سجنه أو التي رثاه بها بعد موته عام 488هـ . ينظر :

الذخيرة لابن بسام ، قسم 3 ، مجلد 2 : 666 .

(4) ما أطباك : ما دعاك . ينظر : المعجم الوسيط ، ج2 : 551 .

(5) الذخيرة لابن بسام ، قسم 3 ، مجلد 2 : 366 .

وينتقل الشاعر بعد هذه المقدمة ليعرّض بالوشاة الذين افتروا عليه وأفسدوا علاقته مع مليكه ، ويعجب الشاعر من المتوكل كيف صدق أولئك الوشاة ؛ فعذب قلبه بازوراره عنه وتغيره عليه على الرغم من أنه ما زال متحلياً بالأخلاق السامية التي عُرف بها ، والتي ينبغي أن تجعله يترىث ويتحقّق قبل أن يصدق الوشاة ، ويسأل الله أن لا يميتّه إلا بعدما يراهم معذبين مشردين كما يُعذب ويشرد العصاة الذين يعصون المتوكل ويخرجون عليه ، يقول :

ولكن عن هياتك ما ثناكا	ثناك عن القبول عليّ واش
ولم تدر السامة من حلاكا	وأعجب كيف حالت منك حالي
وما عقدت على حوب ⁽¹⁾ حباكا	فكيف أتمت في تعذيب قلبي
أرى مثواه مثوى من عصاكا	أطعت عليّ من لا ميت حتى
بيينة أقام لها دراكا	محا حسنات قصدي وانقطاعي
ونفّر طير حظي من رباكا ⁽²⁾	فجنب ماء بشرك عن جنابي

[الوافر]

ويعود الشاعر مرّة أخرى ليعبّر عن الحبّ الذي يكنّه للمتوكل ؛ فالوشاة إن استطاعوا إبعاد الشاعر عن مليكه فهم عاجزون عن اقتلاع حبّ مليكه من قلبه ، ثم يعتذر إلى المتوكل ، ويقول : إن كنت قد أخطأت بحقّ مرّة ، فإنّ حسناتي الكثيرة التي قدّمتها كفيلة بأنّ تمحو ذلك الخطأ وتلك الإساءة ؛ فالإنسان بطبيعته خطأ ، لا يستطيع أن يجعل كلّ ضرباته صائبة ، ولو استطاع ذلك لما ترك للأقدار شيئاً ، يقول :

أيقدر صرف قلبي عن هواكا ؟	وهبه أطاق عن مثواك صرفي
فما قدّمت من سبق كفاكا	وإن تك مرّة عثرت جيادي
لما كننا إلى الأقدار ذاك ⁽³⁾	ولو كلّ السهام أصاب قصدي

[الوافر]

(1) الحوب : الإثم . ينظر : الوسيط ، ج 1 : 204 .

(2) الذخيرة لابن بسام ، قسم 3 ، مجلد 2 : 366 .

(3) الذخيرة لابن بسام ، قسم 3 ، مجلد 2 : 366 .

ويبدو أن المتوكل قد أصمّ أذنيه عن اعتذار الشاعر واستعطافه ، فلم يعف عنه ولم يُعذه إلى كنفه ؛ فواصل الشاعر هربه حتى حلّ بقرطبة ، وكانت حينئذٍ قد آل أمرها إلى المعتمد ابن عبّاد الذي احتفى بالشاعر وقربّه منه ، وجعله من خاصّة شعرائه .

أمّا المرّة الثانية التي استعطف بها ابن اللبّانة ، فكانت بعد أن دالت دولة بني عبّاد ، وضاع أمل الشاعر في عودة النعيم الذي كان ينعم به في ظلّها ؛ فاتّجه إلى ميورقة ؛ ليمدح أميرها ناصر الدولة مبشّر بن سليمان ، وعاش الشاعر في كنفه حيناً من الدهر ، ولكن ما حدث له في بطليوس حدث له في ميورقة إذ ساء فيه القال والقيل ، وكثرت حوله الوشائيات ، ولما رأى تغيّر الأمير عليه وازوراره عنه ، حاول أن يسترضيه ويعتذر إليه علّه يستميل قلبه ويظفر بعفوه ؛ فأرسل إليه بقصيدة استهلها بالتعبير عن حبه لناصر الدولة ، ثم حاول أن يبرأ نفسه ممّا اتهم به ، وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الشامتين والوشاة الذين أُلّج صدورهم ما لحق بالشاعر من ضير ، وما أصابه من تضاؤل المكانة عند أميره ، وحاول الشاعر أن يثبت لأmirه أنّه يحتمل من شخصه كلّ إساءة ، بل كلّ مذلة ، وأنّ نفسه تستعذب كلّ ألم وكلّ مضرة تأتيه من قبّله ، ولو كان الأمر قاصراً على ما يأتيه من قبل أميره ومليكه لهان الأمر ، ولما فكّر في الرحيل عنه ، لكنّ هناك العداة الذين يتربصون به الدوائر ويحيكون المؤامرات للإيقاع به والانتقام منه ، ومن رأى أول الشرّ فلا يأمن آخره ؛ فدافعه إلى الرحيل هو النجاة بنفسه من أولئك الوشاة والأعداء ، فهو يسعى للفرار بنفسه بحثاً عن موطن أمين بعد أن نجّاه الله من نيران فتنتهم كما نجا خليله إبراهيم - عليه السلام - من نيران الكفار والمشركين⁽¹⁾ ، يقول :

سلامّ على المجدّ يندى قليلاً	كنشّر الرّبأ بكرةً وأصيلاً
سلامّ وكننتُ أقولُ الوداعَ	ولكنّ أدرجُ قلبِي قليلاً
جرّحتُ لديكُ وكننتُ البريءَ	كما يجرحُ اللحظُ خدّاً أسيلاً
تسرّضتُ ضالتي الشامتين	وهل خلقُ الصلّ إلا ضئيلاً
أنتِ ذلّتي منكُ محبوبيّةً	فلم أرَ بالعزّ منها بديلاً
ولولا مقامي بينَ العداةِ	لما كنتُ أوثرُ عنكُ الرحيلاً

(1) الفتن والنكبات الخاصة وأثرها في الشعر الأندلسي : فاضل فتحي محمد والي ، دار الأندلس للنشر والتوزيع - حائل - السعودية ، ط 1 ، 1417هـ / 1996م : 281 .

ومَن بَلَّهَ الغَيْثُ في بطنِ وادٍ
عسى رَأْفَةً في سراجِ كريمٍ
لعلِّي أراحَ منِ الطالِبِينَ
لقد أوفدوا لي نيرانَهُم
وباتَ فلا يَأْمَنُ السَيولا
أبُلُّ ببردِ نِداءِ الغليلا
فأسكنُ للأمنِ ظِلًّا ظليلا
فصيرني اللهُ فيها الخليلا⁽¹⁾

[المتقارب]

وأخيراً يقسم الشاعر معذراً أنه بريء من كل ما اتهم به ، وأن الوشاة جادون في سعيهم وشايتهم ، ولن يهدأ لهم بال أو يقرّ لهم قرار إلا بعدما يروا الأمير ينتقم من الشاعر شرّ انتقام ؛ لذا فقد أثار الرحيل ومغادرة ميورقة حتى لو أصبحت هي مصرَ بجمالها وخيراتها، وأصبح كرم الأمير كالنيل بخيره وعطائه ، ما دام الأشرار يتربصون به ويتربصونه :

يمينا لكم هو أزكى يمين
سَعَوِا لي عندك في عثرة
أفرُ بنفسي وإن أصبحت
لألتمسُ العذرَ منكم جميلا
ولا عِلْمَ لي فكرهتُ المقيلا
ميورقة مصرأ وجدواك نيلا⁽²⁾

[المتقارب]

وعندما أخفق الشاعر في استعطاف الأمير واستمالة قلبه شدّ رحاله وخرج مغادراً ، ولكنه ظلّ يتطلع إلى ميورقة ، ويتمنى العودة إليها ، ولم يفقد الأمل بذلك ؛ لذا فقد جعل يستعطف ناصر الدولة أميرها ويدرأيه ويستطفه كي يمنّ بالعمو عنه ، ويأذن له بالعودة ، ومما كتب به إليه قصيدة منها قوله :

نسيمك حتام لا ينبري
أعيدك من عرض أن تكون
أتذكرُ أيامنا بالحمى
ألا رأفة من وفي كريمٍ
وسيشتاقتي الملك مهما أراد
ولو أن كلَّ حصاةٍ تزين
وطيفك حتام لا يعتري
وأنت الذي كنت من جواهرٍ
وأيامنا بلوى الأعصرِ؟
ألا عطفة من سبي سري
لباس نسيج من المفخرِ
ما جعل الفضل للجواهر⁽³⁾

(1) الذخيرة لابن بسام ، قسم 3 ، مجلد 2 : 692 - 693 .

(2) الذخيرة لابن بسام ، قسم 3 ، مجلد 2 : 684 .

(3) الذخيرة لابن بسام ، قسم 3 ، مجلد 2 : 685 .

[المتقارب]

لقد بدأ الشاعر أبياته هذه بمدح الأمير ، ثم حاول أن يستميل قلبه بتذكيره بأيام الصفاء التي جمعتهما ، بعد ذلك التمس منه الرأفة والعطف ؛ فقرَّبُ الشاعر من الأمير خير لهما ؛ فأشعار المديح التي سينظمها في أميره ستتقدّم على سواها من الأشعار ؛ لأنّ الشاعر يتفوق على أقرانه الشعراء تفوق الجواهر على الحجارة والحصى .

لقد استعطف الشاعر مرتين : استعطف المتوكّل على الله ، ثم استعطف ناصر الدولة ، وفي كلتا المرّتين سلك الشاعر طريقاً واحداً أثناء استعطافه ، إذ أنّه مدح مَنْ يستعطفه وأشاد به ، ثم عبّر عن حبّه الشديد له ، بعد ذلك عرض بالوشاة والمفسدين ، وهاجم الأعداء والحُساد ، وحاول أن يبرأ نفسه ممّا اتُّهم به ، ثم اعتذّر إلى مَنْ يستعطفه ، ورجاه أن يقبل عذره ، ويغفر زلته إن كان قد أخطأ أو زلّ .

ولكن يظهر أنّ الشاعر - في المرّتين - قد فشل في تحقيق هدفه إذ أنّه لم ينل العطف الذي كان ينشده ، أو العفو الذي كان يأمل به .

6. شعراء آخرون :

لم يقتصر شعر الاستعطاف على الشعراء السابقين ، بل تطالعنا أشعار استعطافية أخرى لشعراء آخرين ، وإن كانوا دون الشعراء السابق ذكرهم شهرة وإنتاجاً شعرياً ، ومن هؤلاء ابن سيده⁽¹⁾ ، (وكان منقطعاً إلى الأمير أبي الجيش مجاهد بن عبد الله العامري⁽²⁾ ، ثم حدثت له نبوة في أيام إقبال الدولة بن الموفق⁽³⁾ خافه فيها ، فهرب إلى بعض الأعمال المجاورة لأعماله ، وبقي بها مدة ، ثم استعطفه⁽⁴⁾) ، واعتذر إليه ، وتحدّث عن سوء حاله في غربته بعدما فارق وطنه ، وابتعد عن أهله ، يقول :

(1) ابن سيده : أبو الحسن علي بن إسماعيل المعروف بابن سيده المرسي ، فقيه وعالم بالعربية وآدابها ، كان ضريراً ، وكذلك كان أبوه ، من كتبه : المحكم ، والمخصّص ، توفي عام 458هـ . ينظر مطمح الأنفس لابن خاقان : 291 .

(2) أبو الجيش الموفق مجاهد بن عبد الله مولى عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر ، استقل بدانيه وملكها ، كان من أهل الألب والشجاعة والمحبة للعلوم وأهلها ، توفي عام 436هـ . ينظر بغية الملتبس لابن عميرة الضبي : 472 - 473 .

(3) علي بن مجاهد العامري الملقب بإقبال الدولة . ينظر مطمح الأنفس للفتح بن خاقان : 292 .

(4) جذوة المقتبس في ذكر ولاء الأندلس : أبو عبد الله محمد بن فتح الحميدي ، تحقيق محمد بن تاروت الطنجي ، مكتب نشر الثقافة الإسلامية - القاهرة ، ط1 ، 1372هـ / 1952م ، الباب الثامن : 293 .

ألا هل إلى تقبيل راحتك اليمنى
صخيت فهل في برد ظلك نومة
ونضو هموم طلحت طياتاه
هجان نأى أهلوه عنه وشفاه
فيا ملك الأملاك إني محوم
تحيفني دهري وأقبلت شاكياً

سبيل فإن الأمن في ذاك واليمنة
لذي كبد حرى وذى مقلة وسنا
فلا غارباً⁽¹⁾ أبقين منه ولا متناً⁽²⁾
قراف فأمسى لا يدس ولا يهنا
على الورد لا عنه أذاد ولا أدنى
إليك أمدون لعبك أم يثنى؟⁽³⁾

[الطويل]

ويعرب الشاعر عن رضاه التام بحكم أميره حتى لو أدى هذا الحكم إلى إهدار دمه ، وهو أثناء ذلك يذكر نغم الأمير وأيديه البيضاء عليه ، حيث يقول :

وإن تتأكد في دمي لك نية
دم كوثنته مكرماتك والذي
إذا ما غدا من حر سيفك بارداً
وما لي من دهري حياة أذها
إذا قتلة أرضتك منا فهاتها

بسفك فإني لا أحب له حفتا
يكون لا عتب عليه إذا أفنى
فقدماً غدا من برد برّك لي سخنا
فيعتدّها نومي عليّ ويمتننا⁽⁴⁾

[الطويل]

وأتت القصيدة أكلها ، فما أن سمعها إقبال الدولة حتى عفا عن الشاعر ، وأذن له بالعودة إلى بلاده .

وأما ابن أزرق⁽⁵⁾ فقد كان يعيش في مرسية بكنف ملكها ابن رشيق ، ولكنه طمع بمعاملة أفضل ، وأعطيات أكثر ، وكان الشعراء كثيراً ما يتنقلون من بلدة لأخرى طلباً للمال ، (ويبدو أن البحث عن المال كان يجري وفقاً لسلوك المجتمع وأدابه إذ ذاك ، ولم

(1) الغارب : الكاهل ، والغارب من البعير ما بين السنام والعنق . ينظر المعجم الوسيط ، ج 2 : 647 .

(2) المتن : الظهر . ينظر المعجم الوسيط ، ج 2 : 853 .

(3) جذوة المقتبس للحميدي ، الباب الثامن : 293 ، ومطمح الأنفس لابن خاقان : 292 - 293 .

(4) جذوة المقتبس للحميدي ، الباب الثامن : 293 .

(5) أبو العلاء إدريس بن أزرق شاعر من أهل مرسية ، عاش في القرن الخامس الهجري ، رحل إلى بلنسية طمعاً بعطايا ملكها ابن عبد العزيز . ينظر : نفع الطيب للمقري ، ج 3 : 572 .

يكن هذا الوضع يصدّم أحداً في عصر الطوائف (1) ، فقد رحل ابن أزرُق إلى بلنسية ، ولكنه لم ينل ما تمنّاه فيها ، بل عوملَ بقسوة ؛ فأراد العودة إلى مرسية ؛ فكتب إلى ابن رشيق معتذراً ومحدثاً عن إقامته التّعبة في بلنسية ، راجياً منه أن يأذن له بالعودة إلى بلاده، يقول :

ألا ليت شعري هل أعودُ إلى الذي عهدتُ من النعمى لديكم بلا جهدٍ
فو الله مذّ فارتكم ما تخلّصت من الدهر ساعة دونما كدّ
فمنوا بإذن كي أطيرَ إليكم فلا عارَ في شوقِ إلى المالِ والمجدِ (2)
[الطويل]

ويأذن له ابن رشيق ويعيده إلى مرسية .

ونقف عند أبيات لابن الحداد (3) ، وكان شاعراً مقرباً من المعتصم بن صُمّادح (4) عاهل المرية (5) ، وكان للشاعر أخ قتل رجلاً وفرّ هارباً ؛ (فنالت ابن حداد بسببه مطالبة أخفى نفسه من أجلها حيناً حتى قبض على أخيه واعتُقل) (6) ، ولكنّ العلاقة بينه وبين المعتصم لم تعد إلى سابق عهدها ، فعزم ابن حداد على الفرار إلى مرسية بعدما هجا المعتصم ، وتمكن من ذلك ، ولكنه لم يسعد بإقامته هناك ، وبخاصّة أن أخاه كان لا يزال معتقلاً في المرية ؛ فكتب إلى ابن صُمّادح قصيدة استهلها بالحكمة ، ويقول فيها :

الدهرُ لا ينفكُ عن حدّاتِهِ والمرءُ مُنقادٌ لحكمِ زمانِهِ
فدع الزّمانَ فاتِهِ لم يعتمدْ بجلالِهِ أحداً ولا بهواتِهِ

(1) الشعر الأندلسي في عصر الطوائف : هنري بيريس ، ترجمة الطاهر أحمد مكي ، مطبعة دار المعارف - مصر ، ط 1 ، 1408هـ / 1988م : 79 .

(2) نفع الطيب للمقري ، ج 3 : 573 .

(3) ابن حداد : أبو عبد الله . محمد بن أحمد بن عثمان المعروف بابن حداد ، شاعر من وادي آش ، سكن المرية ، واختصّ بملكها المعتصم بن صُمّادح ، ثم فرغته إلى المقتدر بن هود ملك سرقسطة ، توفي عام 480هـ . ينظر مطمح الأنفس لابن خاقان : 336 ، رايات المبرزين لابن سعيد الأندلسي : 106 .

(4) المعتصم بن صُمّادح : أبو يحيى محمد بن معن بن محمد بن صُمّادح الملقب بالمعتصم ، صاحب المرية ، كان شاعراً أديباً ، توفي عام 484هـ . ينظر وفيات الأعيان لابن خلكان ، ج 5 : 39 - 45 .

(5) المرية : مدينة ساحلية شرقي الأندلس ، فيها مرفأ ومرسى للسفن والمراكب ، اشتهرت بصنع الدبباج ، سقطت بيد الإفرنج عام 542هـ ، واسترجعها المسلمون عام 552هـ ، وينسب إليها عدد من العلماء . ينظر معجم البلدان لياقوت الحموي ، مجلد 5 : 119 .

(6) الذيل والتكملة لابن عبد الملك الأتصاري ، السّفر السادس : 11 .

كالمُزَنِّ لم يُخصَّصْ بِنافعِ صَوْبِهِ أفاقاً ولم يخترْ أذى طَوَفَاتِهِ
لكن لباريه بواطنِ حَكْمَةٍ في ظاهرِ الأضدادِ مِنْ أكوَانِهِ
وعَلِمْتُ أَنَّ السَّعْيَ لَيْسَ بِمَنْجِحٍ ما لا يكونُ السَّعْدُ مِنْ أَعْوَانِهِ
والجِدُّ دُونَ الجَدِّ لَيْسَ بِنافعٍ والرمحُ لا يمضي بِغَيْرِ سَنَائِهِ⁽¹⁾

[الكامل]

ثم يخلص ابن حداد من الحكمة ليصور سخط المعتصم عليه ، وليتحدث عن ذلك بعد عز ، وانحطاطه بعد رفعه ؛ ليثير عطف المعتصم ، ويستلن قلبه ؛ فيعفو عنه أو يطلق سراح أخيه ، أو يحقق له الاثنتين معاً ، يقول :

وسما إلى المَلِكِ الرِّضِيِّ ابْنِ صُمَادِحٍ فأداني بالسُّخْطِ مِنْ رِضْوَانِهِ
وهوى بِنَجْمِي مِنْ سَمَاءِ سَنَائِهِ وقضى بحطِي مِنْ ذُرَى سُلْطَانِهِ⁽²⁾

[الكامل]

(وبلغت الأبيات المعتصم فقال : شعره أعدل منه ، صدق ؛ فإنه لا يتهياً له صلاح عيش إلا بأخيه ، وهو بمنزلة السنان من الرمح ، ثم أمر بإطلاقه ، ولحاقه به)⁽³⁾ .
وتسوقنا أبيات لأبي الحسن الفكيك⁽⁴⁾ الذي سجنه المعتمد بن عباد عندما أتهم بالإلحاد والزندقة ؛ فأخذ الفكيك يرسل الأشعار إلى المعتمد مستعظفاً إياه راجياً عفوهِ ، ومن شعره في ذلك قوله :

يا ابنَ عِبادِ الذي يَدُهُ من فيضِها الرِّزْقُ بَيْنَ الخَلْقِ مَقْسُومٌ
فَمَنْ رَأَى شاعِراً في السَّجْنِ مُطْرَحاً في ظِلْمَةٍ وهو بالبهتانِ مَظْلُومٌ
ناديتُ حِلْمَكَ والأقْدارُ حائِمَةٌ كصاحبِ الحوتِ نادى وهو مَظْلُومٌ⁽⁵⁾

(1) ديوان ابن حداد الأندلسي ، تحقيق يوسف علي طويل ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط1 ، 1410 هـ / 1990 م : 301 .

(2) ديوان ابن حداد الأندلسي : 302 .

(3) نفع الطيب للمقري ، ج4 : 49 .

(4) أبو الحسن البغدادي الفكيك ، شاعر وفد على الأندلس من الشرق ، عاش في كنف المعتمد بن عباد ومدحه ، عُرِفَ عنه أن في دينه رفق ؛ فأتهم بالإلحاد والزندقة ، وسجنه المعتمد . ينظر : الذخيرة لابن بسام ، قسم4 ، مجلد1 ، 370 . ونفع الطيب للمقري ، ج3 : 119 .

(5) استمد المعنى من قوله تعالى : { فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم } . القلم : آية

فاحلل بِبِمَتِكَ ربقَ الأسرِ عن عنقي

فأنتَ بالفضلِ و الإفضالِ موسومٌ⁽¹⁾

[البسيط]

ونرى الشاعر يببالغ في مدح المعتمد ، حتى جعل أرزاق الخلائق مقسومة من عطاء يده ، ثم يستمد من معاني القرآن الكريم حين يشبه نفسه وقد سُجِنَ بسيدنا يونس - عليه السلام - الذي التقمه الحوت ، وكأنه بذلك يحاول تبرئة نفسه مما اتُّهمَ به من زندقة وإلحاد .
وخاطب الشاعر المعتمد مرة أخرى مستعظفاً إياه ، ومما خاطبه به قوله :

يا مُحِيباً بنِدادِ مِيتِ آمالي	ومُصلِحاً في فسادِ الذهرِ أحوالي
إني لأعجبُ من سجنِ به أَمِنْتَ	نفسِي من الخوفِ في عريسِ رنبالِ
ولم أرَ فيه مِثْلَ السِّيفِ أغمَدُهُ	مَنْ انتضاه لأشعاري وأقوالي
أُمسِي وحوالي رجالٍ في الكبولِ وهم	مقرنونَ بأصفادِ و أغلالِ ⁽²⁾
كم قائلِ لي وأثوابي مدنسةٌ	وقد غدوتُ مذالماً مثلَ أذِيالِ
أصيرتَ ترفلُ في الأسمالِ؟ قلتُ لهم :	أسماليَ اليومَ بينَ الناسِ أسمى لي ⁽³⁾

[البسيط]

ونلاحظ أن الشاعر فعل في مقطوعته هذه كما فعل في مقطوعته الأولى ، حيث مدح المدح ، وبالعكس في مدحه حينما وصفه بمحبي الآمال ومصالح الأحوال ، وكأنه يلفت نظر المعتمد إلى آماله هو وأحواله ، ثم يعجب الشاعر من إحساسه بالخوف وهو قريب من المعتمد وكأنه في عرين الأسد ، ويعجب أيضاً من أن الذي رفعه كان سبباً في انحطاطه وسجنه ، ونراه يستمد من معاني القرآن الكريم ليصف حال رفقائه في السجن ، والشاعر إنما كرر تأثره بالقرآن الكريم ومعانيه ؛ لينفي عن نفسه ما اتُّهمَ به من إلحاد وزندقة ، ويثبت أنه متعلق بدينه حافظ لكتاب ربه ، ثم يتحدث الشاعر عن سوء حاله بعدما سُجِنَ ، فقد تمزقت ثيابه ، وأصبح مهاناً ، الأمر الذي أثار عجب الناس الذين أخذوا يسألون الشاعر: أهكذا صرت ترفل في الأسمال البالية بعد أيام العزِّ والنعيم ، فكان رده عليهم : ما أنا فيه اليوم أسمى وأفضل لي بين الناس ، ونرى الشاعر يستخدم الجنس التام في قوله : أسمالي أي ثيابي البالية ، وأسمى لي أي أعظم رفعةً لي وسمواً .

(1) الذخيرة لابن بسام ، قسم 4 ، مجلد 1 : 373 .

(2) استمدَّ المعنى من قوله تعالى : { وآخرين مقرنين بالأصفاد } . ينظر : ص : آية 48 .

(3) الذخيرة لابن بسام ، قسم 4 ، مجلد 1 : 374 .

نظرات في الأشعار الاستعطافية الموجهة إلى الحاكم

عند تسليط الأضواء على الأشعار الاستعطافية الموجهة إلى الحاكم نلاحظ أموراً
اشترك فيها شاعران أو أكثر ، ومن هذه الأمور :

(أ) أن جميع الشعراء المستعطفين مدحوا الحاكم الذي يستعطفونه ، واتخذوا المدح وسيلة
لتسهيل حصولهم على العفو والصفح .

(ب) حاول بعض الشعراء المستعطفين تبرئة أنفسهم من التُّهم التي رُموا بها ، وعرضوا
بالوشاة والأعداء الذين كانوا سبباً في نكبتهم ؛ فهذا ابن زيدون يشبههم بأخوة يوسف - عليه
السلام - الذين ألقوا به في غيابت الجب ، واتهموا الذئب زوراً وبهتاناً في دمه :

كَانَ الْوِشَاءُ وَقَدْ مَنَيْتُ بِإِفْكَهِمْ أَسْبَاطُ يَعْقُوبٍ وَكُنْتُ الذُّبْيَا⁽¹⁾

[الكامل]

أما ابن عمار فيدعو المعتمد إلى أن لا يستمع إلى هؤلاء الوشاة ، ولا يصدق
حديثهم ، ولو كان فيه إشادة به وثناء عليه :

حَنَاتِيكَ فِي أَخْذِي بِرَأْيِكَ ، لَا تَطْعُ وَشَاتِي وَلَوْ أَتْنَا عَلِيَّ وَأَفْصَحَا⁽²⁾

[الطويل]

ويحاول ابن غصن أن يبرئ نفسه ، ويظهر أن شقائه كان بسبب الوشاة الذين افتروا
عليه ، وأقحموه في أمر لا ناقة له فيه ولا بعير :

وَنَاسٌ لَقَنِي بِهِمْ شِقَاءُ أَلَمْ فَرَمَ فِي سَاقِي سَبَاقِهِ
وَلَمْ يَكْ لِي بِذَلِكَ الْعَيْرُ عَيْرٌ وَلَا بِقَطِيعِ ذَاكَ الدَّوْدِ نَاقَةٌ⁽³⁾

[الوافر]

ويصّب ابن اللبّانة جام غضبه على أولئك المفسدين الذين أفسدوا العلاقة بينه وبين
مليكه ، ويدعو الله أن لا يميته حتى يراهم معذبين كما يعذب من يعصي الأمير ويخرج
عليه ، يقول مخاطباً مليكه :

أَطَعْتَ عَلِيَّ مَنْ لَا مِيتَ حَتَّى أَرَى مِثْوَاهَ مِثْوَى مَنْ عَصَاكَ
مَحَاسِنَاتٍ قَصْدِي وَانْقِطَاعِي بَبِيئَةِ أَقَامَ لَهَا دُرَاكَهَا

(1) ديوان ابن زيدون : 133 .

(2) قلائد العقيان لابن خاقان : 98 .

(3) إعتاب الكتاب لابن الأبار : 218 .

فَجَنَّبَ ماءَ بَشْرِكَ عَن جَنَابِي وَنَفَرَ طَيْرَ حَظِّي مِن رُبَاكَ⁽¹⁾

[الوافر]

(ج) لجأ بعض الشعراء المستعطفين إلى تذكير مَنْ يستعطفون بسالف العلاقة الطيبة بينهم ، وبالخدمات الجليلة التي قدّموها لهم ، يقول ابن عمار :

وَلَمْ لَا ، وَقَدْ أَسْلَفْتُ وِدَاءَ وَخِدْمَةً يَكَرَانِ فِي لَيْلِ الْخَطَايَا فَيَصْبِحُ⁽²⁾

[الطويل]

كما اعتبر الود الذي يكنّه للمعتمد بمثابة تميمة ستبعد عنه المنية :

وَبَيْنَ ضُلُوعِي مِن هَوَاهُ تَمِيمَةٌ سَتَنْفَعُ لَوْ أَنَّ الْحِمَامَ يَجْلِحُ⁽³⁾

[الطويل]

وَذَكَرَ الشعراء نِعَمَ مَنْ يَسْتَعْطِفُونَ وَأَيَادِيهِمُ الْبَيْضَاءَ عَلَيْهِمْ ، وَكَأَنَّهُمْ بِذَلِكَ يَحْتَسُونَ هَؤُلَاءِ الْحُكَّامَ عَلَى الْعَفْوِ عَنْهُمْ ؛ لِيَكُونَ هَذَا الْعَفْوُ نِعْمَةً أَخْزَى يَقْدَمُونَهَا لَهُمْ ، يَقُولُ ابْنُ زَيْدُونَ :

وَمَا لِي لَا أَتْنِي بِآلَاءِ مُنْعِمٍ إِذَا الرَّوْضُ أَتْنِي بِالنَّسِيمِ عَلَى الظَّلِّ⁽⁴⁾

وابن عمار سام نفسه الأذى ، وأقرّ بذنب لم يرتكبه عرفاناً بنعم المعتمد وفضائله

عليه :

أَمَا أَنَّهُ لَوْلَا عَوَارِفُكَ الَّتِي جَرَتْ جَرِيَانَ الْمَاءِ فِي الْغُصْنِ الرَّطْبِ
لَمَا سَمِتُ نَفْسِي مَا أَسُومُ مِنَ الْأَذَى وَلَا قَلْتُ أَنَّ الذَّنْبَ فِيمَا جَرَى ذَنْبِي⁽⁵⁾

ويتمنى ابن أزرُق أن يعود إلى ما كان عليه من نعيم عندما كان يرتع في كنف ابن

رشيق :

أَلَا لَيْتَ شِغْرِي هَلْ أَعُودُ إِلَى الَّذِي عَهَدْتُ مِنَ النَّعْمَى لَدَيْكُمْ بَلَا جَهْدِ⁽⁶⁾

[الطويل]

(1) الذخيرة لابن بسام ، قسم 3 ، مجلد 2 : 366 .

(2) قلاند العقيان لابن خاقان : 98 .

(3) قلاند العقيان لابن خاقان : 98 .

(4) ديوان ابن زيدون : 162 .

(5) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 407 . والحلة السراء لابن الأبار ، ج 2 : 136 .

(6) نفح الطيب ، ج 3 : 573 .

د) ذكر الشعراء المستعطفون مناقبهم ، وأشاروا إلى خبراتهم التي سيقدّمونها إلى الحاكم إن احتاج يوماً إليها ؛ لذا ينبغي للحاكم أن يُبقي هؤلاء الشعراء معززين مكرّمين ، لا أن يبعدهم ويعاقبهم ، وفي هذا يتباهى ابن زيدون بأنه يتقدّم على أقرانه كما يتقدّم الحصان السابق على سائر الخيول في ميادين السباق :

جوادٌ إذا استنَّ الجيادَ إلى مدى تمطرُ فاستولى على أمد الخصل⁽¹⁾

[الطويل]

والمعنى ذاته نجده عند ابن عمار ، لكنّه يصف نفسه بالحبل القوي الشديد ، بينما غيره من المحيطين بالمعتمد كالحبال الضعيفة الهشة :

ستذكرُني إن بانَ حَبلي وأصبحتُ تبينُ بكفكُ الحبالِ الرثائب⁽²⁾

[الطويل]

أمّا ابن اللبّانة فيتقدّم على أقرانه من الشعراء كما يتقدم الجواهر على سائر الحصى ، ومليكه سيدرك ذلك ، عندما يمدحه الشعراء الذين لم يبلغوا مبلغ ابن اللبّانة ، عند ذلك سيشتاق الملك إلى ابن اللبّانة وإلى قصائده المادحة :

سيشتاقتي الملكُ مهما أرادَ لباسَ نسيجٍ من المفخرِ
ولو أن كلَّ حصاةٍ تزيّن ما جعلَ الفضلُ للجواهرِ⁽³⁾

[المتقارب]

هـ) وازن بعض الشعراء المستعطفين بين ما كانوا عليه من عزٍّ ونعيمٍ وما آلوا إليه من من ذلٍّ وشقاءٍ ، والشاعر بموازنته هذه يعزف على وترٍ حساسٍ من أوتار الحسّ الإنساني ؛ فالإنسان بفطرته يتعاطف مع أولئك الذين كانوا في عزٍّ فانقلب حالهم إلى ذلٍّ ، فابن زيدون يتساءل عن السبب الذي حطّه من الأوج إلى الحضيض :

قد كنتُ أحسبُني والنجمُ في قرْنٍ ففيمَ أصبحتُ منحطاً إلى العفرِ⁽⁴⁾

[البسيط]

(1) ديوان ابن زيدون : 160 .

(2) الحلة للسيرة لابن الأبار ، ج 2 : 144 .

(3) الذخيرة لابن بسام ، قسم 3 ، مجلد 2 : 685 .

(4) ديوان ابن زيدون : 149 .

والمعتمد يتذكر أيام عزه ومجده عندما كان مسروراً في الأعياد ، فصادفه العيد وهو حبيسٌ ذليلٌ في أغمات :

فيما مضى كنت بالأعيادِ مسروراً فساءك العيدُ في أغماتِ مأسورا⁽¹⁾
أما ابن حداد فقد كان الذي رفعه سبباً في حطه :

وهوى بنجمي من سماءِ سنائه وقضى بحطي من ذرى سلطائه⁽²⁾

[الكامل]

(و) تأسى بعض الشعراء المستعطفين بالأنبياء والمرسلين ، واستخلصوا العبرَ من المحن التي مرت بهم ؛ فابن زيدون يدعو أمه أن تعتبر بأم موسى التي رضيت بقضاء الله ، وانصاعت لأمره ؛ فألقت بفلذة كبدها في اليم :

وفي أم موسى عبرةٌ أن رمتَ بهِ إلى اليمِ في التابوتِ فاعتبري واسلي⁽³⁾

[الطويل]

ويتأسى ابن غصن بالأنبياء امتحنهم الله تعالى بضروب من البلاء والشقاء ، ثم فرج الله عليهم ؛ فأزال بلاءهم وأنهى شقاءهم :

قد أجابَ الإلهَ دعوةَ نوحٍ حينَ نادى بأنَّه مغلوبُ
وشفى ذو الجلالِ علّةَ أيو بَ ، وقد شارفَ الردى أيوبُ
واتقضى سجنُ يوسفَ وقد استي أسَ ، وارتدَّ مبصراً يعقوبُ⁽⁴⁾

[الخفيف]

والشعراء عندما يتأسون بالأنبياء والمرسلين إنما يواسون أنفسهم ، فكما كشف الله الضرَّ عن هؤلاء الأنبياء والمرسلين - عليهم السلام - سيكشف الضرَّ عنهم ، ويفرج عليهم. (ز) لاحظنا أن بعضاً من الشعراء - لا سيّما أولئك الذين كانت لهم مكانة قبل محتهم - كانوا في البداية متماسكين ، معتدين بأنفسهم ، محافظين على كرامتهم أثناء استعطفهم ، لكن المعاناة التي عانوها في سجنهم طغنت كبرياءهم وقلّت حدّهم ، وجعلت عبارات التذلل تتسرّب إلى أشعارهم ، قال ابن زيدون في بدايات سجنه مستعظفاً ابن جهور :

(1) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 73 .

(2) ديوان ابن حداد : 302 .

(3) ديوان ابن زيدون : 160 .

(4) إعتاب الكتاب لابن الأبار : 219 .

أخصُّ لفهْمِي بِالْقَلْبِي وَكأْتَمَا
 ولو أنتي أسطيعُ كي أرضي العِدا
 يبيتُ لذي الفهمِ الزمانُ على نُحلي
 شريتُ ببعضِ العلمِ حظاً من الجهلِ⁽¹⁾

[الطويل]

لقد بدا ابن زيدون في هذين البيتين معتدلاً بنفسه ، متعالياً على غيره ، إلا أنه قال في مرحلة متأخرة من سجنه :

(إبائي) في جواركم الدليلُ
 وحدي في رجائكم الكليلُ
 اتحيا أنفسُ الآمالِ فيكم
 ولي أثناءها أملٌ قتيلُ⁽²⁾

[الوافر]

ونستطيع أن ندرك من خلال هذين البيتين كيف فعل السجن فعله فيه ؛ فأذله بعد عزّة ، وكيف أفقده أي شعور بالافتخار والاعتداد بنفسه ، أو التعالي على غيره . كما نجد ذات الأمر عند المعتمد ، قال في بداية حياته التعسة في سجنه :

قالوا : الخضوعُ سياسةٌ
 وألذُّ من طعامِ الخضو
 فليبدُ منك لهم خضوع
 ع على فمي السُّمُّ النَّقِيعُ
 وشيِّمُ الألى أنا مِنْهُمُ
 والأصلُ تتبَعُهُ الفروع⁽³⁾

[مجزوء الكامل]

إلا أننا نقرأ للمعتمد في فترة متأخرة من حبسه أبياتاً نستشفُّ من خلالها الذل والهوان ، كقوله عندما سأله بعض شعراء المغرب مالا :

سألوا اليسيرَ من الأسيرِ وإتة
 بسؤالهم لأحق منهم فاعجب
 لولا الحياءُ وعزّةُ لخميّة
 طي الحشا لحكاهم في المطلبِ⁽⁴⁾

[الكامل]

لقد كان هذان الشاعران يستعطفان بدايةً بعزّة وكرامة ورباطة جأش ، ثم ما لبثت عزّتهم أن تلاشت ، وكرامتهم أن انحطت بعدما قضوا فترة طويلة في ظلام السجن ، ولكن

(1) ديوان ابن زيدون : 159 - 160 .

(2) ديوان ابن زيدون ورسائله : 332 . والكلمة الأولى في البيت الأول ناقصة في الديوان ، وقد أضافها محقق ديوان

ابن زيدون ورسائله ؛ لتناسب المقام .

(3) الحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 65 .

(4) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 67 .

أما الصنف الثاني فقد كانوا غاضبين على الشاعر حانقين عليه ؛ لأنه أساء إليهم كما أساء إلى الحاكم ؛ لذا لم يتشفعوا فيه ، بل كانوا متلهفين على عقابه ، وهذا ما ينطبق على أبناء المعتمد الذين تشفع فيهم ابن عمار .

والصنف الأخير تشفع في الشاعر بعدما أدرك تهامة ذنبه وصغر جرمه ، وقبّلت شفاعته ؛ فقد عُفي عن ابن غصن الحجاري ، وأطلق سراحه بفضل شفاعته المقتدر بن هود .

(ط) عندما كان الشاعر يخاطب الحاكم كان معظم الحكام يتجاهلون الشاعر واستعطافه ؛ فابن جهور تجاهل ابن زيدون ، وكذلك فعل ابن تاشفين مع المعتمد ، وفعل المأمون مع ابن غصن ، أما المعتمد فقد ردّ على استعطاف ابن عمار شعراً ، وصفح عنه في المرّة الأولى وكاد يعفو عنه في المرّة الثانية ، وأمر استعطاف ابن أزرق وابن الحداد ، فالأول أعيد إلى بلاده وكنف مليكه ، أما الثاني فقد أطلق سراح أخيه بفضل قصيدته ، أما ابن اللبّانة والفكيك فلا نعرف إن كانا قد حصلوا على العطف والصفح أم أنّهما أخفقا في ذلك ، ولكن نستطيع أن نرّجح الاحتمال الثاني ؛ فابن اللبّانة لم يعد إلى بطليوس ولا إلى ميورقة اللتين هرب منهما ، ولو كانت أشعاره قد أثمرت لأذن له بالعودة إليهما ، وكذلك الأمر بالنسبة للفكيك الذي اتهم في دينه ، فقد خاطب المعتمد مستعطفاً ومدحه ، وبالغ في مدحه حين خلع عليه بعضاً من الصفات الإلهية ، وكأنّه بذلك أثبت ما اتهم به .

ثانياً : استعطاف المحبوبة :

كان للمحبة نصيب كبير في شعر الاستعطاف ؛ فالشاعر قد يتعلق قلبه بمحبة لا تحبه ، ولا تشاركه الشعور الذي يكنه لها ؛ فيغدو الوصال بينهما صعباً ؛ فيحيا الشاعر المحبة حياة عسيرة ، لا يشغله فيها شاغل سوى وصال محبوبته ، وتقربها منه ؛ فيشعر بالتغزل بها ، ووصف عشقه لها وهيامه بها ، ثم يطنب في الحديث عن تعاسة حياته ، ونكد عيشه ؛ بسبب ابتعاد محبوبته عنه عساه بذلك يستلين قلبها ويستدر عطفها .

وقد يحصل خلاف بين المحبتين ؛ بسبب ذنب يقع من المحبة ، ويؤدي هذا الخلاف إلى هجر ، وعندما يطول الهجر يندم المحبة على ذنبه ؛ (فيبدأ في الاعتذار والخضوع والتذلل ، والأدلة بحجته من الإدلال والإذلال والتذمم بما سلف)⁽¹⁾ ، عسى المحبوبة تغفر ذنبه ، وتعطف عليه ، وتخلصه من ضنك الهجر وألم الفراق ، والمحب المستعطف إن نال مبتغاه ، وحصل على رضى محبوبته يكون في غاية السعادة (فلرضى المحبوب بعد سخطه لذة في القلب لا تعدلها لذة ، وموقف من الروح لا يفوقه شيء من أسباب الدنيا)⁽²⁾ ، وأشهر الشعراء الذين استعطفوا محباتهم في هذا العصر هم :

1- ابن زيدون⁽³⁾ :

محبوبته ولادة : عُرف ابن زيدون بولادة ، فلا تُذكر إلا به ولا يُذكر إلا بها ، واقترن اسمهما معاً كما اقترن عنتره بعبلة ، وقيس بليلي ، وجميل ببثينة ، وولادة هذه هي بنت المستكفي بالله الخليفة الأموي قبل الأخير في الأندلس و (كان مجبولاً على الجهالة ، عاطلاً عن كل خلة تدل على فضيلة ، معروفاً بالتخلف والركاكة ، مشتهراً بالشرب والبطالة ، سقيم السرّ والعلانية ، أسير الشهوة)⁽⁴⁾ ، و (لم يجلس في الإمارة مدة الفتنة أسقط منه ولا أنقص)⁽⁵⁾ ، أمّا أمها فجارية إسبانية تسمى (سكرى) ، وقد شابته ولادة أمها

(1) طوق الحمامة في الألفة والآلاف : ابن حزم الأندلسي ، تحقيق فاروق سعد ، منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت ، (د.ت) : 180 .

(2) طوق الحمامة لابن حزم : 180 .

(3) ابن زيدون سبقت ترجمته صفحة 32 .

(4) الذخيرة لابن بسام ، قسم 1 ، مجلد 1 : 434 .

(5) الذخيرة لابن بسام ، قسم 1 ، مجلد 1 : 434 .

الأوروبية في صفاتها الجسدية ، حيث يدل وصف ابن زيدون لها على أنها كانت بيضاء البشرة ، ذات شعر أشقر :

رَبِيبُ مَلِكٍ كَانَ اللهُ أَنْشَأَهُ مَسْكَاً وَقَدَّرَ إِنْشَاءَ الْوَرَى طِينَا
أَوْ صَاغَهُ وَرِقاً⁽¹⁾ مُحْضاً وَتَوَجَّهَ مِنْ نَاصِعِ التَّبْرِ⁽²⁾ إِبْدَاعاً وَتَحْسِينَا⁽³⁾

[البسيط]

كما شابته أباها في مجونه وخلاعه فقد (أوجدت إلى القول فيها السبيل بقلّة مبالاتها ، ومجاهرتها بلذاتها ، كتبت - زعموا - على أحد عانقي ثوبها :

أنا والله أصلح للمعالي وأمشي مشيتي وأتية تيهي

[الوافر]

وكتبت على الآخر :

أَمْكُنْ عَاشِقِي مِنْ صَحْنِ خَدِي وَأَعْطِي قُبْلَتِي مَنْ يَشْتَهِيهَا⁽⁴⁾

[الوافر]

وكانت إلى جانب جمالها ولهوها شاعرة مبدعة تهوى الأدب فقد (كان مجلسها بقرطبة منندي لأحرار المصر ، وفناؤها ملعباً لحياد النظم والنثر ، يعيش أهل الأدب إلى ضوء غررتها ، ويتهالك أفراد الشعراء على حلاوة عشرتها ؛ لسهولة حجابها وكثرة منتابها)⁽⁵⁾ ، وكان من هؤلاء الشعراء الذين جذبتهم إليها ابن زيدون ؛ فتعلقت ولادة به ، وكان في بداية عهده معها مطلوباً لا طالباً ، معشوقاً وليس عاشقاً ، عبرت ولادة عن حبها له في شعرها ، فقد كتبت يوماً إليه :

تَرْقُبُ إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ زِيَارَتِي فَإْتِي رَأَيْتُ اللَّيْلَ أَكْتَمَ لِلسَّرِّ
وَبِي مِنْكَ مَا لَوْ كَانَ بِالْبَدْرِ مَا بَدَا وَبِاللَّيْلِ مَا أَدَجَى وَبِالنَّجْمِ لَمْ يَسِرْ⁽⁶⁾

[الطويل]

(1) الورق : الفضة . ينظر المعجم الوسيط ، ج 2 : 1026 .

(2) التبر : فتات الذهب . ينظر المعجم الوسيط ، ج 1 : 81 .

(3) ديوان ابن زيدون : 11 .

(4) الذخيرة لابن بسام ، قسم 1 ، مجلد 1 : 429 - 430 .

(5) الذخيرة لابن بسام ، قسم 1 ، مجلد 1 : 429 .

(6) الذخيرة لابن بسام ، قسم 1 ، مجلد 1 : 430 .

كما عبرت عن تشوقها إليه ، فقد ألمّ بابن زيدون أمرٌ جعله يفارقها حيناً ؛ فكتبت إليه متشوقةً لرؤيته :

ألا هل لنا من بعد هذا التفرّق
سبيلٌ فيشكو كلّ صبٍّ بما لقي
وقد كنت أوقات التزاورِ في الشّتَا
أبيتُ على جمرٍ من الشوقِ محرقٍ⁽¹⁾
[الطويل]

هكذا كانت ولادة تحبّ ابن زيدون وتتشوق إليه ، ولكنه ما لبث أن هام بها كما هامت به ، وأخذ يبادلها عشقاً بعشقٍ وغراماً بغرام ، وأخذ يتحدث عن حبه الشديد لها ، ويتشوق إليها كما تشوقت إليه قبل ، ونلمس ذلك من شعره فيها ، فقد أنشدها عندما شاربها يوماً مودعاً :

ودع الصبّر محبّاً ودّعك
ذائع من سرّه ما استودعك
يقرع السنّ على أن لم يكن
زاد في تلك الخطى إذ شيعك
يا أخوا البدرِ سنّاءً وسنى
حفظ الله زماناً أطلعك
إن يطلّ بعدك ليلي فلّكم
بت أشكو قصر الليل معك⁽²⁾
[الرمل]

لقد (أحسن ابن زيدون وولادة وكان روحيهما تألفتا ، بل لكأنهما احترقتا بلظى العشق والغرام ؛ فقادا حياة محمومة بالحب ، ليس فيها حشمة ، وإنما فيها العنف والجرأة)⁽³⁾ ولكن أيام السعد والوصال بين المتحابين لم تدم ، إذ سرعان ما حدثت الجفوة بينهما ، ثم كانت القطيعة المرّة التي أورثت ابن زيدون جرحاً بليغاً نازفاً ظلّ يعاني منه طيلة حياته .

سبب الجفوة بين ابن زيدون وولادة :

يتحدث ابن بسام عن الجفوة بين ابن زيدون ومحبوبته ، ويقول : إن ابن زيدون طلب من جارية مغنّية أن تعيد بيتاً غنّته ؛ فغضبت ولادة إذ ظنّت أنه يغازلها من دونها⁽⁴⁾ ، أمّا المقرّي فيسوق سبباً آخر وهو نقد ابن زيدون لبيتِ نظمته ولادة وكان نقده يفتقر إلى

(1) ديوان ابن زيدون : 283 .

(2) ديوان ابن زيدون : 94 .

(3) ابن زيدون لشوقي ضيف : 20 .

(4) الذخيرة لابن بسام ، قسم 1 ، مجلد 1 : 431 .

اللباقة ، فاستبدَّ بها الغضب وتحول قلبها عنه⁽¹⁾ ، ويرى الدكتور جودت الركابي أن (انضمام ابن زيدون لحركة الجهاورة قد ترك في نفسها أثراً سيئاً ، وهي بنت خليفة أموي؛ فجاءت الغيرة تذكي في نفسها شتى الوسواس)⁽²⁾ ، ويقول الدكتور عمر الدقاق : (إن ولادة ذات النفس الفائرة والطبيعة المتقلبة هي التي تغيرت على ابن زيدون ، وتعلقت بوزير آخر هو ابن عبدوس دون أن ترعى لمحبتها عهداً)⁽³⁾ ، وأظنّ أنّ الأسباب السابقة ليست مقنعة في تفسير سبب القطيعة التي حدثت بين الشاعر ومحبوبته ، وأرى أنّ السبب المقنع يظهر في شعر ابن زيدون الذي استبدت به يوماً ثورة غضب ؛ فاعتدى على محبوبته الأميرة بالضرب ، فشعرت أنّ كرامتها مُست ، وأنّ إهانةً بليغة لجمت بها ؛ فنقمت على الشاعر ولم تغفر له زلته على الرغم من ندمه على فعلته ، ووعده بإصلاح ما أفسد ، وفي ذلك يقول معتزلاً :

إن تكن نالتك بالضرب يدي	وأصابتك بما لم أرد
فلقد كنتُ لعمرى فادياً	لكِ بالمالِ وبعضِ الوالدِ
فثقي مني بعهدٍ ثابتٍ	وضميرِ خالصِ المعتقدِ
ولئن ساءك يومٌ فاعلمي	أنّ سيتلوه سرورٌ بَعْدَ ⁽⁴⁾
	[الرمل]

ابن زيدون يتغزل بمحبوبته ويستعطفها :

حصلت القطيعة بين ابن زيدون وولادة ، ثم اكتملت مأساة ابن زيدون عندما سُجن ، وبدا في هذه المرحلة وكأنّ الدنيا قد أدبرت عنه ، وعلى الرغم من ذلك لم ينسَ محبوبته ، بل أخذ يجهد في إلانة قلبها ، ويرسل إليها الأشعار راجياً منها أن تعطف عليه وتعود إليه ، وكانت القصيدة النونية أشهر قصائده في هذا المضمار ، وقد نظمها وهو متخفّ في أرجاء قرطبة بعد فراره من السجن ، وأرسلها إلى محبوبته (لعلها ترقّ ، وتجدد العهد ، فإن لم

(1) نوح الطيب للمقري ، ج 4 : 205 - 211 .

(2) في الأدب الأندلسي لجودت الركابي : 171 .

(3) ملاحح الشعر الأندلسي لعمر الدقاق : 140 .

(4) ديوان ابن زيدون : 56 .

يتحقق الأمل المرجو فلا أقل من أن تكون بطاقة وداع ، وكلمة أخيرة في قصة حبّ بائسة ،
وفاء للحب الجاحد (1) .

لقد افتتح ابن زيدون قصيدته هذه بتصوير حاله وما آل إليه ، فقد أصبح قربه من
حبيبته بُعداً ، وصار الموت والهجر سياتن في نظره ، ويود الشاعر أن يعلم محبوبته أن
ضحكه قد حال إلى بكاء ، وأن الدهر قد استجاب لدعوة أعدائه ، وحقق لهم ما تمنّوه من
افتراق الحبيبين ، فلم يعودا يلتقيان بعد أن كانا لا يخشيان التفرّق :

أضحى التثائي بديلاً من تدائينا	وناب عن طيب لقيانا تجافينا
ألا وقد حان صبحُ البينِ صبَحنا	حين ⁽²⁾ ، فقام بنا للحين ناعينا
من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم	حزناً مع الدهر لا يبلى ويبيلنا
إن الزمان الذي ما زال يضحكنا	أنساً بقربهم قد عاد يبكينا
غيط العدى من تساقينا الهوى فدعوا	بأن نغصّ فقال الدهر: آمينا
فاتحل ما كان معقوداً بأنفسنا	وأنت ما كان موصولاً بأيدينا
وقد نكون وما يخشى تفرّقنا	فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا ⁽³⁾

[البسيط]

وينتقل الشاعر إلى عرض ما يكنه من حبّ لولادة ، وشوق إليها ، وفاء لها ،
وبيّن أن الحزن الذي سببه بعدها عنه ، وهجرها إياه يكاد يقضي عليه لولا تأسيه وتصبره ؛
فقد أفسد عليه هذا الحزن حياته ؛ فأمست أيامه الحاضرة سوداء ، بينما كانت لياليه مع
محبوبته بيضاء ناصعة ، ثم يتحسر الشاعر على أيام وصاله مع محبوبته ، تلك الأيام التي
كانت كالروضة الغناء ، يذال منها ما يشتهي ، ويقطف من ثمرها ما يريد ، ولكن هذا
التحسر لا يملّي على الشاعر السخط والغضب ، بل على العكس من ذلك نراه يؤكد وفاءه
الشديد لها ، فهو لا يتغيّر على محبوبته كما تغيّرت عليه ، والبعد الذي طالما غير المحبين
عاجز عن تغييره ؛ لذا فهو باقٍ على حبّ محبوبته التي كانت في وصالها ريحاناً لروحته ،
وما زالت في بعدها عنه ذلك الريحان الذي تتشوق إليه نفسه ، فقلبه ما مال إلى سواها ،
وأمانيه لم تتصرف عنها قط :

(1) دراسات أدبية ونحوية : فتحى خضر ، منشورات دار الأرقم - رام الله ، ط 1 ، 1987م : 162 .

(2) الحين : الهلاك . ينظر المعجم الوسيط ، ج 1 : 213 .

(3) ديوان ابن زيدون : 9 .

لَمْ نَعْتَقِدْ بَعْدَكُمْ إِلَّا الْوَفَاءَ لَكُمْ
 بِنْتُمْ وَبِنَا فَمَا ابْتَلَتْ جَوَانِحُنَا
 نَكَادُ حِينَ تَنَاجِيكُمْ ضَمَائِرُنَا
 حَالَتَ لِفَقْدِكُمْ أَيَّامُنَا فَعَدَّتْ
 إِذْ جَانِبُ الْعَيْشِ طَلَقَ مِنْ تَأَلَّفُنَا
 وَإِذْ هَصَرْنَا غُصُونَ الْوَصْلِ دَائِيَةً
 لَيْسَقُ عَهْدِكُمْ عَهْدَ السُّرُورِ فَمَا
 لَا تَحْسَبُوا نَايَكُمْ عَنَا يُغَيِّرُنَا
 وَاللَّهِ مَا طَلَبْتُ أَهْوَاؤَنَا بَدَلًا
 رَأْيًا وَلَمْ نَتَّقَدْ غَيْرَهُ دِينَنَا
 شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَّتْ مَآقِينَا
 يَقْضِي عَلَيْنَا الْأَسَى لَوْلَا تَأْسِينَا
 سُودًا وَكَانَتْ بَكُمْ بِيضًا لِيَالِينَا
 وَمَرِبَعُ اللَّهْوِ صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا
 قَطُوفُهَا فَجَنِينَا مِنْهُ مَا شِينَا
 كُنْتُمْ لِأَرْوَاحِنَا إِلَّا رِيَاحِينَا
 أَنْ طَالَمَا غَيَّرَ النَّأْيُ الْمُحِبِّينَا
 مِنْكُمْ ، وَلَا انْصَرَفَتْ عَنْكُمْ أَمَاتِينَا⁽¹⁾
 [البسيط]

وبشرك الشاعر ظواهر الطبيعة في معاناته ، فيطلب من البرق أن يباكر قصر محبوبته ويسقي ساكنيه ، ويرد الجميل إلى من أسقى الشاعر منهم الحب والغرام ، ثم يطلب من النسيم أن يبلغ تحياته إلى تلك المحبوبة التي لو أرسلت السلام إلى الشاعر لخلصته من ضنكه ومعاناته :

يَا سَارِي الْبَرَقِ غَادِ الْقَصْرَ وَاسْقِ بِهِ
 وَاسْأَلْ هُنَاكَ هَلْ عَنَى تَذَكَّرْنَا
 وَ يَا نَسِيمَ الصَّبَا بَلِّغْ تَحِيَّاتِنَا
 فَهَلْ أَرَى الدَّهْرَ يَقْضِينَا مُسَاعِفَةً
 مَنْ كَانَ صَرَفَ الْهَوَى وَالْوَدَّ يَسْقِينَا
 الْفَأْ تَذَكَّرَهُ أَمْسَى يَعْنِينَا
 مَنْ لَوْ عَلَى الْبُعْدِ حَيًّا كَانَ يُحْيِينَا
 مِنْهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ غَبَاً تَقَاضِينَا⁽²⁾
 [البسيط]

ويصف الشاعر محبوبته ، فهي ليست كسائر البشر ، بل ربيب ملوك ، كأنها خلقت من طينة المسك ، فجسدها أبيض كالفضة ، أما الشعر الذي يتوجها فهو أصفر كالذهب (وجمال المحبوب هنا ليس من الجمال الذي تضمه الشوارع ، وإنما جمال ارستقراطي تلمح خلاله ليونة النعيم وعضارته ، وتأود القد المرهف ورخاصته حتى ليديمه مس العقود

(1) ديوان ابن زيدون : 10 .

(2) ديوان ابن زيدون : 10 - 11 .

والمجوهرات (1) ، إلى جانب ذلك فهي أميرة وسليمة أمراء ، والشاعر إن كان دونها شرفاً
إلا أن المودة تساوي بين المحبين :

مسكاً وقدرَ إنشاء الورى طينا	ريببُ مَلِكْ كَأَنَّ اللهُ أَنشَاه
من ناصع التبرِ إبداعاً وتحسينا	أَوْ صَاغَهُ وَرَقاً مُحَضّاً وَتَوَجَّهُ
توم العقود وأدمته البرى لنا	إِذَا تَأَوَّدَ آدَتَهُ رِفَاهِيَّةً
بل ما تجلى لها إلا أحايينا	كَانَتْ لَهُ الشَّمْسُ ظِلْراً فِي أَكْلَتِهِ
وفي المودة كافٍ من تكافينا(2)	مَا ضَرَّ أَنْ لَمْ نَكُنْ أَكْفَاءَهُ شَرْفاً

[البسيط]

(ويقف الشاعر من محبوبته وقوف مناجاة فيه معانٍ عديدة من التمني والتحسر والاحترام والإجلال) (3) ، فهو يتحسر على أيام وصاله مع محبوبته التي كانت روضة له ، كما كانت نعيماً لحياته ، ويتمنى أن تعود إليه ، وتعيده إلى جنته التي أخرج منها ، وإلى النعيم الذي فارقه ، والشاعر عندما يخاطب محبوبته لا يسميها إجلالاً لها وتكريماً ، ولأن قدرها العالي يُغنيه عن ذلك ، ولكن وصفه إيها يدل عليها ، فلا أحد من البشر يشاركها جمالها أو صفاتها :

ورداً جلاه الصباً غضاً ونسرينا	يا روضة طالما أجنّت لواحظنا
مئىً ضروباً ولذاتِ أفاتينا	ويا حياةً تملينا بزهرتها
من وشي نعى سحبنا ذيلةً حيناً	ويا نعيماً خطرنا من غضارته
وقدرُك المعلى عن ذاك يغينا	لسنا نسمةً إجلالاً وتكرمةً
فحسبنا الوصفُ إيضاحاً وتبييناً(4)	إذا انفردتِ وما شوركتِ من صفةٍ

[البسيط]

ويعود الشاعر ليتلطف على ماضيه ، ويناجي تلك الجنة التي أخرج منها ، ويحنّ إلى كوثرها العذب الذي أبدل به زقوماً وغسلينا ، ويعود بنا إلى الوراء ليحدثنا عن تلك الأيام السعيدة واللحظات الهنيئة التي كان ينعم فيها بوصول محبوبته ، لقد كان الحبيبان آنذاك

(1) في الأدب الأندلسي لجودت الركابي : 213 .

(2) ديوان ابن زيدون : 11 .

(3) الأدب الأندلسي - موضوعاته وفنونه : مصطفى الشكعة ، دار العلم للملايين - بيروت ، ط5 ، 1983م : 210 .

(4) ديوان ابن زيدون : 11 - 12 .

سرّين مطويين في حالك الظلماء ، لا يفشيها إلا لسان الصبح ساعة بزوغه ، ثم يخاطب
تلك المحبوبة التي ملأت عليه حياته أينما حلّ وحيثما ارتحل ، ويقول لها : إنه لن يفقد الأمل
ب لقاءها ، فإن لم يتم هذا اللقاء في الدنيا فسوف يتم في العالم الآخر يوم الحشر :

يا جنة الخلد أبدلنا بسدرتها
كأننا لم نبت والوصل ثالثنا
والسعد قد غض من أجفاننا
حتى يكاد لسان الصبح يفشيها
إن كان قد عز في الدنيا اللقاء بكم
في موقف الحشر نلقاكم وتلقونا⁽¹⁾

[البسيط]

ويناجي الشاعر محبوبته مرّة أخرى ليعلمها أن الحزن قد اقترب من حياته من وقت
بعدها عنه ، وهجرها إياه ، ورغم ذلك ما زال محباً لها ، لا يكتمل سروره ولا تتم بهجته
إلا إذا كانت قريبة منه ، فملذات الحياة مجتمعة لا تدخل البهجة والسرور إلى نفسه ما دامت
بعيدة عنه ، هاجرة إياه :

إنّا قرأنا الأسي يوم النوى سوراً
أما هواك فلم نعد بمنهاه
لم نجف أفق جمال أنت كوكبه
ناسى عليك إذا حثت مشعشة
لا أكوس الرّاح تبدي من شمائلنا
مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا
شرباً وإن كان يروينا فيظمينا
سالمين عنه ولم نهجره قالينا
فينا الشمول وغنّانا مغنينا
سيما ارتياح ولا الأوتار تلهينا⁽²⁾

[البسيط]

ويختم الشاعر قصيدته مستعطفاً محبوبته ؛ فيرجوها أن تعود إليه ، وتخلّصه من
عناء البعد وألم الفراق ، فهو لا يستحقّ هذه المعاناة ؛ لأنه عاشق وفي ، فنفسه لم تصب إلى
غيرها ، وقلبه لم يمل إلى سواها (ولعله لا يستطيع التخلّي عن هذا الوفاء في الحب ؛ لأنه
سبب من أسباب بقائه ، فليقنع بالقليل ، وليودعها وفي نفسه ذلّة وانكسار ، وفي الجو السذي
خلقه ارتجاف وحسرة وانكسار)⁽³⁾ :

دومي على العهد ما دمنّا محافظةً
فالحرّ من دان إنصافاً كما ديننا

(1) ديوان ابن زيدون : 12 .

(2) ديوان ابن زيدون : 12 - 13 .

(3) في الأدب الأندلسي لجودت الركابي : 214 .

فما استعضنا خليلاً منك يحبسنا
ولو صبا نحونا من علو مطلعته
أولى وفاء وإن لم تبدلي صلالة
وفي الجواب متاع إن شفعت به
ولا استفدنا حبيباً عنك يثينا
بدر الدجى لم يكن حاشاك يصبينا
فالتطفيف يقنعنا والذكر يكفينا
بيض الأيادي التي ما زلت تولينا
صباة منك نخفيها فتخفينا⁽¹⁾

[البسيط]

لقد استجمع ابن زيدون شاعريته ، وفجر عواطفه فكانت هذه القصيدة التي صارت (أغنية العاشق ، وسلوة المحزون ، وأمل المحب ، ورجاء اليائس ، وهمسة الحائر ، ودمعة الباكي)⁽²⁾ ؛ لأن الشاعر جمع فيها ما يدور بخلد من معانٍ وصور ، وصاغها بعبارات تملك النفوس ، وتستولي على القلوب . والشاعر لم يقصر شعره الغزلي على هذه القصيدة ، بل نقرأ له قصائد غزلية استعطافية أخرى غير هذه القصيدة ، إلا أن معانيه وصوره وأخيلته وعواطفه في قصيدته النونية هي ذاتها في قصائده الغزلية الأخرى ، فكما تشوق إلى محبوبته في هذه القصيدة تشوق إليها في سائر قصائده الغزلية ، فما هو يكاد يطير إلى محبوبته شوقاً وقد أصبح مضنى القلب ، منهك الجسم :

لا سكن الله قلباً عقق ذكركم
فلم يطر بجناح الشوق خفافا
لو شاء حملي نسيم الصبا حين سرى
وفاكم بفتى أضناه ما لاقى⁽³⁾

[البسيط]

والمعنى ذاته يكرره الشاعر في قصيدة أخرى :

فلو أسطيع طرت إليك شوقاً
وكيف يطير مقصوص الجناح⁽⁴⁾

[الوافر]

وتشوقه إلى الحبيب كتشوق الظمان إلى الماء الزلال ليطفئ ظمأه ، ويروي عطشه :

فديتك إن صبري عنك صبري
لدى عطشي على الماء القراح⁽⁵⁾

(1) ديوان ابن زيدون : 13 .

(2) تاريخ الأدب العربي في الأندلس : إبراهيم أبو خشب : 349 .

(3) ديوان ابن زيدون : 47 .

(4) ديوان ابن زيدون : 49 .

(5) ديوان ابن زيدون : 48 .

[الوافر]

وعلى الرغم من محاولة الشاعر إخفاء عواطفه إلا أن شوقه يفضحه ، وهو غريب عن وطنه ، بعيد عن حبيبه :

يخفي لواعجه والشوق يفضحه فقد تساوى لديه السرُّ والعلن⁽¹⁾

[البسيط]

وكما تحدّث الشاعر في قصيدته النونية عن حزنه وسوء حاله بسبب فراق محبوبته تحدّث عن ذلك في قصائده الغزلية الأخرى ، فمحبوبته رفعتَه إلى الأوج حين كانت قريبة منه ، ثم ألقّت به في الحضيض حين ابتعدت عنه :

أرخصتني من بعدما أغليتني وحططتني ولطالما أغليتني
كنت المني فأذقتني غصص الأذى يا ليتني ما فهت فيك: بليتني⁽²⁾

[الكامل]

ويتمنى الشاعر أن تبادلته محبوبته حباً بحب ، وهياماً بهيام ؛ فيطول ليلها شوقاً إليه كما يطول ليله شوقاً إليها :

يا ليت مالك عندي من الهوى لي عندك
فطال ليلك بعدي كطول ليلي بعدك⁽³⁾

[مجزوء الكامل]

ويشرك الشاعر الطبيعة في معاناته في كثير من قصائده كما أشركها في قصيدته النونية ، فالنسيم العليل إنما اعتلّ حزناً على ما يعانيه الشاعر ، أمّا الزهر المجلل بالندى فكأنه يبكي تعاطفاً معه في محنته :

(1) ديوان ابن زيدون ورسائله : 162 .

(2) ديوان ابن زيدون : 66 .

(3) ديوان ابن زيدون : 55 .

إني ذكرك بالزهراء مشتاقا
وللنسيم اعتلال في أصابعه
نلهو بما يستميل العين من زهر
كان أعينه إذ عاينت أرقى
والأفق طلق ومرأى الأرض قد راقا⁽¹⁾
كأنه رق لي فاعتل إشفاقا
جال الندى فيه حتى مال أعناقا
بكت لما بي فجال الدمع رراقا⁽²⁾
[البسيط]

ويعيد الشاعر مرة أخرى صورة النسيم الذي تعاطف معه فاعتل حزناً على ما ألمّ

به:

ولطالما اعتلّ النسيم فخلتُهُ
شكواي رقت فافتضت شكواك⁽³⁾
[الكامل]

ويشترك الشاعر مع حماسة كانت تهدل على غصن في الشكوى ، وكان الغصن

الذي بينهما يتمايل وكأنه متعاطف معهما :

وأرق العين والظلماء عاكفة
ورقاء قد شفها إذ شفني حزن
فبت أشكو وتشكو فوق أيكته
وبات يهفو ارتياحاً بيننا الغصن⁽⁴⁾
[البسيط]

وعرض الشاعر بالأعداء والوشاة في نونيته ، كما عرض بهؤلاء في غير قصيدة من قصائده ، والشاعر يقصد بهؤلاء الأعداء عشاق ولادة الكثر وفي مقدمتهم الوزير ابن عبدوس⁽⁵⁾ ؛ فمحبوبته كادت تخلص له لولا مساعي هؤلاء الوشاة الذين بذروا بذور الشقاق

(1) قال الدكتور سيد نوفل عن هذه القصيدة أن عاطفتين تموجان فيها (عاطفة الماضي الجميل تكسبه الطبيعة الحلوة مزيداً من الحُسن ، وعاطفة الحاضر المحروم يكسو الطبيعة ثوباً من القتامة والكآبة ، والشاعر إذا تحدّث عن الماضي ابتسمت الطبيعة في طلاقة الأفق ، وصفاء وجه الأرض ، وابتسام الروض ، وطرب الزهر وتألّق الورد وإشراق الضحى ، وإذا تحدّث عن الحاضر تمثّل له في اعتلال النسيم وإشفاقه ، وبكاء الزهر ، وجولان دمهعه الرقاق ، ونعاس النيلوفر ، وبذلك يبدو اشتباك الطبيعة مع عواطف الشاعر التي يذكيها باعثاً في النفوس لحناً من الأسى والإشفاق والصدى العميق) . ينظر شعر الطبيعة في الأدب العربي : سيد نوفل ، دار المعارف - مصر ، ط2 ، (دبت) : 267 .

(2) ديوان ابن زيدون : 46 - 47 .

(3) ديوان ابن زيدون : 97 .

(4) ديوان ابن زيدون ورسائله : 162 .

(5) الوزير أبو عامر بن عبدوس (ذو الوزارتين) ، منافس ابن زيدون في حب ولادة ، توفي عام 472هـ . ينظر

الذخيرة لابن بسام ، قسم 3 ، مجلد 1 : 65 .

والخلاف بينهما ، والشاعر إنما تتأجج نيران عداوته على هؤلاء الوشاة ؛ بسبب رضى محبوبته عنهم :

ولي أمل لو الواشون كفوا لأطلع غرسه ثمر النجاح
وأعجب كيف يغلبنى عدو رضاك عليه من أمضى سلاحي⁽¹⁾
[الوافر]

ويلوم الشاعر محبوبته ؛ لأنها انخدعت بأعدائه ، وغرت بزورهم ؛ فوَقعت في شراكهم :

وناجاك بالإفك في الحسود فأعطيته جهرة ما سأل
ورافك سحر العدى المفترى وغرك زورهم المُفتعل⁽²⁾
[المتقارب]

ويذكر الشاعر محبوبته بمناقبه حين كان قريباً منها عساها تعطف عليه وتعود إلى وصاله ، لقد كان يصبر نفسه على البعد عنها كي لا تملّه ، كما كان يتظاهر بالرضى والسرور وعلى الرغم من أنه لم ينل من محبوبته ما يرضيه ويسرّه ، وكان الأحرى بمحبوبته أن تقابل إحسانه بإحسان ، وأن تغفر ذنبه إن كان قد أذنب ، كما كان يغتفر ذنوبها، سواء أكانت هذه الذنوب متعمدة أم غير متعمدة :

ألم ألزم الصبر كيما أخف ألم أكثر الهجر كي لا أمل ؟
ألم أرضى منك بغير الرضى وأبدي السرور بما لم أتل ؟
ألم أعتقر موبقات الذنوب ب عمداً أتيت بها أم زلل ؟
وما ساء ظني في أن يسيء بي الفعل حسنك حتى فعل⁽³⁾
[المتقارب]

ويشكو الشاعر من محبوبته التي لم يجد معها عتابه ، بل كانت تتذرع بشتى الذرائع، وتبرر بعدها عنه بالمبررات التي تشبه مبررات الفلاسفة والجدليين :

ومهما هزرت إليك العنا ب ظاهرت بين ضروب العئل
كأنك ناظرت أهل الكلام وأوتيت فهماً بعلم الجدل⁽⁴⁾

(1) ديوان ابن زيدون : 48 - 49 .

(2) ديوان ابن زيدون : 34 .

(3) ديوان ابن زيدون : 34 - 35 .

(4) ديوان ابن زيدون : 35 .

[المتقارب]

ويتأرجح الشاعر بين الأمل واليأس في قصائده ، فما هو يأمل من محبوبته أن ترسل السلام إليه مع النسيم ، فما زال فؤاده معلقاً بها ، وقلبه مائلاً إليها :

وإن تُهدِي السَّلَامَ إِلَيَّ غَبَاً ولو في بعضِ أنفاسِ الرِّيحِ
فؤادي من أسيِّ بك غير خالٍ وقلبي عن هوى لك غير صاحٍ⁽¹⁾
[الوافر]

ولكنه في قصيدة أخرى ييأس من لقاء محبوبته ، ويعتبر الود الذي كان بينهما قد قضى قبل انتهاء أجله :

فلم يك حظي منك الأخرس ولا عدّ سهمي فيك الأقل
عليك السلام سلام الوداع وداع هوى مات قبل الأجل⁽²⁾
[المتقارب]

لقد سلك ابن زيدون شتى المسالك التي ظن أنها ستجلب قلب محبوبته وتستدر عطفها ؛ فتغزل بها ، وأطنب في الحديث عن حزنه وسوء حاله وضنك عيشه بسبب فراقها ، كما وازن بين ما كان عليه عندما كان ينعم بوصولها وبين ما آل إليه عندما هجرته وابتعدت عنه ، وبكى خلال ذلك وأن ، وتشوق إلى محبوبته وحن ؛ ولكن لم ينفعه بكاؤه وأنيته ، ولا تشوقه وحنينه ، إذ إنها لم تستجب إليه ، ولم تدم على العهد الذي رجاها أن تحافظ عليه :

دومي على العهد ما دمننا محافظةً فالحر من دان إنصافاً كما دينا⁽³⁾
[البسيط]

ولم ترسل إليه السلام مع النسيم :

وإن تُهدِي السَّلَامَ إِلَيَّ غَبَاً ولو في بعضِ أنفاسِ الرِّيحِ⁽⁴⁾
[الوافر]

ولم تردّ عليه بجواب :

وفي الجواب متاع إن شفعت به بيض الأيادي التي ما زلت تولينا⁽⁵⁾

(1) ديوان ابن زيدون : 49 .

(2) ديوان ابن زيدون : 35 .

(3) ديوان ابن زيدون : 13 .

(4) ديوان ابن زيدون : 49 .

(5) ديوان ابن زيدون : 13 .

[البسيط]

ولم يجالس الشاعر القوم الذين أحبهم ، فقد ضيّعوا العهد الذي بقى محافظاً عليه :
يا هل أجالسُ أقواماً أحبهمُ ؟ كنا وكاتوا على عهدٍ فقد ظعنوا
أو تحفظون عهداً لا أضيّعها إن الكرام بحفظِ العهدِ تمتحن⁽¹⁾
[البسيط]

ورأى ابن زيدون أن يخاطب غريمه في حبّ ولادة الوزير ابن عبدوس ؛ فأرسل
إليه قصيدة يتهدده ويتوعده إن هو استمرّ في حبّ ولادة ، افتتحها بقوله :
أثرت هزبر الشرى إذ ربّض ونبهته إذ هذا فاغتمض
حذار حذار فإن الكريم إذا سيم خسفاً أبى فامتعض⁽²⁾
[المتقارب]

ولكننا نلمس في هذه القصيدة أثراً للاستعطاف ، فقد ناشد ابن زيدون المودة القديمة
التي كانت بينه وبين ابن عبدوس ، واستحلفه أن يشفق عليه ويرحمه ، ويكفّ عن حبّ
ولادة ، إذ يقول :

أبا عامر أين ذاك الوفاء إذا	الدهرُ وسان والعيشُ غصُ
وأين الذي كنت تعدُّ من	مصادقتي الواجب المفترض ؟
ألم تنش من أدبي نفحة	حسبت بها المسك طيباً يفض ؟
وشمرت للخوض في لجة	هي البحرُ ساحلها لم يخض
وغرّك من عهد ولادة	سراب تراءى وبرق ومض
هي الماء يأبى على قابض	ويمنع زبدته من مخض
أبا عامر عثرة فاستقل	لتبرم من ودنا ما انتقض
وإلا انتحتك جيوش العتا	ب مناجرة من قضيب وقض ⁽³⁾

[المتقارب]

لقد استهلّ ابن زيدون هذه القصيدة بالتهديد والوعيد ، ثم لجأ إلى الاستعطاف ، حيث
كان الشاعر يسعى إلى إبعاد غريمه (ابن عبدوس) عن محبوبته بأي وسيلة كانت ؛ فإن لم

(1) ديوان ابن زيدون ورسائله : 162 .

(2) ديوان ابن زيدون : 90 .

(3) ديوان ابن زيدون : 90 - 93 .

يستطع إخافة ابن عبدوس فليثير شفقتة وعطفه ، وليذكره بسالف العلاقة بينهما ، ولكن الوزير ابن عبدوس أصمّ أذنيه عن تهديد ابن زيدون واستعطافه ، فلم (يستقل من عثرته) ، ولم يأبه بـ (جيوش العتاب) .

وهكذا أخفق ابن زيدون في استدرار عطف غريمه ، كما أخفق في استمالة قلب محبوبته التي أصرت على هجره وإيقائه بعيداً عنها ، غارقاً في بحار أشجانه وأحزانه .
2. ابن حداد⁽¹⁾

تعلّق قلب ابن حداد في صباه (بصبية نصرانية ذهبت بلبّه كلّ مذهب ، وركب إليها أصعب مركب ، وحكّمها في رأيه وهواه)⁽²⁾ . ولما كان عدم التصريح بأسماء المعشوقات في شعر الغزل ظاهرة منتشرة⁽³⁾ ، فقد كنى ابن حداد عن محبوبته حيث (كان يسميها نويرة كما فعله الشعراء الظرفاء قديماً في الكناية عمّن أحبوه ، وتغيير اسم من علقوه)⁽⁴⁾ ، وكثيراً ما صرّح في شعره أنّ محبوبته نصرانية على الرغم من أنّه مسلم ، وكان الأحرى بمحبوبته أن تقع سبيّة في يده في وقت الحرب ، لكنّ الذي حصل كان مختلفاً تماماً ، فقد سبته هي في أوقات السلم حين تعلّق بها قلبه :

سبتني على عهد من السلم بيننا ولو أنّها حرب لكانت هي السبيا⁽⁵⁾

[الطويل]

وقد جعل ابن حداد قسماً كبيراً من شعره في التغزل بمحبوبته واستعطافها ، حيث يبدو لنا من شعره أنّها كانت بعيدة عنه ساخطة عليه ، أمّا الشاعر فكان يبكي حزناً على عدم وصالها ، كما كان يلتمس منها الرضى والوصال ؛ لأنّ قلبه أضحى مرهوناً بيديها :

إنّ المدامع والزفير قد أعلننا ما في الضمير

فعلام أخفي ظاهراً سقمي عليّ به ظهير؟

(1) ابن حداد سبقت ترجمته صفحة 78 .

(2) الذخيرة لابن بسام ، قسم 1 ، مجلد 2 : 693 .

(3) نذكر هنا بيت ابن زيدون في نونيته : لسنا نسيمك إجلالاً وتكرمةً وقدرك المعلى عن ذلك يغنيها . ينظر ديوانه : 12 .

(4) الذخيرة لابن بسام ، قسم 1 ، مجلد 2 : 693 .

(5) ديوان ابن حداد : 306 .

هب لي الرضى من ساخطٍ قلبي بساحته الأسير⁽¹⁾

[مجزوء الكامل]

لقد تمكّن العشق من الشاعر ؛ فأصبح دائم البكاء ، يكاد يُجنُّ من شدة شوقه إلى محبوبته ، كما أمسى عاجزاً عن كتمان حبه لها ، فقد حان الوقت ليذهب الشك باليقين ، ويعلم الناس أن نويرة لا سواها هي محبوبة قلبه ، وساكنة فؤاده :

رويدك أيها الدمع الهتون فدون عيان من أهوى عيون
يظنُّ بظاهري حلمٌ وفهمٌ ودخلةً باطني فيه جنون
إلا كم ذا أسترُّ ما ألقى وما أخفيه من شوقي يبين
نويرة بي نويرة لا سواها ولا شكٌ فقد وضح اليقين⁽²⁾

[الوافر]

وكون محبوبة الشاعر نصرانية ، فقد حفل شعره بذكر ما له علاقة بالنصارى ؛ كالكنائس والصلبان والرهبان والنسك ، فها هو يخاطب محبوبته قائلاً لها : بحق عيسى - عليه السلام - أرحي قلبي مما يقاسيه من شدة الشوق وحرارة الوجد ، لقد وهبك حسنك الحكم عليّ ، فأنت من يحييني ، وأنت من يميتني ، هذا الحسن أولعني بالصليب وبعبدته من رهبان ونسك ، وجعلني أتردد على الكنائس لا حباً بها ، وإنما شوقاً إليك ، ورغبة في رؤيتك :

عساك بحق عيساك مريحة قلبي الشاكي
فإنَّ الحُسنَ قد ولأ ك إحيائي وإهلاكي
وأولعني بصلبان ورهبان ونسك
ولم آت الكنائس عن هوى فيهن لولاك⁽³⁾

[مجزوء الوافر]

ويتأوه الشاعر من حبه غير الموفق ، هذا الحب الذي لا يستطيع الانفكاك منه ، ولا نسيانه ؛ لأنه وقع في شرك محبوبته ؛ فأمسى واقعاً في بلوى لا فرج لها ، وأخذ يبكي ويبكي عساها ترثي لحاله ، وتخلصه من عناء البعد وألم الفراق :

(1) ديوان ابن حداد : 222 .

(2) ديوان ابن حداد : 264 .

(3) ديوان ابن حداد : 241 .

وها أنا منك في بلوى ولا فرج لبـواك
 ولا أَسْطِيعُ سلواناً فقد أوثقتِ أشراكي
 فكم أبكي عليك دماً ولا ترثين للباكي⁽¹⁾
 [مجزوء الوافر]

ويتساءل الشاعر : هل دريت يا نويرة ماذا فعلت عيناك بعيني ؟ ، وهل تعلمين ما فعل حُسنك في قلبي ؟ إن عيني المحبوبة سيف مسلط على الشاعر يريد قتله ، أما حسنهما فقد أذكى النار في قلبه ، وعلى الرغم من ذلك فالشاعر عاشق وسيبقى عاشقاً حتى النهاية ، سواء أعطفت عليه محبوبته فمنحته الحب الذي ينشد ، أم بقيت كارهة له ، بعيدة عنه ، لقد وقع الشاعر المحب ضحيةً لمحبوبته ، واستطاعت عيناها أن تقتله كما قتلت قبله الكثير :

فهل تدرين ما تقضي على عيني عيناك ؟
 وما يذكيه من نارٍ بقلبي نورك الذّاكي؟
 نويرة إن قلّيت فإ نني أهواك أهواك
 وعيناك المنبئتا لك أني بعض قتلاك⁽²⁾
 [مجزوء الوافر]

لقد خاطب ابن حداد محبوبته ورجاها أن تصله ، وبكى وتأوه عساها ترثي لحاله وتعطف عليه ، ولكنها لم تفعل ؛ إذ لا نجد في شعره ما يدل على أنها وصلتة ، بل أصرت على إبقائه بعيداً عنها يكتوي بنيران الحب والغرام .

3. شاعران آخران :

هذان الشاعران دون سابقيهما شهرة وأخباراً وإنتاجاً شعرياً ، الأول هو مشرف ابن راشد⁽³⁾ ، وأما الآخر فهو علي بن أبي البشر⁽⁴⁾ ، ويكاد هذان الشاعران يتشابهان في معاناتهما ، فقد كان كل واحد منهما يحيا في غبطة وطيب عيش قريباً من حبيبه ، يتبادلان

(1) ديوان ابن حداد : 241 .

(2) ديوان ابن حداد : 242 .

(3) أبو الفضل مشرف بن راشد ؛ لم أجد لهذا الشاعر ترجمة ، لكن يتضح من الخريدة أنه توفي في القرن السادس الهجري . ينظر خريدة القصر وجريدة العصر : العماد الأصفهاني ، تحقيق عمر السوقي ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، (د.ت) ، قسم 4 ، ج 1 : 15 .

(4) ابن أبي البشر : هو أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن أبي البشر ، من شعراء صقلية . ينظر رايات المبرزين لابن سعيد الأندلسي : 150 .

المودة ، ويتساقبان الغرام حتى سخط على كل شاعر حبيبه ؛ فهجره وابتعد عنه ، فكان هذا الهجر سبباً في معاناة ابن راشد الذي يقول :

كُنْتُ فِي غَبْطَةِ وَطِيبِ عَيْشٍ لَوْ وَقَاتِي مِنْ سَطْوَةِ الْبَيْنِ وَاقٍ⁽¹⁾

[الخفيف]

أما ابن أبي البشر فيقول أن بُعد حبيبه حصل بعد قربه ، وقطيعته أعقبت وصاله :

جفا بعدما كان لي واصلاً وخلف عندي ما خلفاً⁽²⁾

[المتقارب]

لقد أخذ الشاعران يستعطفان حبيبيهما عساهما يعطفان عليهما ويخلصانهما من عناء البُعد وألم الفراق ، فهذا ابن راشد يحث حبيبه على وصاله ، وعلى وضع حدٍّ للقطيعة التي أرقت الشاعر ومنعته النوم الهنيء ، إن هذا الحبيب يجور في حكمه عندما يقابل حب الشاعر له ببغض ، ورضاه عليه بسخط ، وفي ذلك يقول :

أيها الغصنُ لن يعطفك عطفاً وليكن منك للقطيعة رفضُ
وأجز ودي بمثله ودع السَّ خط ، وعد للرضى فللختم فضُ
يا شقيق الفؤادِ حكمك جورُ لك مني حبٌّ ولي منك بغضُ
نم هنيئاً فما دنا من شجوني -مذ تناءيت عن جفوني- غمض⁽³⁾

[الخفيف]

أما ابن أبي البشر فقد رجا حبيبه أن يعطف عليه ، ويخلصه من عناء فراقه ، ونرى الشاعر خلال استعطافه يسلك مسلك الشعراء العاشقين بذرف الدموع الغزيرة ، والاكثواء بنار الغرام المحرقة ، وفي ذلك يقول :

أما تعطفن على خاضع لديك يناجيك مستعطفاً
إذا كتبت يدهُ أحرفاً إليك ما دمغهُ أحرفاً
ولو كنت أملكُ غرب الدموع منعتُ جفوني أن تذرفاً

(1) خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني ، تحقيق عمر الدسوقي ، قسم 4 ، ج 1 : 15 .

(2) خريدة القصر وجريدة العصر : العماد الأصفهاني ، تحقيق محمد المرزوقي ، دار التونسية للنشر ، 1966م ،

ج 1 : 10 .

(3) خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني ، تحقيق عمر الدسوقي ، قسم 4 ، ج 1 : 15 .

غراماً بإشعالِ نارِ الغرامِ وما عُدُّ صبّاً بكى واشتفى⁽¹⁾

[المتقارب]

لقد خاطب هذان الشاعران حبيبيهما ، والتمسا منهما الرحمة والوصال ، وبسبب ندرة أخبار هذين الشاعرين فلسنا ندري هل أثمرت أشعارهما ؛ فعاد كل شاعرٍ إلى وصال حبيبه ، أم ظلّ الشاعران بعدين عن حبيبيهما يصطليان بنار الشوق ، وحرارة الوجد .

نظرات في الأشعار الاستعطافية الموجهة إلى المحبوبة

عندما نلقي نظرة على الأشعار التي استعطف بها الشعراء محبوباتهم نلاحظ أموراً

ثلاثة :

الأول : أن هؤلاء الشعراء عندما خاطبوا محبوباتهم خضعوا وتذللوا لهن ، وأهدروا كرامتهم ، وتخلوا عن عزّة نفوسهم ، فهذا ابن زيدون يقدّم حياته رخيصة لمحبوبته ؛ فقد أمسى عبداً ذليلاً لها بعدما تعلّق قلبه بها :

سلّني حياتي أهبها فلست أملكُ ردك
الدهرُ عبدي لِمَا أصبحتُ في الحبِّ عبدك⁽²⁾

[مجزوء الكامل]

لقد رأينا كيف استعطف ابن زيدون الحاكم ، وكيف كان محافظاً على كرامته ، معتدّاً بنفسه في بدايات استعطافه ، أمّا عندما استعطف محبوبته فقد اختلف أمره ؛ فقد خضع لها من البداية ، وامتأّت قصائده المرسلّة إليها بكثير من عبارات الخضوع والتذلل .

وهذا ابن حداد الذي يود أن يُعلم محبوبته أن الناس يخطئون عندما يظنونها ذا حلم

وفهم ؛ لأنه ليس كذلك ، وإنّما هو مجنون بحبها ، ظاهره يخالف باطنه :

يظنُّ بظاهري حلمَ وفهمٍ ودخلتُ باطني فيه جنون⁽³⁾

[الوافر]

أمّا ابن أبي البشر فقد خاطب محبوبته مخاطبة الخاضع الذليل عساها تعطف عليه ،

وتعود إليه :

(1) خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني ، تحقيق محمد المرزوقي ، ج 1 : 10 .

(2) ديوان ابن زيدون : 55 .

(3) ديوان ابن حداد : 264 .

أما تعطفن على خاضعٍ لديك يناجيك مستعطفاً⁽¹⁾

[المتقارب]

والثاني : فهو أنَّ جلَّ الشعراء الذين استعطفوا محبوباتهم - إن لم نقل كلَّهم - أخفقوا في تحقيق هدفهم ، فلم تُغنِ عنهم أشعارهم شيئاً ؛ فابن زيدون خاطب محبوبته الشاعرة بالقصائد العديدة التي فجر فيها عواطفه ، ولكن دون جدوى ، وابن حداد لا نجد في شعره ما يدل على أن محبوبته قد وصلت له ، وحققت له هدفه الذي كان ينشد ، أما الشاعران الآخران فندرت أخبارهما تمنعنا من معرفة المصير الذي آلا إليه .

أما الثالث : فهو أنَّ الشعراء الذين استعطفوا الحكام التمسوا منهم العطف والصفح ، فقد كان أولئك الشعراء مسجونين ، أو مبعدين ، أو مهددين بعقوبة أشد ، أما الشعراء الذين استعطفوا محبوباتهم فلم يكونوا كذلك ، وإنما كانوا يكتون بنيران الحب والغرام ؛ لذا كان استعطافهم بطريقة أخرى ، فقد حاول هؤلاء الشعراء إثارة عطف محبوباتهم واستمالة قلوبهنَّ بأساليب شتى ؛ فتارة تغزلوا بهنَّ وعبروا عن حبهم الشديد لهنَّ حتى تقابلهم محبوباتهم بحب مماثل ، وتارة أخرى وصفوا سوء حالهم وضنك عيشتهم وبكاءهم المتواصل وحسرتهم الدائمة ، وتارة ثالثة وازنوا بين أيام الوصال حيث السعادة والنعيم ، وأيام القطيعة حيث التعاسة والشقاء ، كل ذلك من أجل استمالة قلوب محبوباتهم واستدرار عطفهنَّ .

(1) خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني ، تحقيق محمد المرزوقي ، ج 1 : 10 .

ثالثاً : استعطاف الوالد:

كان لاستعطاف الوالد الواحد على ابنه نصيب قليل من الأشعار الاستعطافية ، ولم أجد فيما قرأت شعراً يمكن وضعه تحت هذا العنوان إلا قصائد لآل عباد ، حيث استعطف المعتمد - حين كان ولياً للعهد - أباه المعتمد ، ثم لما آلت مقاليد الحكم إليه وقف بعضُ أبنائه أمامه معترين ومستعطفين ، ويجدر بنا أن نتحدّث عن استعطاف المعتمد والده في قسم ، ثم نتحدّث عن استعطاف ابني المعتمد والدهم في قسم آخر .

1. المعتمد يستعطف أباه⁽¹⁾

كان المعتمد من أقوى ملوك الطوائف ، وقد عُرف ببأسه وشدة مراسه وقساوة قلبه ، فقد قتل أعداءه ، وعلّق رؤوسهم على غصون الشجر في بسطانه⁽²⁾ ، بل أنه لم يتورّع عن قتل ابنه إسماعيل حين علم بخيانتة له ، وتأمّره عليه⁽³⁾ .

عندما كلف هذا الملك الجبار ابنه المعتمد بمحاربة أمير مالقة⁽⁴⁾ باديس بن حبوس لم يجد الابن مناصاً من الطاعة ؛ فرحل المعتمد مع أخيه جابر يقودان جيشاً عظيماً ، وتمكنا من إخضاع مالقة إلا فلولاً من العبيد لأنوا بقلعة المدينة ؛ فأشار أهل مالقة على المعتمد بالاحتراس منهم ، والبقاء على أهبة الاستعداد والحذر ، ولكن المعتمد استخف بهؤلاء العبيد ، ولم يأبه بنصيحة الناصحين ، وقضى ليلته تلك في اللهو والمجون ، بينما قضى العبيد ليلتهم يستجدون بابن باديس حتى أنجدهم بجيشٍ زاخر ، وفتك جيشه بجيش المعتمد ، وانتهب عتاده وسلاحه ، وفرّ المعتمد وأخوه مهزومين يجرّان ذبول الخزي والعار .

أقام المعتمد وأخوه في رندة⁽⁵⁾ ، وكانا في أسوأ حال ، يقضيان وقتيهما في همّ وقلق ، وبخاصة بعدما أشيع أنّ والدهما قد أهدر دمهما ، وأعدّ لمقابلتهما سيفاً بتّاراً ؛ فأخذ المعتمد

(1) المعتمد بن عباد سبقت ترجمته صفحة 50 .

(2) أشار ابن عمار إلى ذلك في قصيدة مدح بها المعتمد ، يقول:

أثمرت رمحك من رؤوس كمامتهم لما رأيت الغصن يعشق مثمراً . ينظر قلاند العقيان لابن خاقان : 975 .

(3) الذخيرة لابن بسام ، قسم 3 ، مجلد 1 : 143 - 149 .

(4) مالقة : مدينة أندلسية ساحلية ، تقع بين المرية والجزيرة الخضراء ، كانت مقصد المراكب التجارية والتجار ؛ فزادت ثروتها ، وتضاعفت عمارتها . ينظر معجم البلدان لياقوت الحموي ، مجلد 5 : 43 .

(5) رندة : معقل حصين بالأندلس ، وهي مدينة قديمة تقع على نهر جار بين إشبيلية ومالقة ، كثيرة الزروع والخيرات . ينظر معجم البلدان لياقوت الحموي ، مجلد 3 : 73 .

يفكر في كيفية الخلاص ؛ فخطر على باله أن يكتب إلى أبيه قصيدة يعتذر إليه ، عساه يقبل
عذره ويعطف عليه وعلى أخيه ، وفعلاً كتب المعتمد قصيدة افتتحها بدعوة أبيه إلى التصبر
وتسكين القلب ، وتتحية الهم والقلق جانباً ؛ لأن القدر لا يرد ، وكأنه بذلك يلفت نظر أبيه
إلى أن الهزيمة التي لحقت به كانت قدراً واقعاً لا مرد له ، والقدر قد يأتي بما يسر ، وقد
يأتي بما يسيء ، وأنه إن كان قد مني بخيبة واحدة ، ولحقت به هزيمة ، فلطالما وافقه
الصواب وحالفه النصر والظفر ، يقول :

سكن فؤادك لا تذهب بك الفكرُ
وازجر جفونك لا ترضى البكاء لها
فإن يكن قدر قد عاق من وطير
وإن تكن خيبة في الدهر واحدة

ماذا يعيدُ عليك الهم والحذرُ
واصبر فقد كنت عند الخطب تصطبرُ
فلا مرد لما يأتي به القدرُ
فكم غزوت ومن أشياك الظفر⁽¹⁾

[البسيط]

وينقل المعتمد لمدح والده ؛ فيصوره مقاتلاً شجاعاً يقاتل الأعداء كالليث الباسل ،
وكان المعتمد يقاتل مع ذلك الليث وكأنه مخلب له أو ناب ، قوته قوة لذيذ ، وضعفه
ضعف له ، لقد أحرزت جيوش المعتضد تحت قيادته انتصارات مؤزرة ، انتشرت أخبارها
في الآفاق ، وسوف تبقى أخبار تلك الانتصارات خالدة لا تفنى مع مرور الأيام ، وتعاقب
الليالي ، يقول :

يا ضيفاً⁽²⁾ يقتل الأقران مفترساً
كم وقعة لك في الأعداء واضحة
سارت بها العيس في الآفاق فانتشرت

لا توهني ، فبتي الناب والظفرُ
تفنى الليالي ولا تفنى بها الخبرُ
فليس في كل حي غيرها سمر⁽³⁾

[البسيط]

لقد كانت تلك الهزيمة التي لحقت بالمعتمد مصيبة عظيمة أرقته ، وزاد من أرقه
وقلقه خوفه من عقاب والده ، ويحاول المعتمد أن يستثير عاطفة والده عندما يصف سوء

(1) الحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 56 . والبيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب : ابن عذارى المراكشي ،

تحقيق ج - س - كولان وليفي بروفنسال ، دار الثقافة - بيروت ، ط 2 ، 1983م ، ج 3 : 275 .

(2) الضيغم : الأسد الواسع الشدق . ينظر المخصص لابن سيده ، سفر 8 ، مجلد 2 : 62 .

(3) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 48 . والحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 57 .

حاله وضنك عيشه بعدما حلت به تلك المصيبة ، ثم يدعو والده إلى العفو عنه حتى يعتق من سوء الحال وصعوبة المأل ، يقول :

لقد أخلفتني ظنون أنت تعلمها وغال مورد أمالي بها كدر
فالنفس جازعة والعين دامعة والصوت منخفض والطرف منكسر
قد حلت لونا وما بالجسم من سقم وشبت رأساً ولم يبلغني الكبر
ومت إلا ذمءاً في يمسكه إني عهدتك تعفو حين تقدر⁽¹⁾
[البسيط]

ويعتذر المعتمد عن الذنب الذي ارتكبه والذي لم يكن إساءة مقصودة ؛ لذا فهو لا يستحق عقاباً على ذنبه هذا ؛ لأن الذين يستحقون العقاب هم أعداء والده الذين يكونون له البغض والحقد ، ولا يتورعون عن غشه وخديعته :

لم يأت عبدك ذنباً يستحق به عتبي ، وها هو قد ناداك يعتذر
ما الذنب إلا على قوم ذوي دغل⁽²⁾ وفي لهم عدلك المألوف إذ غدروا
قوم نصيحتهم غش ، وحبهم بغض ، ونفعهم إن صدقوا ضرر
يميز البغض في الألفاظ إن نطقوا ويعرف الحقد في الألفاظ إن نظروا⁽³⁾
[البسيط]

ويختم المعتمد قصيدته بالتماس الرضى من والده ، والشاعر إن نال هذا الرضى فسوف يطيب عيشه ، وينسى همومه وأحزانه ، ويتخلص من أرقه وقلقه ، أما إن أخفق في إرضاء والده فسوف تبقى حياته مسودة في وجهه ، وسيكون موته أحب إليه من حياته ، وفي ذلك يقول :

أجبت نداء أخي قلب تملكه أسى ، وذي مقلة أوهى بها سهر
رضائك راحة نفسي لا فجعته به فهو العتاد الذي للدهر أدخر
وهو المدام الذي أسلو بها فإذا عدمتها عيشت في قلبي الفكر

(1) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 48 . والحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 57 . والبيان المغرب لابن عذاري ، ج 3 : 275 .

(2) دغل : عيب وفساد . ينظر المعجم الوسيط ، ج 1 : 288 .

(3) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 48 . والحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 57 .

وإنما أنا ساعٍ في رضاك فإن أخفقت فيه ، فلا يفسح لي العمر⁽¹⁾

[البسيط]

وعندما انتهى المعتمد من كتابة قصيدته أرسل بها إلى والده ، وبقي أياماً خائفاً يترقب (فلماً بلغت الأبيات والده عفا عنهما ، واستدعاهما إلى حضرته ، وأيس من ملك مالقة)⁽²⁾ ، وحين علم المعتمد وأخوه جابر بعفو أبيهما عنهما طارا فرحاً وأخذا يستقبلان الحياة من جديد .

2. ابنا المعتمد يستعطفان والدهما :

كان الراضي بن المعتمد من أهل العلم والأدب ، كلفاً بالمطالعة والدراسة ، منشغلاً بتحصيل العلوم ، غير أنه بالتربية العسكرية التي كان ينبغي أن ينشأ عليها الأمراء ؛ فغضب منه والده ، وكتب إليه هازئاً :

المُلكُ في طيِّ الذفاتر	فتخلُّ عن قودِ العساكر
طُفَّ بالسرييرِ مسلماً	وارجع لتوديعِ المنابر
واطعنْ بأطرافِ اليراء	عِ نُصيرتَ في ثغرِ المحابر
واضربْ بسكينِ الدوا	ة مكانَ ماضي الحدِّ باتر
أو لستَ أرسطاليس ⁽³⁾ إن	ذُكرَ الفلاسفةَ الأكابر
وكذاك إن ذُكرَ الخليل ⁽⁴⁾	فأنتَ نحويٌّ وشاعر

(1) الحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 58 .

(2) البيان المُعرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذارى ، ج 3 : 275 .

(3) أرسطوطاليس : فيلسوف يوناني شهير ، ولد عام 384 ق . م ، تتلمذ على أفلاطون ، وعلم الاسكندر الأكبر ، وكان له أثر كبير في الفلاسفة الإسلاميين الذين لقبوه بـ (المعلم الأول) ، توفي عام 322 ق . م . ينظر الموسوعة العربية الميسرة ، مجلد 1 : 117 .

(4) الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي ، ولد بالبصرة عام 100 هـ ، وكان إماماً في علم النحو ، ومن أئمة اللغة والأدب ، وهو واضع علم العروض ، مصنف كتاب العين ، وتوفي عام 170 هـ . ينظر وفيات الأعيان لابن خلكان ، ج 2 : 244 - 248 .

وأبو حنيفة⁽¹⁾ أساقط
 هذي المكارم قد حويب
 في الرأي حين تكون حاضر
 ت فكن لمن حابك شاكر
 كاس وقل : هل من مفاخر⁽²⁾
 واقصد فإتك طاعم

[مجزوء الكامل]

وعندما بلغت هذه القصيدة الراضي أدرك خطأه حين جعل تحصيله للعلوم يتم على حساب الاهتمام بأمور الدولة ، وقيادة جيوشها ، وعزّ عليه إغضاب والده ؛ فكتب إليه قصيدة يتصل فيها من كثير ممّا رماه به أبوه ، وممّا جاء في هذه القصيدة قوله :

مولاي قد أصبحت كافر
 وفلنت سكين الدوا
 بجميع ما تحوي الدفاتر
 وظللت للأقلام كاسر
 بين الأسنان والبواتر
 ضرب العساكر بالعساكر
 والمجدو والعلياء في
 لا ضرب أقوال باقـ
 والضعيفات مناكر
 قد كنت أحسب من سفا
 فإذا بها فرغ لها
 لا يدرك الشرف الفتى
 إلا بعسال وباتر⁽³⁾

[مجزوء الكامل]

ولا ينسى الراضي أن يُذكر أباه بماضيه عندما قاتل الأعداء ببسالة وانتصر عليهم ، ومنعهم من الاستيلاء على أجزاء من مملكة أبيه ، وفي ذلك يقول :

لا تنس يا مولاي قو
 لضبط الجزيرة عندما
 لة ضارع لا قول فاخر
 نزلت بعقوتها العساكر
 أيام ظلت بها فريـ

(1) أبو حنيفة النعمان : النعمان بن ثابت الكوفي التميمي بالولاء ، ولد عام 80هـ بالكوفة ، إمام الحنيفة ، وأحد الأئمة الأربعة ، كان عالماً عاملاً زاهداً عابداً ، أراد المنصور أن يوليه القضاء فأبى ؛ فحبسه ، وقيل توفي في الحبس عام 150هـ . ينظر تاريخ بغداد للحافظ بن علي الخطيب البغدادي ، المكتبة السلفية - المدينة المنورة ، (د.ت) ، ج 13 : 323 - 454 . ووفيات الأعيان لابن خلكان ، ج 5 : 405 - 415 .

(2) الحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 75 .

(3) نفح الطيب للمقري ، ج 4 : 254 .

إذ كان يعشي ناظري لمع الأسنان والبواتر
ويصم أسماعي بها قرع الحجارة بالحوافر⁽¹⁾

[مجزوء الكامل]

ويختم الراضي قصيدته ملتصقاً الرضى من أبيه ، داعياً إياه إلى وضع حدٍّ للومه
وعتابه حين يقول :

هبني أسأت - كما أسأ ت - أما لهذا العتب آخر
هب زلتني لبنوآسي واغفر فإن الله غافر⁽²⁾

[مجزوء الكامل]

كان الراضي شاعر بني عبّاد بعد أبيه (وجلّ شعره في استعطاف أبيه المعتمد
لطول موجدته عليه ، والاعتذار في كل حين إليه)⁽³⁾ ، كتب له يوماً يخاطبه (وقد أنهض
جماعة من أخوته دونه ، وبعث بها مع بعض بنيه)⁽⁴⁾ :

أعيذك إن يكون بنا خمول ويطلع غيرنا ، ولنا أقول
حناتك ، إن يكن جرّمي قبيحاً فإن الصفح عن جرّمي جميل
وإن عثرت بنا قدّم سفاها فبأي من عثاري مستقيلاً
وأحسن ما سمعت به عزيز يناديه فيرحمه ذليلاً
وأنت الملك تعفو عن كثير فما لك ظلت يغضبك القليل؟⁽⁵⁾

[الوافر]

ويذكر الراضي ابنه الصغير الذي حمل رسالته ، كما يتوسل بأبنائه لينال رضى
والده ، ويستدرّ عطفه ، إذ يقول :

بعثت برقعتي هذي رسولاً صغير السن ليس له حويل
لترحمه وأفراحاً إذا ما عتبت عليّ عاداً لهم عويل

(1) نفع الطيب للمقري ، ج 4 : 254 .

(2) نفع الطيب للمقري ، ج 4 : 254 .

(3) الحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 73 .

(4) الحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 71 .

(5) الحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 72 .

بقيت لهم على عتبٍ وعتبي فإن حياتك الظلُّ الظليلُ⁽¹⁾

[الوافر]

أما الرشيد بن المعتمد فقد (عتب عليه أبوه في طريقه من مكناسة⁽²⁾ إلى أغمات عتباً أفرط فيه ؛ فكتب إليه يستعطفه)⁽³⁾ :

يا حليفَ الندى وربَّ السّماحِ
مِنَ تمامِ النّعمى عليّ التّماحي
قد غنينا ببشره وسناه
ذاك حظي من الزّمان فإن جا
وحبيبَ النفوسِ والأرواحِ
لمحةً من جبينك الوضّاحِ
عن ضياءِ الصّباحِ والمصباحِ
دَ به لي بلغت كلَّ اقتراحي⁽⁴⁾

[الخفيف]

ولما وصلت الأبيات إلى أبيه ، وكان في أغمات أسيراً ردّ عليه بأبيات يتحسّر فيها على ماضيه عندما كان في ذرى مجده وحنفوان عزّه ، يقول فيها :

كنتُ حلفَ الندى وربَّ السّماحِ
إذ يميني للبدلِ يومَ العطايا
وشمالي لقبضِ كلِّ عنانِ
وأنا اليومَ رهنُ أسرٍ وفقـرٍ
لا أجيبُ الصّريخَ إن حضرَ البا
عادَ بشري الذي عهدتَ عبوساً
فالتّماحي إلى العيونِ كريّة

وحبيبَ النفوسِ والأرواحِ
ولقبضِ الأرواحِ يومَ الكفاحِ
يُقجمُ الخيلَ في مجالِ الرّماحِ
مستباحِ الحمى مهيضَ الجناحِ
سُ ولا المعتفينَ يومَ السّماحِ
شغلّنتي الأشجانُ عن أفرّاحي
ولقد كانَ نزهةً للّماحِ⁽⁵⁾

[الخفيف]

لقد ردّ المعتمد على ابنه ردّاً نستشفّ منه أنّ النكبة التي تعرّض لها كانت سبباً في تضييق خلقه ؛ فجعلته يعتب على ابنه دون أن يرتكب ذنباً ذا بال ، وعلى الرغم من ذلك فقد

(1) الحلة السبراء لابن الأبار ، ج 2 : 72 .

(2) مكناسة : مدينة بالمغرب ، وهي مدينتان صغيرتان على مرتفع ، بنى إحداهما يوسف بن تاشفين ، والأخرى قديمة تكثر فيها أشجار الزيتون . ينظر معجم البلدان لياقوت الحموي ، ج 5 : 181 .

(3) الحلة السبراء لابن الأبار ، ج 2 : 69 .

(4) الحلة السبراء لابن الأبار ، ج 2 : 70 .

(5) الحلة السبراء لابن الأبار ، ج 2 : 70 .

استسمحه الرشيد كما فعل أخوه الراضي من قبل أكثر من مرة ، وكان والدهما قد سبقهما عندما استعطف أباه المعتضد .

نظرات في الأشعار الاستعطافية الموجهة إلى الوالد

نستطيع القول : إن هذه الأشعار هي أكثر الأشعار الاستعطافية توفيقاً ؛ فعاطفة الأبوة تفرض على الأب أن يتجاوز عن سيئات ابنه إن بدر عن الابن أيّ اعتذار أو استعطاف ؛ فالمعتضد عفا عن ابنه المعتمد وجابر بفضل القصيدة التي أرسلها إليه المعتمد ، وكما مرّ بنا فقد كان المعتضد قاسي القلب شديد البأس ، حيث قتل ابنه إسماعيل حين علم بخيانتة له وتأمّره عليه ، ولم أعتز على اعتذار أو استعطاف لهذا الابن قبل مقتله ، أمّا المعتمد فيبدو أنّه قد عامل ابنه كما عامله أبوه من قبل ، فردّه على الرشيد يدلّ على أنّ قلبه كان يخلو من أيّ غضب عليه ، أمّا ابنه الراضي فأغلب الظنّ أنّه كان يقبل عذره ويعطف عليه في كلّ مرّة يستعطفه فيها ، ذلك أنّه لم يرتكب أيّاً من عظام الذنوب التي تجعل العطف صعباً والعتو عسيراً .

بعد الاطلاع على الأشعار الاستعطافية المختلفة نلاحظ الأمور الآتية :

أولاً : انتهج الشعراء المستعطفون أساليب مختلفة أثناء استعطافهم ، وتتمثّل هذه الأساليب في طرائق ثلاث هي :

- أ - مخاطبة المستعطف : حيث خاطب الشاعر من يستعطفه ، والتمس منه العطف تصريحاً ، وكانت هذه الطريقة هي الأكثر شيوعاً في شعر الاستعطاف ، فقد رأينا أنّ معظم الشعراء الذين استعطفوا الحكّام قد لجأوا إلى هذه الطريقة ، أمّا الشعراء الذين استعطفوا محبوباتهم أو الأبناء الذين استعطفوا آباءهم فلم ينتهجوا طريقة غيرها أثناء استعطافهم .
- ب - مخاطبة وسيط : حيث كان الشاعر يخاطب وسيطاً علّه يتوسّط له ويتشّفّع فيه ، وكان الشاعر يلجأ إلى هذه الطريقة بعد أن يفشل في الطريقة الأولى ، ولكن نستطيع القول : إنّ هذه الطريقة قد باءت بالفشل ؛ إذ أنّنا لا نجد إلاّ شاعراً واحداً أفلح وسيطه بالتشّفّع فيه ، أمّا بقية الشعراء الذين خاطبوا الوسيط فلم يحصل أيّ منهم على العفو بفضل شفاعته وسيطه ، بل إنّنا لم نجد ما يدلّ على أنّ هذا الوسيط حاول التشفّع للشاعر الذي طلب شفاعته .

ج - التلميح : ولم يستخدم هذه الطريقة إلا المعتمد الذي أبت عليه كرامته وعزّة نفسه استعطاف ابن تاشفين تصريحاً ؛ فلجأ إلى ذلك تلميحاً ؛ فاسترحم القيد ، ووازن بين ما كلن عليه وما آل إليه ، وذكر أبنائه وبناته وشقاهم بعد سعادة ، وذّلهم بعد عزّ ، واستطاع المعتمد إثارة عاطفة كلّ من يطّلع على أشعاره إلاّ أنّه فشل في إثارة عاطفة ابن تاشفين ، ولعل جهل ابن تاشفين البربري باللّغة العربية كان سبباً في ذلك .

ثانياً : لا نجد أيّاً من الشعراء السابقين قد وقف أمام مستعطفه وأنشده أشعاره الاستعطافية، وإنما كان ينظم هذه الأشعار ويرسلها إليه ، وغالباً ما كانت تُرسل هذه الأشعار مكتوبة ، وكما نعلم فالشعر يكون أكثر تأثيراً في النفس عندما يُسمع وبخاصة من لسان الشاعر المنكوب، أمّا القصيدة المكتوبة فقد تُقرأ جميعها أو جزء منها ، أو قد لا يجد من أرسلت إليه رغبة في قراءتها ، أو وقتاً لذلك هذا إن وصلت تلك القصيدة إليه .

ثالثاً : اقترن شعر الاستعطاف - في الأعم الأغلب - بالتذلل وإهراق ماء الوجه ، ويتفاوت هذا التذلل بين شاعر وآخر ؛ فالشعراء الذين استعطفوا الحكام تخلّوا عن عزّة نفوسهم وأهدروا كرامتهم ، وإن بدا بعضهم في بدايات استعطافه متماسكاً ومعتدداً بنفسه ، إلاّ أن طول المعاناة كسرت من حدّتهم ، وجعلت عبارات التذلل والهوان تتسرّب إلى أشعاره ، ويشدّ عن ذلك المعتمد بن عبّاد الذي استعطف تلميحاً دون أن يتخلّى عن كرامته أو يهدر ماء وجهه ، وعندما لم يحقق هدفه كفّ عن الاستعطاف ، وآثر السجن وآلامه على الوقوف أمام سجّانه موقف الخاضع الذليل الذي يستجدي العطف ، ويلتمس الرحمة .

أمّا الشعراء الذين استعطفوا محبوباتهم فقد تذللوا لهنّ جميعاً ، وأفرطوا في ذلك ، على عكس الأبناء الذين استعطفوا آباءهم ، فكان استعطافهم يخلو من الإفراط في التذلل والهوان ، وكأنّهم كانوا على ثقة من عفو آباءهم عنهم علماً أنّ التذلل للوالدين لا يُنقص من قدر الابن بل أنّه من الأمور المستحبّة التي حتّ عليها الإسلام ، بقوله تعالى : { واخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة ، وقل ربّ ارحمهما كما ربياني صغيراً }⁽¹⁾.

رابعاً : نلاحظ أنّ استعطاف الوالد كان أكثر ضروب الاستعطاف توفيقاً ، أمّا أكثرها إخفاقاً فكان استعطاف المحبوبة ، إذ أنّ جميع الشعراء الذين استعطفوا محبوباتهم فشلوا في

(1) سورة الإسراء : آية 24 .

تحقيق ما كانوا يصبون إليه ، وذهبت جهودهم هباءً منثوراً ، أمّا الشعراء الذين استعطفوا الحكام فمنهم مَنْ أفلح في تحقيق مأربه ؛ فنال العفو والصفح بفضل أشعاره الاستعطافية .

الفصل الثالث

الأغراض الشرعية المرتبطة بالاستعانة

في عصر ملوك الطوائف

الفصل الثالث

الأغراض الشعرية المرتبطة بالاستعطاف في عصر ملوك الطوائف

عدّ الاستعطاف غرضاً من أغراض الشعر العربي⁽¹⁾، وكان الغرض الرئيس في القصائد والمقطوعات الشعرية الاستعطافية ، وكان الشاعر المستعطف يتناول إلى جانب الاستعطاف غرضاً شعرياً أو أكثر لتكون أغراضاً ثانوية تساعده في تحقيق هدفه المتمثل في كسب عطف مَنْ يستعطفه ، واستمالة قلبه ، ونكاد لا نجد قصيدة أو مقطوعة شعرية واحدة في عصر ملوك الطوائف اقتصرت على موضوع الاستعطاف ، إذ إنّ الشعراء المستعطفين كانوا يمزجون استعطافهم بأغراض شعرية شتى ، أهمها :

أ - المديح :

كان المديح أكثر الأغراض الشعرية ملازمة للاستعطاف ، حتى أنّ بعضاً من دارسي الأدب ألقوا الاستعطاف بالمديح⁽²⁾؛ ذلك لأنهم لاحظوا أنّ معظم الأشعار الاستعطافية - خاصة تلك الموجهة للحاكم - قد احتوت مدحاً لذلك الحاكم وثناءً عليه ، وكان الشاعر المستعطف لا يقصد المديح لذاته ، بل يتخذ وسيلة للاستعطاف ، فكانت مدائحه تفتقر لنبرة الإخلاص والصدق الوجداني ، وتجلت فيها نغمات الاستعطاف والاستشفاع ، ولم يكتفِ الشاعر المستعطف في هذا العصر بمدح من يستعطفه والإشادة به، بل تعداه إلى أقاربه ، يمدحهم ويشيد بهم ، ويثني عليهم ؛ فهذا ابن زيدون يشيد بأل جهور عامة في معرض استعطافه أبا حزم بن جهور ، ويثني على كبيرهم وصغيرهم ، فالكبار منهم نوو قرائح مجربة يغشون عظام الأمور بحكمة ورأي سديد ، أمّا صغارهم فذوو مروءة ونخوة يغيثون المستغيث بسماحة دونما تردد أو إبطاء :

يغشى التجارب كهلهم مُستغنياً بقريحة هي حسبه تجريباً
وإذا دعوت وليدهم لعظيمة لباك رقراق السّماح أديباً⁽³⁾

[الكامل]

(1) الجامع في تاريخ الأديب العربي لحنا الفاخوري : 801 .

(2) نهاية الأرب للنويري ، السفر الثالث : 258 .

(3) ديوان ابن زيدون : 132 .

وفي قصيدة أخرى يشيد بآل جهور الذين يتقدمون على غيرهم تقدّم الليالي
البيضاء المقمرة على سائر الليالي ؛ لأنهم ملوك الأرض العظام ، دونهم كلّ الملوك
الجبابرة الذين يلوون أعناقهم على الناس تكبراً واختيالاً :

لولا بنو جهور ما أشرقت هممي كمثل بيض الليالي دونها الدرغ
هم الملوك ملوك الأرض دونهم غيد السوالف في أجيادها تلغ
قوم متى تحتفل في وصف سوددهم لا يأخذ الوصف إلا بعض ما يدع⁽¹⁾

[البسيط]

أمّا ابن عمار الذي خاطب أبناء المعتمد مستشفعاً بهم ، مستعطفاً إياهم ، فقد أشاد
بأبيهم المعتمد ، ومدحه بأجل الصفات وأعظمها ، فالمعتمد - كما وصفه الشاعر - ملك
عظيم يتعالى على غيره من ملوك الأرض ، بل أن أولئك الملوك الجبابرة لا يستطيعون
المثول بين يديه ، إلا بعدما يضعون جباههم له ، ويرفعون أيديهم إليه :

فأبوك من تغشى الملوك بساطه شوساً فما يرمونه بعيون
ما يعرض الجبار منه حاجة إلا برفع يد و وضع جبين⁽²⁾

[الكامل]

ويمدح ابن عمار آل عبّاد عامة ، ويخصّ بمدحه الرشيد بن المعتمد ، فبنو
عبّاد سادة كرام أباة ، أمّا الرشيد فهو متقدّم متقدّم ليلة القدر على الليالي الأخر ،
متفوق عليهم تفوق يوم العيد على سائر الأيام :

أنت ريحانة الغلا لبني عبّا د السادة الكرام الصيد
أنت فيهم إن يُعتموا ليلة القدر وإذ يصبحون يوم العيد⁽³⁾

[الخفيف]

ونجد المعتمد يستعطف والده المعتضد حتى يستأصل غضبه عليه بعدما هُزم في
إحدى معاركه هزيمة نكراء ، ونراه يسبق استعطافه بمدح لوالده ، وإشادة بقومه عامة ،
وبأبيه عبّاد خاصة ، فقد كان عبّاد ذا مجد ورفعة ، ، كريماً جواداً يهب الأعطيات
الجزيلة ويحتقرها ، وكان يجمع إلى جانب كرمه شجاعة تجعل عظام الملوك يقبلون
يده احتراماً له وتعظيماً :

من مثل قومك ؟ من مثل الهمام أبي عمرو - أبيك - له مجد ومفتخر

(1) ديوان ابن زيدون : 171 - 172 .

(2) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 425 .

(3) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 427 . وفي البيتين خلل عروضي لكنهما وردا هكذا في المصدر .

سَمِيعٌ يَهْبُ الْآلَافُ مُبْتَدِئاً وَيَسْتَقِيلُ عَطَايَاهُ وَيَحْتَقِرُّ
 لَهُ يَدٌ كُلُّ جَبَّارٍ يَقْبَلُهَا لَوْلَا نَدَاهُ لَقَلْنَا إِنِّهَا الْخَجَرُ⁽¹⁾
 [البسيط]

والشعراء المستعطفون عندما مدحوا من يستعطفون تناولوا معساني لم تكن مبتكرة، فقد سبقهم إليها شعراء سابقون ، فقد أعرب بعض الشعراء عن حبهم لمستعطفهم أو لمن طلبوا شفاعتهم ؛ فهذا ابن عمار يعتبر المحبة التي يكنّها للمعتمد والتي ستبقى في قلبه حتى مماته تميمة ستبعد عنه الموت :

وَبَيْنَ ضُلُوعِي فِي هَوَاهُ تَمِيمَةٌ سَتَنْفَعُ لَوْ أَنَّ الْحِمَامَ يُجَلِّحُ
 وَيُهْنِيهِ إِنْ مِتُّ السَّلْوُ فَبِئْسَى أَمُوتُ وَبِي شَوْقٌ إِلَيْهِ مُبْرِحٌ⁽²⁾
 [الطويل]

أما ابن زيدون فلم يعبر عن حبه لسجانه أبي الحزم بن جهور أثناء مدحه إياه ، لكنه تحدّث عن المودة التي يكنّها لصديقه وشفيعه أبي حفص بن برد ، لقد كانت تلك المودة ثابتة راسخة في قلب الشاعر ، فلا أحد يستطيع الانتقاص منها أو التشكيك فيها :

وَوِدَادِي لَكَ نَصٌّ لَمْ يَخَالَفُهُ قِيَاسٌ⁽³⁾
 [مجزوء الرمل]

ويذكر الشعراء من يستعطفونهم بالماضي حين كانت علاقاتهما طيبة لا تشوبها شائبة ، ويذكرونهم بسالف الخدمات التي قدموها إليهم ، فهذا ابن زيدون يشير إلى قصائده المتتالية التي نظمها في مدح أبي الحزم بن جهور :

أَنْقَضَ فِيكَ الْمَدْحَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ فَلَا أَقْتَدِي إِلَّا بِنَاقِضَةِ الْغَزْلِ⁽⁴⁾
 [الطويل]

والأمر ذاته نجده عند ابن عمار الذي يذكر المعتمد بالخدمات الجليلة التي قدّمها له ولدولته ، تلك الخدمات التي ينبغي أن تجعل المعتمد يستصغر ذنب الشاعر أمامها :

وَلِمَ لَا ؟ وَقَدْ أَسْلَفْتُ وُدًّا وَخِدْمَةً يَكْرَانِ فِي لَيْلِ الْخَطَايَا فَيُصْنِحُ؟⁽⁵⁾
 [الطويل]

(1) قلائد العقيان : لابن خاقان : 98 . والحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 154 .

(2) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 421 .

(3) ديوان ابن زيدون : 82 .

(4) ديوان ابن زيدون : 162 .

(5) قلائد العقيان لابن خاقان : 98 . والحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 153 .

أما الراضي فقد لفت نظر والده إلى شجاعته وبسالته عندما قاتل الأعداء
وانتصر عليهم ، ومنعهم من الاستيلاء على أجزاء من مملكة أبيه :

لا تنسَ يا مولاي قو لة ضارع لا قول فاخر
ضَبَطَ الْجَزِيرَةَ عِنْدَمَا نَزَلَتْ بِعَقَوَاتِهَا الْعَسَاكِرُ
أَيَّامَ ظَلَّتْ بِهَا فَرِيحٌ دَأْ لَيْسَ غَيْرَ اللَّهِ نَاصِرًا⁽¹⁾
[مجزوء الكامل]

وأشاد الشعراء بتقوى ممدوحهم حينما استعطفوهم ، وتحدثوا عن ورعهم
وطاعتهم الله ، فقد تحدّث ابن زيدون عن تقوى أبي حزم ، ذلك الملك الأواب المنيب
الذي يثيب في حق الله ، ويعاقب فيه أيضاً :

مَلِكٌ أَطَاعَ اللَّهَ مِنْهُ مَوْفِقٌ مَا زَالَ أَوْأَبًا إِلَيْهِ مَثِيبًا
يَأْتِي رِضَاهُ مَعَادِيًا وَمَوَالِيًا وَيَكُونُ فِيهِ مَعَاقِبًا وَمَثِيبًا⁽²⁾
[الكامل]

وقد جمع أبو الحزم إلى جانب تقواه مروءة أهله لأن يكون من ذوي السيادة
والفضل :

نَهْوُضٌ بِأَعْبَاءِ الْمَرْوَةِ وَالتَّقَى سَحُوبٌ لِأَذْيَالِ السِّيَادَةِ وَالْفَضْلِ⁽³⁾
[الطويل]

وأعرب ابن عمار عن ثقته بعفو المعتمد عندما يُخَيَّرُ بين عقابه والعفو عنه ؛
لأنّ العفو عن المسيء والتجاوز عن ذنبه من الأمور التي تقرّب إلى الله ، والمعتمد
سيختار ما يدينه إلى الله ويقربه منه :

سَجَايَاكَ إِنْ عَافَيْتَ أُنْدَى وَأَسْمَحُ وَعُذْرُكَ إِنْ عَاقَبْتَ أَجْلَى وَأَوْضَحُ
وَإِنْ كَانَ بَيْنَ الْخَطِيئَتَيْنِ مَزِيَّةٌ فَأَنْتَ إِلَى الْأَدْنَى مِنَ اللَّهِ تَجَنَّحُ⁽⁴⁾
[الطويل]

ولفت ابن عمار نظر المأمون بن المعتمد إلى أنّ العفو عنه والتشفع فيه سينفعه
في دينه ، حيث الأجر والثواب للعافين عن الناس ، وفي دنياه حيث يبقى الشاعر خادماً
وفياً لآل عبّاد ودولتهم :

(1) نفع الطيب للمقري ، ج4 : 254 .

(2) ديوان ابن زيدون : 132 .

(3) ديوان ابن زيدون : 159 .

(4) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 420 .

ما لي أنبّه ناظراً لم يغف عن حظيّه من دنيا ولا من دين⁽¹⁾

[الكامل]

وأشار الشعراء المستعطفون إلى كرم من يستعطفون وجودهم ، فهذا ابن زيدون يشيد بكرم أبي الحزم بن جهور ، ويبين أن كرمه ليس طارئاً ، بل هو أصيل عريق في آبائه وأجداده :

هُمامٌ عريقٌ في الكرامِ وقلماً ترى الفرعَ إلا مستمداً من الأصل⁽²⁾

[الطويل]

ولا يكتفي الشاعر بالإشادة بكرم أبي الحزم ، وإنما يشيد بكرم آل جهور الذين عدوا الكرم سنةً يسرون عليها ، ويتواصون بها :

هو الكريمُ الذي سنّ الكرامُ له زهرَ المساعي فلم تستهوه البِدَعُ
من عزّةِ ألهمتهُ في تعاقبِها إن المكارمَ إيضاءً بها شرع⁽³⁾

[البسيط]

ونجد عند ابن عمار إشادة بكرم المعتمد وجوده ، فالمعتمد كريم جواد كالبحر الذي يهب من يقصده الأعطيات الجزيلة :

بحرٌ إذا ركبَ العفأةَ سُكونه وهبَ الغنى في عزّةٍ وسُكون⁽⁴⁾

[الكامل]

ولم يكتف الشاعر بالإشادة بكرم المعتمد وجوده بل أشاد بكرم ابنه الرشيد عندما تشفع فيه ، لقد ذكر الشاعر الرشيد بالقصائد التي نظمها في مدحه ، وكان حقاً عليه أن يمدحه ؛ لأنه دوحة للمجد وروضة للندى والجود :

كنتُ أشدوُ عليكِ يا دوحةَ المجدِ دِويا روضةَ الندى والجود⁽⁵⁾

[الخفيف]

أما ابن سيده فتحدّث عن كرم من يستعطفه بطريقة مختلفة إذ أنه رأى أن جسده إنما كوّن بفضل أعطيات إقبال الدولة الجزيلة ومكارمه الكثيرة :

دم كوتتتهُ مكرماتك والذي يُكوّن لا عتبَ عليه إذا أفنى⁽⁶⁾

[الطويل]

(1) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 424 .

(2) ديوان ابن زيدون : 160 .

(3) ديوان ابن زيدون : 172 .

(4) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 425 .

(5) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 426 .

(6) جذوة المقتبس للحمدي ، الباب الثامن : 293 .

وعلى الرغم من أن التنويه بالشجاعة والإشادة بها كانا من المعاني التي طالما تناولها الشعراء المادحون في شتى العصور ، إلا أننا نلاحظ أن قلة قليلة من شعراء هذا العصر أشادوا بها ، ولعل ميل الناس إلى السلم في عصر الطوائف ، ونبذهم الجهاد، وخلودهم إلى الدعة كانت وراء ذلك ، لقد كان المعتمد من الشعراء القلائل الذين أشادوا بالشجاعة ، حيث تحدثت عن شجاعة والده في الحروب أثناء استعطافه ، ولكن حديثه هذا جاء في معرض افتخاره بنفسه :

يا ضيغماً يقتل الأقران مفترساً لا توهني فبأي الناب والظفر⁽¹⁾

[البسيط]

أما ابن زيدون فرأى أن يمدح أبا الحزم بن جهور بطريقة مغايرة ، فوصفه بـرجل السلام الذي يؤثر السلم على الحروب وشؤمها ، وإيثاره هذا يدل على حصافة رأيه ، ويُعد نظره :

وزيرُ سلمٍ كفاه يُمنُّ طائره شؤمَ الحروبِ ورأيٌ مُحصدُ المرر⁽²⁾

[البسيط]

ولم ينس الشعراء المستعطفون الحديث عن ذكاء من يستعطفون ويُعد نظريهم ورأيهم السديد ، فقد أشاد ابن زيدون بفهم أبي الحزم وذكائه وسداد رأيه ، حيث كانت آراء النبهاء في ساعات الشدة ناقصة كالخطوط المهملة ، وكان رأي أبي الحزم كالشكل الذي يوضحها ، ويزيل الإبهام عنها :

إذا أشكل الخطبُ المكمُ فإنه وآراءه كالخطِ يوضح بالشكل⁽³⁾

[الطويل]

والذكاء كما يراه الشاعر ليس حكراً على أبي الحزم وحده ، بل هو أصيل في آل جهور عامة الذين يغشون عظام الأمور بقرائح مجربة وآراء سديدة :

يغشى التجاربَ كهلهم مُستغنياً بقريحةً هي حُسه تجريباً⁽⁴⁾

[الكامل]

وعندما خاطب ابن زيدون صديقه أبا حفص بن برد طالباً شفاعته أشاد بذكائه وفهمه ، ورأى أن أبا حفص يفوق إياس بن معاوية حكيم العرب ذكاءً وفهماً ، وكان الشاعر يستتير برأيه ، ويستترشد بفهمه :

(1) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 48 . والحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 27 .

(2) ديوان ابن زيدون : 149 .

(3) ديوان ابن زيدون : 160 .

(4) ديوان ابن زيدون : 132 .

يا أبا حفص وما سـ
من سـ رأيك لي في

واك في فهم إياس
عسق الليل اقتباس⁽¹⁾

[مجزوء الرمل]

وتطرق الشعراء إلى معانٍ أخرى عندما مدحوا مَنْ يستعطفون ، فأبن عمار
نوّه بحلم المعتمد الذي وصفه بالصخرة العظيمة الصلبة التي تتحطم عليها الذنوب ؛ لأنّ
هذه الذنوب مهما عظمت ستكون دون حلم المعتمد عظمة .

نعم لي ذنبٌ غير أن لحلمه
صفاة يزل الذنب عنها فيسفيح⁽²⁾

[الطويل]

أمّا المعتمد فأشاد بصبر والده في الملمات حين خاطبه مستعظفاً إياه :

واصبر فقد كنت عند الخطب تصنطير⁽³⁾

[البسيط]

وتحدّث ابن زيدون عن معانٍ أخرى في المديح عندما استعطف أبا الحزم ابن
جهور ، فوصفه بأمير عادل ينصر المظلوم ، ويحافظ على حقّ الجوار ، فلا يسمح أن
يتعرّض جاره لضرٍّ أو لضميم :

ولئن عجبت لأن أضام وجهور
من لا تعدى النائبات لجاره

نعم النصير فقد رأيت عجيباً
زحفاً ولا تمشي الضراء ديبياً⁽⁴⁾

[الكامل]

كما تحدّث عن هيئته التي ملأت النواظر ، وعن ذكره الحسن الذي ملأ المسامع
في آفاق الأرض :

ملأ النواظر صامتاً ولربما
ملأ المسامع سامعاً ومجيباً⁽⁵⁾

[الكامل]

وأشار الشاعر إلى سهر أبي الحزم على رعيته ، حيث كان أميراً يستعذب
حرمان عينيه من النوم لأجل الاعتناء برعيته ، والاهتمام بشؤونها ؛ فعمّ الأمن أرجاء
البلاد ، حتى أنّ صروف الدهر غابت ، وطيور القطا نامت بأمن واطمئنان دون أن
يشيرها مثير أو أن ينغص حياتها منغص :

(1) ديوان ابن زيدون : 82 .

(2) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 421 .

(3) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 48 .

(4) ديوان ابن زيدون : 131 .

(5) ديوان ابن زيدون : 132 .

كَمْ اشْتَرَى بِكَرَى عَيْنِهِ مِنْ سَهَرٍ هَدَوْعَ عَيْنِ الْهُدَى فِي ذَلِكَ السَّهَرِ
 فِي حَضْرَةِ غَابِ صَرْفُ الدَّهْرِ خَشْيَتَهُ عَنْهَا وَنَامَ الْقَطَا فِيهَا فَلَمْ يَنْتُرْ⁽¹⁾
 [البسيط]

لقد مزج معظم الشعراء المستعطفين استعطافهم بمدح من يستعطفون والإشادة بهم ، ولكن كان مدحهم يفتقر لصدق العاطفة ؛ فالشاعر المنكوب لا يُعقل أن يحمل في صدره حباً لنكبه ، فيثمر هذا الحب مدحاً له وثناءً عليه ، لقد كان المدح الخالي من العاطفة الصادقة يصدر عن الشاعر إرضاء لمن يمدحه كي يعطف عليه ، ويخلصه من نكبته .

كذلك نلاحظ المبالغة في المديح ، وإضفاء صفات ألوهية على الممدوح ، ومن ذلك قول أبي الحسن البغدادي الفكيك الذي وفد إلى الأندلس من المشرق وزج به المعتمد في السجن بعدما اتهم بالإلحاد والزندقة :

أَيَا ابْنَ عِبَادِ الْمَلِكِ الَّذِي يَدُهُ مِنْ فَيْضِهَا الرِّزْقُ بَيْنَ الْخَلْقِ مَقْسُومٌ⁽²⁾
 [البسيط]

لقد جعل الشاعر أرزاق العباد مقسومة من عطاء يد المعتمد وجوده .
 أمّا ابن عمار فقد جعل الجبابرة يرفعون أيديهم للمعتمد ، ويضعون جباههم له أن راموا منه حاجة :

مَا يَعْرِضُ الْجَبَّارُ مِنْهُ لِحَاجَةٍ إِلَّا بَرَفَعَ يَدَهُ وَوَضَعَ جَبِينَ⁽³⁾
 [الكامل]

كما نجد في هذا المدح معاني ردها الشعراء المادحون الذين سبقوا شعراء عصر الطوائف ، فجاء الشاعر يكرر هذه المعاني ، بل أننا نجد أن بعضاً من المعاني قد كررها الشاعر نفسه في قصائده أكثر من مرة .

وعلى الرغم من كثرة المديح في الأشعار الاستعطافية والمبالغة فيه أحياناً ، إلا أنه لم يجد نفعاً ، إذ أن قسماً كبيراً من الشعراء أخفق في تخليص نفسه أو رفع العقاب الواقع عليه .

(1) ديوان ابن زيدون : 149 .

(2) الذخيرة لابن بسام ، قسم 4 ، مجلد 1 : 373 .

(3) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 425 .

ب- الغزل :

هام الشاعر المحبّ بمحبوبة لا تحبّه ، وتعلّق قلبه بها ، فأخذ يرنو إليها عساها تبادلته حباً بحب وهياماً بهيام ، ولكنه عندما أخفق في ذلك لم يستطع أن يسلو حبها ، ولم يجد مناصاً من استعطافها وذرف الدموع بين يديها عساها ترقّ لحاله ، وتمنحه الوصال الذي يصبو إليه .

وقد تكون العلاقة بين الشاعر المحبّ ومحبوبته علاقة حميمة ؛ فيحيا العاشقان وهما يتبادلان الحب ويتساقيان الغرام ، حتى يعكس صفو هذه العلاقة معكّر ؛ فيحصل الفراق بين المحبين ، وتبتعد المحبوبة عن محبوبها الذي تمكّن منه العشق ، فيأخذ الشاعر المحبّ بمخاطبة محبوبته واستعطافها ، والتوسل إليها كي ترحمه ، وتعود إليه وتخلّصه من عناء البعد وألم الفراق .

وفي كلتا الحالتين يكون الشاعر المحبّ مخلصاً في حبّه ، صادقاً في عواطفه ، لأجل ذلك نراه يتحمل عناء مخاطبة محبوبته البعيدة عنه ، متغزلاً فيها تارة ، مستعطفاً إياها تارة أخرى ، آملاً من وراء ذلك إثارة عطفها كي ترثي لحاله ، وتشفق عليه ؛ فتمنحه الحبّ الذي ينشده ، والوصال الذي يتمناه .

إننا نقرأ في الأشعار الاستعطافية لأولئك الشعراء العشاق غزلاً أقرب ما يكون إلى الغزل العنزي الذي عرفه المشرق لا سيما في العصر الأموي ، فأنّ الشاعر وبكى بسبب بُعد محبوبته عنه ، وتحدّث عن ضنك عيشه وسوء حاله ، فهذا ابن زيدون أشهر من حُرّم من محبوبته ، وأكثر من نظم الشعر استمالة لقلبها واستدراراً لعطفها ، يخاطبها ويعلمها أنّ حياته أمست جحيماً ، فلا يلتذّ بمنام ، ولا يطيب له طعام ، ولا يسوغ له شراب بسبب بُعدها عنه وهجرها إياه :

متى أبئك ما بي	يا راحتي وعذابي؟
متى يتوب لسّاتي	في شرحه عن كتابي؟
الله يعلم أنّي	أصبحتُ فيك لما بي
فلا يطيب طعامي	ولا يسوغ شرّابي ⁽¹⁾

[المجتث]

لقد كانت محبوبة الشاعر (ولادة) واحة لقلبه ومصدراً لسعادته حين كانت قريبة منه ، فأمست مصدرراً لعذابه وأصلاً لشقائه عندما قلته وابتعدت عنه ، ويوازن

(1) ديوان ابن زيدون : 50 .

الشاعر في جلّ القصائد التي خاطب فيها محبوبته بين زمانين : زمان السعادة والهناء حيث كان يسعد بوصولها وقربها ، وزمان التعاسة والشقاء حيث أمسى حزيناً تعساً ؛ بسبب بعدها عنه وهجرها إياه ، لقد كان الدهر يُضحكه في الزمان الأول ، وكانت لياليه تبدو له بيضاء ناصعة ، إذ إنّه كان ينعم بجنة الخلد ، ويستقي من كوثرها العذب ، أمّا في الزمان الآخر فأخذ الدهر يبيكه ، وأصبحت الأيام في نظره سوداء حالكّة ، أمّا الزقوم والغسلين فحلاً محلّ جنة الخلد وكوثرها العذب :

إنّ الزمان الذي ما زال يُضحِكنا أنساً بقربهم قد عادَ يُبْكينا
حالتَ لفقْدكم أيامنا فغدت سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
يا جنة الخلدِ أبدننا بسيرتها والكوثرِ العذبِ زقوماً وغسلينا⁽¹⁾
[البسيط]

ونرى الشاعر يستعذب هذا الشقاء في سبيل الحبّ ، ويُعلم محبوبته أنّه غير ناقد عليها ، وأنّه ماضٍ في حبّها ، وإن كلفه ذلك الكثير من البكاء والعناء ؛ لأنّ نفسه المعذبة المحبّة (ما كانت لترغب في النسيان بل ما كانت لترغب في الاستسلام إلى اليأس)⁽²⁾ ، فقلبه متعلق بها لم يمل إلى سواها على الرغم ممّا يقاسيه في سبيل حبّها ، ويأمل الشاعر بقاء محبوبته في الدنيا ، فإن تعذّر ذلك فسوف يتمّ اللقاء في موقف الحشر :

بنتم وبنّا فما ابتلت جوائحنّا شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
نكاد حين نتاجيكم ضمائرنا يقضي علينا الأسي لولا تآسينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً منكم ولا اتصرفت عنكم أماتينا
نكاد حين نتاجيكم ضمائرنا يقضي علينا الأسي لولا تآسينا
إن كان قد عزّ في الدنيا اللقاء بكم في موقف الحشر نلقاكم وتلقونا⁽³⁾
[البسيط]

ويبين الشاعر أنّ حبه لمحبوبته هو كلّ حياته ، (وأنّه يرى في سبيل العشق ما لا يراه غيره ، ويهون عليه كلّ شيء في سبيل إرضاء حبيبه حتى حياته ، وهو فخور بهذا)⁽⁴⁾ :

أنى أضيع عهدك أم كيف أخلفُ وغدك؟
وقد رأيتك الأماتي رضى فلم تتعدك

(1) ديوان ابن زيدون : 10 .

(2) في الأدب الأندلسي لجودت الركابي : 194 .

(3) ديوان ابن زيدون : 10 - 11 .

(4) بلاغة العرب في الأندلس لأحمد ضيف : 82 .

يا ليت شعري وعندي ما ليس في الحب عندك
 هل طال ليك بعدي كطول لي لي بغدك
 سنني حياتي أهبتها قلست أم لك ردك
 الدهر عبيد لِمَا أصبحت في الحب عندك⁽¹⁾
 [مجزوء الكامل]

ولكن الشاعر يشكو من محبوبته التي تركته هائماً في حبها ، دون أن ترثي لحاله ، وتخلصه من عناء البُعد ولوعة الفراق ، ويتحدث خلال ذلك عن العشق الذي تمكن منه ، وملك فؤاده ، فجعله لا يطيق الصبر على بُعد محبوبته عنه وهجرها إياه :

كم ذا أريدُ ولا أريدُ يا سوء ما لقيَ الفؤادُ
 أصفى الودادَ مدلاً لم يصف لي منه الودادُ
 يقضي عليّ دلاله في كل حين أو يكادُ
 كيف السلو عن الذي مثواه في قلبي السوادُ
 ملك القلوب بحسنه قلها إذا أمرَ انقيادُ
 يا هاجري كم أستفيدُ د الصبر عنك فلا أفادُ
 هلا رثيت لمن يبيي ت وحشوا مقلته السهادُ
 إن أجن ذنباً في الهوى خطأ فقد يكبو الجوادُ⁽²⁾
 [مجزوء الكامل]

ولا يفوت الشاعر أن يشبه محبوبته بتشابهه طالما استخدمها الشعراء العاشقون ، فهي كالشمس التي توارت عن ناظريه بابتعادها عنه ، أما وجهها الجميل وقد أميط عنه الحجاب فكالقمر المنير ، وقد ظهر بعد انقشاع السحاب :

الشمس أنت توارت عن ناظري بالحجاب
 ما البدر شف سنه على رقيق السحاب
 إلا كوجهك لِمَا أضاء تحت النقب⁽³⁾
 [المجتث]

(1) ديوان ابن زيدون : 55 .

(2) ديوان ابن زيدون : 51 .

(3) ديوان ابن زيدون : 50 .

وليسَت الصور الفنية هي الوحيدة التي قَلدَ فيها ابن زيدون سابقيه من الشعراء ، بل (إنّه كان يتصيّد الألفاظ والمعاني التي قيلت في العشق ، فينظمها ويلبسها ثوباً جديداً وكأنّها له ، وقد برع في ذلك براعة عظيمة)⁽¹⁾، كقوله مخاطباً محبوبته :

يا غزّالاً أصارني	موثقاً في يد المِخَن
إنني منذ هَجَرْتَنِي	لم أذُق لَذَّةَ الوَسَن
شافعي يا مُعذِّبِي	في الهوى وَجْهَكَ الحِسن
كنتِ خلواً من الهوى	وأنا اليوم مُرْتَهَن
كان سِرِّي مُكْتَمَماً	وهو الآن قد عَنَّ
ليس لي عنك مذهباً	فكما شئت لي فُكُن ⁽²⁾

[مجزوء الخفيف]

وأمر آخر قَلدَ فيه ابن زيدون الأقدمين ، وهو استهلال بعض قصائده بالنسيب مجارة للشعراء الجاهليين ، فنراه في قصيدته الرائية يتغزل بمحبوبته ، ويعبر عن سهاده وأرقه بسبب هجرها إياه ، ويُعدها عنه ، ثم يفضي بعد ذلك إلى استعطاف أميره الذي زجّ به في السجن :

ما جالَ بَعْدَكَ لِحْظِي في سَنّا القَمَرِ	إلا ذُكْرْتُكَ ذِكْرَ العَيْنِ بِالأَثَرِ
ولا استطلتُ نِماءَ الليلِ مِنْ أَسْفِ	إلا على لَيْلَةٍ سَرّتْ مع القِصْرِ
فهمتُ معنى الهوى مِنْ وحي طَرَفِكَ لي	إنّ الحِوارَ لمفهومٍ مِنَ الحَوَرِ ⁽³⁾

[البسيط]

كما ذكر الشاعر - مقلداً الأقدمين - الأمانة التي كان يلتقي فيها محبوبته ، فتشهد حبهما وتعطف على عشقهما ، فنذكر الزهراء :

إني ذُكْرْتُكَ بالزهراءِ مُشتاقاً	والأفقُ طَلَّقَ ومرأى الأرضِ قد راقاً ⁽⁴⁾
-----------------------------------	--

[البسيط]

كما ذكر في شعره قرطبة والرصافة والعقاب والنبتي وغيرها من الأماكن التي كانا يقضيان فيها لحظات العشق وساعات الصفاء .

(1) بلاغة العرب في الأندلس لأحمد ضيف : 83 .

(2) ديوان ابن زيدون : 20 .

(3) ديوان ابن زيدون : 147 .

(4) ديوان ابن زيدون : 47 .

كان حبّ ابن زيدون لاهياً عابثاً في مطلعته ، ثم ما لبث أن انقلب إلى جذوة نلر تأكل قلبه ، عندما أزورت محبوبته عن حبه وهجرته (فلعب دور الهجر في قلبه لعباً قاسياً شديداً ، وفجّر فيه شعر الحرقه واللوعة وشعر الذكرى والحنين)⁽¹⁾ ، وأبدع الشاعر في قصائده أيّما إبداع ، حين استجمع شاعريته وفجّر عواطفه ، واطّلع على أشعار الشعراء السابقين ، فتصيّد ألفاظهم ومعانيهم ، وأعاد صياغتها بعبارات تملك النفوس ، وتستولي على القلوب (وكأنّ الإنسان لم يقرأ مثلها ، ولم يسمع بما يشبهها لجودة الافتتان في تعبير الشاعر وأسلوبه)⁽²⁾ ، لقد كان ابن زيدون في أشعاره كالفنان الذي يستعين بالألوان لإظهار الصورة التي يريد أن يبرزها ، فكان (الفن وحده هو الذي أكسب ابن زيدون زعامة الشعر في عصره ، وأغرى فحول الشعراء بمحاكاته ، والانضواء تحت رايته)⁽³⁾ ، لذا نكاد لا نجد جديداً في أشعار سواه من شعراء عصره الذين أحبوا وعشقوا ؛ ففشلوا في حبهم ، وأخفقوا في عشقهم ؛ فخاطبوا محبوباتهم مستترين عطفهن ، راجين وصالهن ، فكما بكى ابن زيدون وتأوّه بسبب فراق محبوبته وابتعادها عنه بكى ابن حداد وتأوّه ، وأعلم محبوبته أن صبره على فراقها قد نفد ، وأنّ الأشواق تظفر قلبه ، والأحداق تسيل دمه ، لقد أقام الشاعر في مدينة تدمير إقامة تعسة بعيداً عن محبوبته ، وكان في أسوأ حال ، وكان حاله البائس يثير شفقة من يبصره هناك، إنّ البؤس قد اقترن بحياة الشاعر منذ أن فارق محبوبته ، فأمسى داعم العين ، منغص العيش :

يا غائباً خَطَرَاتِ القلبِ مَحْضَرُهُ	الصبرُ بَعْدَكَ شَيْءٌ نَسْتُ أَقْدَرُهُ
تركتَ قلبي وَأَشْوَاقِي تُفْطِرُهُ	ودمغُ عيني وَأَحْداقِي تُحَدِّرُهُ
لو كنتَ تُبْصِرُ في تدميرِ حَالَتِنَا	إِذْ لَأَشْفَقْتَ مِمَّا كُنْتَ تُبْصِرُهُ
فَالعَيْنُ دُونَكَ لَا تَحُلِي بِلَذَّتِهَا	والدهرُ بَعْدَكَ لَا يَصْفُو تَكَرُّرَهُ ⁽⁴⁾

[البسيط]

ويكي ابن حداد فراق محبوبته في سائر قصائده التي تشوق بها إليها ، وبكاء الشاعر وأنيته أظهرها ما يحاول إخفاءه من حب لمحبوبته وهيام بها ، ولا يطلب الشاعر

(1) في الألب الأندلسي لجودت الركابي : 192 .

(2) في الألب الأندلسي لجودت الركابي : 192 .

(3) في الألب الأندلسي لجودت الركابي : 205 .

(4) ديوان ابن حداد : 209 - 210 .

من محبوبته المستحيل ، فكل ما يطلبه هو رضاها عليه ، وتخليصه من عنت البُعد وألم
الفراق .

إِنَّ المَدَامَ وَالزَّفِيرَ قَدِ أَعْنَا مَا فِي الضَّمِيرِ
فَعَلَامَ أَخْفَى ظَاهِرًا سَقَمِي عَلَيَّ بِهِ ظَهْنِرِ
هَبْ لِي الرِّضَى مِنْ سَاخِطٍ قَلْبِي بِسَاحَتِهِ الْأَسِيرِ⁽¹⁾
[مجزوء الكامل]

لقد عاش الشاعر حياة بائسة ؛ بسبب ابتعاد محبوبته عنه ، وعلى الرغم من ذلك
يعلم محبوبته أنه محب لها غير ساخط عليها ، وسبقي عاشقاً وفاقاً لها حتى لسو بقيت
بعيدة عنه ؛ لأن حبها ملك قلبه ، وتمكن منه :

فَهَلْ تَدْرِينَ مَا تَقْضِي عَلَى عَيْنِي عَيْنَاكَ ؟
وَمَا يُذَكِّيهِ مِنْ نَارٍ بِقَلْبِي نُورِكَ الذَّاكِي ؟
نَوِيرَةٌ إِنْ قَلْبِي فَا نَنِي أَهْوَاكِ أَهْوَاكِ⁽²⁾
[مجزوء الوافر]

إن الشاعر لم يهتم بمحبوبته النصرانية فحسب ، بل هام بكل ما يمت للنصارى
بصلة ؛ فأحب الكنائس وما فيها من صلبان ورهبان ونسائك :

عَسَاكَ بِحَقِّ عَيْسَاكَ مُرِيحَةَ قَلْبِي الشَّاكِي
فَإِنَّ الحَسْنَ قَدْ وَلَا كَ إِحْيَائِي وَإِهْلَاكِي
وَأَوْلَعْنِي بِصُلْبَانٍ وَرُهْبَانٍ وَنَسَاكَ⁽³⁾
[مجزوء الوافر]

ونرى الشاعر علي بن عبد الرحمن بن أبي البشر يصنع صنيع سابقه ؛ فيتحدث
عن انعدام صبره ، وبكائه المتواصل على فراق محبوبته ، لقد كان كالمملك المتوج عندما
نعم بقربها ، أما عندما ابتعدت عنه وهجرته فأمسى كمن خلع عن ملكه .

وَلَقَدْ وَجَدْتُ الصَّبْرَ بَعْدَكُمْ صَعْبًا وَكُنْتُ أَظْنَهُ سَهْلًا
وَاسْتَعْبَرْتُ عَيْنِي فَقُلْتُ لَهَا هَلَّا حَذَرْتُ الْأَعْيْنَ النَّجْلَا
لَا مَرْحَبًا بِالْبَيْنِ مِنْ أَجْلِ تَنَائِي الحَيَاةَ بِهِ وَلَا أَهْلَا

(1) ديوان ابن حداد : 222 .

(2) ديوان ابن حداد : 242 .

(3) ديوان ابن حداد : 241 .

قد كان لي ملكاً دنوكم فالآن أصبح بَعْدَكُمْ عزلاً⁽¹⁾

[السريع]

والشاعر يشكو من محبوبته التي لم تبادل له الحب ، ولم تشاركه الغرام ، بل كانت تتلاعب فيه وتستهنئ بمشاعره ، لقد ساءت حال الشاعر ، ولازمه السقام ؛ بسبب ما يقاسيه من بُعد وفراق ، ولكن معاناته لم تنثر عاطفة محبوبته ، إذ ظلت بعيدة عنه ، عابثة فيه :

فيه لي جنة وفيه نعيمٌ وعذابٌ أشقى به وجحيمٌ
جأني عائداً ليعلم ما بي من تجني هواه وهو عليمٌ
هو يدري ما أوجب السقم لكن ليس يدري ما يقاسي السقيم
ثم نادى وقد رأى سوءَ حالِي جلّ محيي العظام وهي رميم⁽²⁾

[الخفيف]

والأمر ذاته نجده عند الشاعر أبي الفضل مشرف بن راشد ، لقد التمس هذا الشاعر الرحمة من محبوبته ، ورجاها أن تصله ، وتخلصه من العذاب الواقع فيه ، فصبره على فراقها على وشك النفاد ، والأسى والضنى أصبحا ملازمين له منذ أن ابتعدت عنه محبوبته :

بثناياك العذاب لا تطل فيك عذابي
كن رحيماً بي رقيقاً واجعل الوصل ثوابي
لا يغرنك صبري واحتمالي منك ما بي
فالأسى بين ضلوعي والضنى بين ثيابي⁽³⁾

[مجزوء الرمل]

ويأمل الشاعر من محبوبته أن تخلصه من أساه وضنكه ، وتعود إليه حتى يشفي غليله ، ويبكي فرحاً بعودتها ووصالها ، كما كان يبكي حزناً على بعدها وفراقها .

للتلاقي يهون ما ألقى من سهادٍ وعبرةٍ واشتياقٍ
لو تخلصت للقاء لأطفأ ت غليلي بدمعي المهراق
فدموعُ الفراقِ كالنارِ حَرَى وكذا ضدّها دموعُ التلاقي⁽⁴⁾

[الخفيف]

(1) خريدة القصر للعماد الأصفهاني ، تحقيق محمد المرزوقي : 14 - 15 .

(2) خريدة القصر للعماد الأصفهاني ، تحقيق محمد المرزوقي : 15 .

(3) خريدة القصر للعماد الأصفهاني ، تحقيق عمر السوقي : 15 .

(4) خريدة القصر للعماد الأصفهاني ، تحقيق عمر السوقي : 14 .

لقد هام الشعراء السابقون بمحوباتهم اللاتي هجرنهم ؛ فشرعوا (في الاعتذار والخضوع ، والتذلل ، والأدلة بحجتهم من الإدلال والإذلال)⁽¹⁾ كي يستميلوا قلوبهن إليهم ، وسلكوا من أجل تحقيق ذلك شتى المسالك ؛ فتارة تغزلوا بهنّ ووصفوا حسنهنّ وجمالهنّ ، وتارة أخرى تشوقوا إليهنّ وبكوا وذرّفوا الدموع الغزيرة ، وتحدثوا عن ضنك عيشهم وسوء حالهم بسبب بعدهنّ وهجرهنّ ، ولكنهم فشلوا في تحقيق هدفهم ، إذ أننا لا نجد أياً منهم أثمرت أشعاره ، ونجحت جهوده فعادت محبوبته إلى حماه أو منحته الحبّ الذي كان ينشده .

ج- الفخر :

مزج عدد من الشعراء المستعطفين أشعارهم الاستعطافية بفخرهم بأنفسهم ، واعتدادهم بها تارة ، وبلغت نظر مستعطفهم لمناقبهم المتعددة وفضائلهم الماضية تارة أخرى ، وكان هؤلاء الشعراء أرادوا من وراء ذلك تحقيق أمرين : الأول هو تذكير من يستعطفون بأنهم ليسوا كعامة الناس ، وإنما هم من عليّة القوم وخاصتهم ؛ لذا ينبغي ألا يهانوا وألا يعاقبوا جرّاء ذنب اقترفوه ؛ فعظم شأنهم وعلو مكانتهم ، وخدماتهم التي قدموها للحاكم كلها أمور كفيفة بتخفيف ذنوبهم مهما عظمت - كما كانوا يظنون - ، أما الأمر الثاني : فهو إبعاد التذلل وإهراق ماء الوجه عن استعطافهم ، بحيث يظهر هؤلاء الشعراء متماسكين محافظين على عزة نفوسهم وكرامتها أثناء استعطافهم .

كان ابن زيدون أكثر الشعراء افتخاراً بنفسه واعتداداً بها أثناء استعطافه ، بخاصة في تلك القصائد التي نظمها في بدايات نكبته ومفتتح سجنه ، فقد بدا ابن زيدون في تلك القصائد رجلاً محافظاً على كرامته واثقاً من نفسه ، تشيع في أشعاره روح الكبرياء والأنفة من ذلّ القيد وكبوة الحظ (حتى ليكاد يكون معظم شعره فخراً واعتداداً أكثر منه تتصلاً واستعطافاً)⁽²⁾ ، فقد رأى ابن زيدون أن النكبة التي تعرض لها إنما حصلت بفعل دسائس الأعداء والوشاة الذين لم ينالوا منه ، إلا لأنه يتقدّم عليهم بعلمه وفضله ؛ فقاموا بالافتراء عليه والإضرار به ، وهو لا يستطيع إرضاء أولئك الأعداء إلا إذا تخلى عن علمه ، وجعل كما يجهلون :

ولو أنّي أسطيعُ كي أُرْضِيَ العِدَا شَرَيْتُ ببعض العِلْمِ حظّاً من الجهل⁽³⁾

[الطويل]

(1) طوق الحمامة لابن حزم : 180 .

(2) ابن زيدون عصره - حياته - أبه : حسن جاد حسن : 158 .

(3) ديوان ابن زيدون : 160 .

لقد كان أعداؤه سبباً في نكبته حسداً من عند أنفسهم ؛ لأنه يتقدم عليهم كما يتقدم الجواد السابق على سائر الجياد في ميادين السباق :

جَوَادٌ إِذَا اسْتَنَّ الْجِيَادَ إِلَى مَدَى تَمَطَّرَ فَاسْتَوْلَى عَلَى أَمَدِ الْخَصْلِ⁽¹⁾

[الطويل]

وقد فخر ابن زيدون بنفسه في معرض هجومه على أعدائه وحساده ، فكان حاله وحالهم كحال الليث الذي لا يعبأ بنهيق الحمير ، وكحال البدر الذي لا يكثرث بنباح الكلاب ، ثم وصف نفسه بالروض ذي الرائحة العطرة الزكية الذي لا يضره طنين الذباب فيه ، لقد كان الشاعر كصفحة الماء ، وكان أعداؤه كالكر الذي يطفو على سطحها ، كما كان كضوء الشمس وكان حساده كالضباب الذي يحاول أن يحجبه عن الأرض ، ولكن هيهات للكر أن يفسد الماء ، و هيهات لذاك الضباب أن يحجب ضوء الشمس عن الأرض ويحرمها منه :

وَقَدْ تَسْمَعُ اللَّيْثَ الْجَحَاشُ نَهِيْقَهَا وَتُعْلِي إِلَى الْبَدْرِ النَّبَاحَ كَلَابُ
إِذَا رَاقَ حُسْنُ الرُّوْضِ أَوْ فَاحَ طَيْبُهُ فَمَا ضَرَّهُ إِنْ طَنَّ فِيهِ ذَبَابُ
وَقَدْ تَغْشَى صَفْحَةَ الْمَاءِ كَدْرَةٌ وَيَطْفُو عَلَى ضَوْءِ النَّهَارِ ضَبَابُ⁽²⁾

[الطويل]

ويُظهر ابن زيدون نفسه وكأنه متعالياً على غيره من الناس ، فيرى أن العظماء - ويعدّ نفسه منهم - هم الذين ينكبون ، أما عوام الناس فلا يتعرضون للمصائب والنكبات ، إن تلك النكبات التي ألمت به كالرياح العاصفة التي تعصف بالشجر الباسق ، وهي كالكسوف الذي يحدث للشمس والقمر ، أما النباتات الصغيرة القصيرة فتسلم من أذى الرياح العاصفة ، كما أن النجوم الصغيرة لا يضرها خسوف أو كسوف :

هَلِ الرِّيَاحُ بِنَجْمِ الْأَرْضِ عَاصِفَةٌ أَمْ الْكُسُوفُ لِغَيْرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ؟⁽³⁾

[البسيط]

ويشبه الشاعر نفسه وقد سجن بالسيف الذي أودع في غمده ، لقد ظهر الشاعر متماسكاً عندما خاطب سجاناه أبا الحزم بن جهور ، حيث لم يجزع من سجنه ، بل إنه اعتبر أن ما تعرض له أمراً طبيعياً ؛ فالإنسان العظيم قد ينكب كما أن السيف الصارم قد يودع في غمده :

(1) ديوان ابن زيدون : 161 .

(2) ديوان ابن زيدون : 120 - 121 .

(3) ديوان ابن زيدون : 149 .

إن طال في السجن إيداعي فلا عجب⁽¹⁾ قد يودع الجفن حد الصارم الذكر⁽¹⁾

[البسيط]

ونرى ابن زيدون يكرر هذه الصورة عندما خاطب صديقه أبا مسلم بن أفلح مستشفعاً فيه ، لقد حاول الشاعر أن يبرر هروبه من السجن ، فبين أن المدة الطويلة التي قضاها في سجنه كانت تهلكه ؛ لأنه كالسيف الذي يفسده طول بقائه في غمده :

وبقاء الحسام في الجفن يثني منه بعد المضاء والتصميم⁽²⁾

[الخفيف]

وأشار الشاعر إلى راحة عقله الذي ينهاه عن ارتكاب ما زعمه الواشون ، فلا يُعقل أن يسيء القول لمن أحسن إليه أو أن يقابل إحسانه بإساءة :

وإني لنتهاتي نهائي عن التي أشاد بها الواشي ويعقطني عقلي
وما كنت بالمهدي إلى السؤدد الخنا ولا بالمسيء القول في الحُسن الفعل⁽³⁾

[الطويل]

وعندما خاطب ابن زيدون صديقه أبا حفص بن برد واستشفع فيه بعدما فشل في الحصول على عفو أبي الحزم وصفحه ، شكا لصديقه أولئك الأصدقاء الذين تنكروا له ، ونجده أثناء شكواه يفخر بنفسه ، ويعتد بها ؛ ليظهر أمام صديقه بمظهر الإنسان العزيز المتحامل على نفسه الذي لا تضيره النكبات ، ولا تفت من عضده النوائب ، لقد شبه الشاعر نفسه بالأسد الجريء الذي يلبد لفرسته استعداداً للانقضاض عليها ، كما وصف نفسه بالمجد الذي يغشى النعاس مقلته ، إن مثال الشاعر وقد تعرض للنكبة كمثال المسك الذي لا يقتر الناس قيمته فيلقونه في التراب ويطأونه بأقدامهم :

يلبدُ الورد السبنتي وله بعدُ افتراسُ
فتأمل كيف يغشى مقلّة المجد النعاسُ
ويفت المسك في التراب ب فيوطاً ويداس⁽⁴⁾

[مجزوء الرمل]

لقد فخر ابن زيدون بنفسه ، وبالغ بالاعتداد بها ، وكأنه (لم ينظم الشعر لإرضاء شخص آخر غير نفسه)⁽⁵⁾ ، ولكن هذا الفخر كان في بدايات نكبته ، أما تلك

(1) ديوان ابن زيدون : 149 .

(2) ديوان ابن زيدون : 124 .

(3) ديوان ابن زيدون : 162 .

(4) ديوان ابن زيدون : 83 .

(5) في الألب الأندلسي لجوبت الركابي : 198 .

الأشعار التي نظمها بعدما قضى وقتاً طويلاً في سجنه فتخلو تماماً من أي فخر أو اعتداد، بل أنها تحوي كثيراً من عبارات التذلل والهوان ، لقد كسرت المعاناة حدته ، وطعنت كبريائه في الصميم .

أما المعتمد بن عبّاد الذي خاطب والده المعتضد مستعظفاً إياه بعدما هُزم هزيمة نكراء في مالقة ، فيفخر بنفسه في معرض مدحه لوالده ، حيث كان والده كالأسد الذي يفتك بأعدائه ، وكان المعتمد بمثابة المخالب والنايب لذلك الأسد :

يا ضيغماً يقتل الأقران مفترساً لا توهنني فبأيّ الناب والظفر⁽¹⁾

[البسيط]

ثم فخر الشاعر بأخلاقه العالية التي أدبه عليها أبوه ، تلك الأخلاق التي جعلته يبتعد عن الانغماس في المذات والانقياد وراء الشهوات ، لقد ابتعد المعتمد عن شرب الخمر ، ولم يملك سمعة غناء القيان ، أما الجوّاري الفاتنات فعجزت عن إغوائه :

لم أوت من زمني شيئاً أذُّ به فليستُ أعرفُ ما كأسٌ ولا وترٌ
ولا تملكني دلٌّ ولا خفَرٌ ولا تمرسَ بي غنَجٌ ولا حورٌ⁽²⁾

[البسيط]

أما الراضي بن المعتمد الذي وجد عليه أبوه بسبب انشغاله بالعلم ، وجعل تحصيله يتم على حساب التربية العسكرية التي ينبغي أن ينشأ عليها الأمراء ، فقد حاول أن يسترضي والده ، فخاطبه بقصيدة فخر فيها بنفسه ، وذكر والده بتلك اللحظات التي استبسل فيها في الدفاع عن مملكة أبيه ، ومنع الأعداء من الاستيلاء على أجزاء منها :

لا تنسَ يا مولاي قُو لة ضارع لا قولَ فاخر
ضبطَ الجزيرةَ عندما نزلت بعقوتها العساكر
أيامَ ظلتُ بها فر يداً ليسَ غيرَ الله ناصر
إذ كان يغشى ناظري لمعُ الأسنّة والبواتر
ويصمّ أسماعي بها قرعُ الحجارة بالحوافر⁽³⁾

[مجزوء الكامل]

إنّ المتنبّع للفخر في شعر الاستعطاف يلحظ أمرين :

(1) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 48 . والحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 57 .

(2) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 48 . والحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 57 .

(3) نفع الطيب للمقري ، ج 4 : 254 .

أولهما : قلة الشعراء المستعطفين الذين تناولوا الفخر في استعطافهم ، وهؤلاء كان لهم ماضٍ مجيد أو كانوا أمراء فكان فخرهم في محلّه ، أمّا بقية الشعراء المستعطفين فلا نجد في أشعارهم ذكراً للفخر ، فقد كانوا من عامة الناس الذين لا يوجد في حياتهم ما يفخرون به ، أمّا الأمر الثاني فهو اقتصار الفخر على ذات الشاعر الذي لم يفخر لا بوالده ولا بقبيلته ، وإنّما كان فخره بنفسه فقط .

د- الوصف :

كان الوصف غرضاً آخر تناوله الشعراء المستعطفون في أشعارهم الاستعطافية استنارة لرحمة من يستعطفون واستمراراً لعطفهم ، واستخدم الشعراء المستعطفون الوصف في مجالات متعددة ، فتحدثوا عن معاناتهم ، ووصفوا الحال البائس الذي آلوا إليه بسبب تلك المعاناة ، فهذا ابن زيدون يتحدث عن النكبة التي داهمته وهو في مقبّل العمر وريعان الشباب ، فجعلت الشيب يكسو رأسه ، وجعلت الشباب يفارقه قبل الأوان :

مالي وللأيام ؟ لَجَّ مَعَ الصَّبَا عُدْوَانَهَا فَكَسَا الْعِذَارُ مَشِيبَا
محقت هلال السن قبل تمامه وذوى بها غصنُ الشَّبَابِ رَطِيبَا⁽¹⁾

[الكامل]

أمّا ابن عمار فيصف حاله وهو يتحدث عن حيرته وقد أخطأ بحقّ مليكه المعتمد، لقد كان الشاعر حائراً متردداً يُقْبَلُ على المعتمد صاغراً نادماً أم يهيم على وجهه في ربوع الأرض :

أصدقُ ظنّي أم أصبحُ إلى صَحْبِي فأمضى عَزْماً أم أعوجُ مع الركبِ
وأصبحتُ لا أدري أفي البُعْدِ رَاحَتِي فأجعلُه حظّي أم الحظُّ في القُرْبِ⁽²⁾

[الطويل]

ونرى المعتمد يستعطف والده بعدما هزم في إحدى معاركه ، ويصف حاله وضنك عيشه ، لقد أنقلت تلك الهزيمة كاهله ، وزاد من مرارتها خوفه من والده الذي كان شديد البأس ، قاسي القلب ؛ فمكث خائفاً باكياً ، وتغيّر لونه ، وأصبح كلون السقيم الذي يكابد الداء ، وبدا منهك القوى كالشيخ الطاعن في السن على الرغم من أن الكبر لم يبلغه ، والشيوخوخة لم تداومه :

قد أخلفتني ظنونُ أنتَ تعلمُها وغالَ موردُ آمالي بها كَديرُ

(1) ديوان ابن زيدون : 131 .

(2) النخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 407 . وقلائد العقيان لابن خاقان : 90 . والحلة السيرة لابن الأبار ،

فالنفسُ جازعةٌ والعينُ دامعةٌ والصوتُ منخفضٌ والطرفُ منكسرٌ
 قد حلتُ لوناً وما بالجسم من سقمٍ وشبتُ رأساً ولم يبلغني الكبرُ
 ومت إلا نِماءً في يمسكه إني عهدتكُ تغفو حينَ تقدرُ⁽¹⁾

[البسيط]

وعندما دالت أيام المعتمد ، وأسر في أغمات ، وصف لنا حال بناته اللواتي كنَّ
 في أتعس حال ، كما وصف حال زوجته التي كانت تبكي بدموع غزيرة أسفاً على ما
 حلَّ بها وبأل بيتها ، وحزناً على فراق أبنائها :

معي الأخواتُ الهالكاتُ عليكما وأمكما التكلَى المضرمة الصدرِ
 فتبكي بدمعٍ ليس للقطرِ مثله وتزجرها التقوى فتصغي إلى الزجرِ⁽²⁾

[الطويل]

ومرّة أخرى يصف المعتمد حال بناته وقد رآهن يدخلن عليه بهنئته بالعيد ، وهنَّ
 في حالة مزرية تدمي الفؤاد ، لقد كانت بناته الأميرات يعشن في ضنك شديد ، يرتدين
 الثياب البالية ، ويعانين من الجوع ، وكنَّ يغزلن للناس كي ينفقن على أنفسهنَّ :

فيما مضى كنتُ بالأعيادِ مسرورا فساءك العيدُ في أغماتِ مأسورا
 ترى بناتك في الأظمارِ جائعةً يغزلن للناس لا يملكن قِطْميرا
 برزن نحوك للتسليمِ خاشعةً أبصارهنَّ حسيراتِ مكاسيرا
 يطأن في الطينِ والأقدامِ حافيةً كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا⁽³⁾

[البسيط]

أما ابن غصن الحجاري فيصف لنا المكان الذي اعتقل فيه وحرمه حرَبته ، لقد
 كان ذلك المكان ضيقاً ، وكان الشاعر مقيداً فيه بالأكبال والأصفاد :

ما لنا في وطءِ البسيطةِ حظُّ لا ولا في نشقِ الهوائِ نصيبُ
 في محلِّ كأنه ظلُّفُ شاةٍ ليس فيه لذي ديبِ ديبُ
 وكان الكبلُ الثقيلُ إذا ما رنَّ في الساقِ للخطوبِ خطيبُ⁽⁴⁾

[الخفيف]

(1) النخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 48 . والبيان المغرب لابن العذارى ، ج 3 : 275 .

(2) قلائد العقيان لابن خاقان : 12 .

(3) النخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 73 . وقلائد العقيان لابن خاقان : 25 . وشذرات الذهب لابن عماد
 الحنبلي ، ج 3 : 388 - 389 .

(4) أعتاب الكتاب لابن الأبار : 220 .

كما وصف بعض الشعراء المستعطفين الطبيعة وأشركوها في معاناتهم ؛ فابن زيدون أهاب بالطبيعة ناطقة وصامتة ، حية وجامدة أن تشاركه في نكباته ، وتهتم بمصيره (فتقيم النجوم المآتم ، وتسلم نفسها للهوان مثله ، ويستبدّ به الخيال فيطلب من نجوم الثريا السبع أن تتفرق بعد ائتلاف ، وتتقص بعد تمام ، وكأنّ الشاعر جزء من الطبيعة ممتزج بها ، متجاوب المشاعر معها)⁽¹⁾:

و يطلبُ ثاري البرقُ منصلتُ النّصلِ	ألم يأن أن يبكي الغمامُ على مثلي
لتنذبَ في الأفاق ما ضاع من نثلي	وهلاً أقامت أنجمُ الليلِ مآتماً
لألقُ بأيدي الذلِّ لمارأت نثلي	ولو أنصقتني وهي أشكالُ همتي
بمطلعها ما فرقَ الدهرُ من شملي ⁽⁴⁾	ولا فترقتُ سبعُ الثريا و غاضها

[الطويل]

ولما خاطب ابن زيدون صديقه أبا حفص بن برد وجد عزاءه في الطبيعة يتسلى بها ، ويأخذ منها ما يبعث الأمل في نفسه ، (فلئن حُبس وحُرِمَ نعمة الحرية والانطلاق فإنّ له عزاءً في الغيث المحتبس ، والأسد المنكمش ، والمقلة يعروها النعاس ، والمسك الذي يوطأ ويداس)⁽³⁾:

ولئن أمسيتُ محبوساً	فللغيثِ احتباسُ
يلبذُ الوردُ السبنتي	وله بعدُ افتراسُ
فتأملُ كيفَ يَغشى	مقلّةُ المجدِ النعاسُ
ويقتُ المسكُ في التُّر	ب فيوطأ و يداسُ
لا يكنْ عهدكُ ورداً	إنْ عهدي لكُ آسُ ⁽⁴⁾

[مجزوء الرمل]

ويشرك ابن زيدون الطبيعة في عشقه وهيامه ، فيطلب من البرق أن يباكر قصر محبوبته ، ويسقي من فيه ، ويردّ لساكنيه الجميل الذي قدّموه للشاعر عندما أسقوه ودّاً وهياماً ، كما يطلب من النسيم أن يحمل أشواقه وتحياته إلى محبوبته أملاً بأن يحمل ذلك النسيم أشواق محبوبته وتحياتها له :

يا ساري القصرِ غادِ القصرَ واسقُ به من كان صيرفُ الهوى والودُ يُسقينَا

(1) البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر لسعد إسماعيل شلبي : 92 .

(2) ديوان ابن زيدون : 159 .

(3) البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر لسعد إسماعيل شلبي : 93 .

(4) ديوان ابن زيدون : 83 .

و يا نسيم الصَّبَا بَلِّغْ تَحِيَّتَنَا مَنْ لَوْ عَلَى الْبُعْدِ حَيًّا كَانَ يُحْيِينَا⁽¹⁾

[البسيط]

و حين لجأ الشاعر إلى الزهراء ، وأرسل من هناك قصيدته القافية إلى محبوبته ،
وتشوق إليها وتلهف إلى لقاءها ، افتتن في قصيدته تلك بالطبيعة افتتاناً عظيماً ، فجعلها
تشاركه عواطفه وأشجانه ؛ فالنسيم العليل إنما اعتلّ تعاطفاً معه ، أمّا الندى الذي يجلّ
الزهر فما هو إلاّ دموع لذلك الزهر الباكي حزناً على ما حلّ بالشاعر :

إني ذكرك بالزهراء مشتاقاً والأفقُ طلقٌ ومرأى الأرضِ قد راقا
وللنسيم اعتلالٌ في أصائله كأنما رقّ لي فاعتلّ إشفاقاً
نلهو بما يستميلُ العينَ من زهر جالَ الندى فيه حتى مالَ أعناقاً
كانَ أعينه إذ عاينتُ أرقبي بكتُ لما بي فجالَ الدمعُ رقرقا⁽²⁾

[البسيط]

ويشترك الشاعر في الشكوى مع حمامة كانت تهدل على غصن ، وكان الليل قد
أرخی سدوله ، وكان الغصن قد تعاطف مع الشاعر والحمامة فأخذ يتمايل ويتحرك حزناً
على ما ألمّ بهما :

ورقأ قد شقها إذ شفتي حزنُ وأرق العين والظلماءُ عاكفةٌ
وبتأ يهفو ارتياحاً بيننا الغصن⁽³⁾ فبتُ أشكو وتشكو فوقَ أيكتهما

[البسيط]

ولا ينسى ابن زيدون وصف محبوبته التي كانت بيضاء الوجه يتوجها شعر
أصفر اللون :

ربيبُ منكُ كأنَّ اللهَ أنشأه مسكاً وقدَّرَ إنشَاءَ الوري طينا
أو صاغه ورقاً محضاً وتوجّه من ناصع التبرِ إبداعاً وتحسناً⁽⁴⁾

[البسيط]

كما لم يفث الشاعر وصف الأمكنة التي كان يجتمع فيها مع محبوبته ، إن كلَّ
شيء في تلك الأمكنة كان يعطف عليهما ويشهد حبهما ، لقد كانت تلك الأمكنة جميلة ؛
لأنها احتوت عليهما وشهدت لحظات أنسهما ، فوصف الشاعر تلك اللحظات التي قضاها
مع محبوبته في الزهراء وفي النبتي وفي الرصافة :

(1) ديوان ابن زيدون : 10 - 11 .

(2) ديوان ابن زيدون : 46 - 47 .

(3) ديوان ابن زيدون ورسائله : 162 .

(4) ديوان ابن زيدون : 11 .

و يوم بجوفى الرصافة مُبهِجٍ
 مررنا بروضِ الأقحوانِ المدبجِ
 وقابلنا فيه نسيمَ البنفسجِ
 و لاحَ لنا وردٌ كخُدِّ مضرَجِ
 نراه أمامَ النورِ وهو إمامٌ⁽¹⁾
 [الطويل]

لقد هذا الشاعر حذو الشعراء الجاهليين الذين كانوا يطنبون في وصف الأمكنة التي كانوا يجتمعون فيها مع محبوباتهم (وهم يتخذون ذلك وسيلةً لأمرين : الأول إحياء ذكرى تلك الأيام وما فيها ، والثاني أن الشاعر يعرف أن معاني العشق والحب سرعان ما تتفد ، فهو يتحايل على بث شيء من المعاني الأخرى التي لها صلة بذلك كي يتسنى له أن يجول في ميدان أوسع ليصل إلى التعبير عن مراده ، أو يمنع العقول من أن يدركها الملل ، فهو يستعين بذلك كما يستعين المصور الماهر بالألوان لإظهار الصورة التي يريد أن يبرزها)⁽²⁾.

لم يكن ابن زيدون الوحيد الذي وصف الطبيعة وأشركها في معاناته ، فهذا ابن عمار يصنع صنيعة ويتبع خطاه ، فيرثي حاله ويندب حظّه ، ويخيل إليه أن سائر الكائنات متعاطفة حزينة على مصابه ، فالغيوم المنهمرة تبكي على حاله ، والحمائم النائحة تتوح حزناً على ما حلّ به ، وصوت الرعد ولمعان البرق إنما يطلبان الثأر له ، أما النجوم الزهر في الليالي السوداء فقد لبست ثياب الحداد ، وأقامت المآتم حزناً عليه :

عليّ وإلا ما بكاءُ الغمامِ وفيّ وإلا ما نياحُ الحمائمِ
 وعني أثارُ الرعدِ صرخةً طالبِ نثارٍ وهزّ البرقِ صفحةً صارمِ
 وما لبست زهرُ النجومِ جِدادها لغيري ولا قامتْ لهُ في مآتمِ⁽³⁾

[الطويل]

لقد لجأ الشاعر الأندلسي إلى الوصف في أشعاره الاستعطافية ، وجعله غرضاً ثانوياً ليساعده على تحقيق ما كان يصبو إليه ، وأجاد في وصف الطبيعة حين جعلها تشاركه آلامه وأحزانه ، فبدأ وكأنه جزء منها ، تؤثر فيه ويؤثر فيها .

(1) ديوان ابن زيدون ورسائله : 130 .

(2) بلاغة العرب في الأندلس لأحمد ضيف : 80 .

(3) النخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 372 .

هـ - الهجاء :

كان الشاعر المستعطف يحاول تبرئة نفسه ؛ فينفي التهم المنسوبة إليه ، ويظهر نفسه بمظهر الإنسان البريء الذي افتري عليه أعداؤه وحساده كي ينالوا منه ، ويلحقوا به الأذى والضرر ، وكان الشاعر يحمل على أولئك الأعداء والحساد ، فهذا ابن زيدون يتهمهم بالافتراء عليه كما افتري أبناء يعقوب على أخيه يوسف - عليه السلام - :

كَانَ الْوَشَاءُ وَقَدْ مُتِّتْ بِأَفْكَهْمُ أَسْبَاطُ يَعْقُوبٍ وَكُنْتُ الذَّيْبَا⁽¹⁾

[الكامل]

٥٨٢١٥٤

وينعت الشاعر أعداءه بالمفسدين الذين يبرعون في إنكاء نيران الفساد ، وهم إنما تبادوا بإضرار الشاعر ؛ لأنه يفوقهم في قدره الرفيع ، ويسمو عليهم في خلقه الجميل :

فَدَيْتُكَ كَمْ أَلْقَى الْفَوَاحِرَ مِنْ عِدَا قِرَاهُمْ لِنِيرَانِ الْفَسَادِ ثِقَابُ
عَقَا عَنْهُمْ قَدْرِي الرَّفِيعُ فَاهْجَرُوا وَبَايْنَهُمْ خُلُقِي الْجَمِيلُ فَعَابُوا⁽²⁾

[الطويل]

وأولئك الأعداء ما هم إلا حمير تنهق ، وكلاب تنبح ، وذباب يطن ؛ لذا ينبغي عدم تصديقهم فيما يزعمون ؛ لأنهم وشاة كاذبون :

وَقَدْ تُسْمَعُ اللَّيْثُ الْجَحَاشُ نَهَيْقَهَا وَتُعْطِي إِلَى الْبَدْرِ النَّبَاحُ كِلَابُ
إِذَا رَاقَ حُسْنُ الرَّوْضِ أَوْ فَاحَ طَيْبِهِ فَمَا ضَرَّهُ إِنْ طَنَّ فِيهِ ذَبَابُ
فَعُدَّ بِيَدِ بِيضَاءٍ يَصْدَعُ صِدْقُهَا فَإِنْ أَرَا جَيْفَ الْعُدَاةِ كِذَابُ⁽³⁾

[الطويل]

ويحمل ابن زيدون على أصدقائه القدامى الذين تنكروا له وحادوا عن صداقته ، وأخذوا يتسقطون أخباره ، ويترقبون عقابه ؛ فكانوا كالذئاب التي تعتن فريستها استعداداً للانقضاض عليها :

مَا تَرَى فِي مَعْشَرِ حَا لَوْأَ عَنِ الْعَهْدِ وَخَاسُوا
وَرَأُونِي سَامِرِيًّا يَتَّقِي مِنْهُ الْمَسَاسُ
أَذُوبٌ هَامَتْ بِلَحْمِي فَانْتَهَاشَ وَانْتَهَاسُ

(1) ديوان ابن زيدون : 133 .

(2) ديوان ابن زيدون : 120 .

(3) ديوان ابن زيدون : 120 - 122 .

كلهم يسأل عن حالي

وللذنب اعتسأس⁽¹⁾

[مجزوء الرمل]

ونجد المعتمد بن عبّاد يحمل على الأعداء الغادرين الذين يختانون العهود ويغشون في النصيحة ، ويظهرون الحب لكنهم يبطنون ضده ، ويتظاهرون بتقديم النفع لكنهم لا يريدون إلا الضرر ، إن أولئك الأعداء يظهرون ما لا يبطنون ، لكنّ عداوتهم ظاهرة في ألفاظهم إن تحدثوا ، وفي عيونهم إن نظروا ، إنهم هم الذين يستحقون العقاب الشديد وليس المعتمد الذي أخطأ خطأ غير مقصود كانت نتيجته هزيمة نكراء في ساحة المعركة :

ما الذنب إلا على قوم ذوي دغلٍ وفي لهم عفوك المعهود إذ غدروا
قوم نصيحتهم غشٌ وخبهم بغضٌ ونفعهم إن صدقوا ضررُ
تميزُ الغيظُ في الألفاظِ إن نطقوا وتعرفُ الحقدُ في الألفاظِ إن نظروا⁽²⁾

[البسيط]

أما ابن عمار فيخصّ بني عبد العزيز بالهجوم ، حيث كان بين الشاعر وبينهم عداوة ؛ فأخذوا يفترون عليه ، وينسبون إليه ما لم يرتكبها ومعاب لم يقترفها كي يوغروا صدر المعتمد عليه فيعاقبه ، ويشمتون فيه :

ولا تلفتت رأي الوشاة و قولهم فكلُ إساءٍ بالذي فيه يرشخُ
سيأتيك في أمري حديثٌ وقد أتى بزورٍ من بني عبد العزيزِ موشخُ
تخيّلتهم لا درّ الله درهم أشاروا تجاهي بالشماتِ وصرّحوا⁽³⁾

[الطويل]

كان الشاعر المستعطف يهجو أعداءه وحسّاده في معرض دفاعه عن نفسه ، لكنه كان معتدلاً في هجائهم ، إذ أنه لم يشتم ولم يسف في ذمهم ، فقد كان يبغى الحصول على عطف مستعطفه ورحمته ، وليس إغاظه حسّاده وأعدائه .

و- الرثاء :

لم يدع الشعراء المستعطفون غرضاً من أغراض الشعر يستعينون فيه على تحقيق هدفهم إلا تناولوه في قصائدهم ومقطوعاتهم الاستعطافية ، وإن كان من الطبيعي أن يمزج الشاعر المستعطف استعطافه بالمدح أو الغزل أو الفخر أو الوصف أو هجاء

(1) ديوان ابن زيدون : 82 .

(2) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 48 . والحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 57 .

(3) قلاند العقيان لابن خاقان : 98 . والحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 154 .

الوشاة والأعداء ، إلا أنه من الغريب أن يتناول أغراضاً أخرى في استعطافه كالرثاء والحكمة ، لذا نادراً ما نجد هذين الغرضين في الأشعار الاستعطافية ، ونكاد لا نجد الرثاء إلا في الأشعار الاستعطافية لشاعرين اثنين : الأول هو ابن الحنات⁽¹⁾ الذي غضب عليه أبو الحزم بن جهور ؛ فأقصاه عن قرطبة ، وظل يعيش في المنفى طيلة حياة أبي الحزم ، وعندما توفي كتب ابن الحنات إلى ابنه أبي الوليد بن جهور يستعطفه ويرجوه كي يأذن له بالعودة إلى بلده مسقط رأسه قرطبة ، ونرى الشاعر يمهّد لاستعطافه برثاء أبي الحزم تارة ويمدح ابنه أبي الوليد تارة أخرى ، محاولاً بذلك استمالة قلبه وكسب عطفه ، لقد رأى ابن الحنات أن موت أبي الحزم كان رزاً عظيماً لم يخفف من وطأته إلا تولّى أبي الوليد الحكم بعده ؛ لأنّ أبا الحزم كان ملكاً كريماً تقياً ، ساس الرعيّة بالعدل والإنصاف ؛ فأثابه الله بأن أسكنه الجنان العلى ، أمّا ابنه أبو الوليد فقد اضطلع بمهام الأمر وسار على درب أبيه بسلوك مسالك الكرم والعدل والتقوى ؛ فكان خير خلف لخير سلف ، وكان مثاله وقد خلف أباه كمثل القمر الذي يخلف الشمس :

إِنَّا إِلَى اللَّهِ فِي الرِّزْعِ الَّذِي فَجَعَا	وَالْحَمْدُ لِلَّهِ فِي الْحُكْمِ الَّذِي وَقَعَا
وَلِي أَبُو حَزْمٍ مِنْ مَمْلُوكٍ تَقَلَّدَهُ	أَبُو الْوَلِيدِ فَعَزَّ الْمَمْلُوكُ وَامْتَنَعَا
أَبُ كَرِيمٍ غَدَا الْفَرْدُوسُ مَسْكَنَهُ	وَابْنُ نَجِيبٍ تَوَلَّى الْأَمْرَ وَاضْطَلَعَا
لِللَّهِ شَمْسُ الضُّحَى فِي اللَّحْدِ قَدْ غَرَبَتْ	فَاعْقَبَتْ قَمَرًا بِالسُّعْدِ قَدْ طَلَعَا ⁽²⁾

[البسيط]

وينتقل الشاعر لطلب العفو والصفح من أبي الوليد بن جهور راجياً منه أن يقبل زلله ويمنحه العفو الذي يأمله ، ويعرب الشاعر عن ثقته بعفو أبي الوليد ؛ لأنه - كأبيه - أمير محسن تقي سيختار الصفح عن المسيئين ، والتجاوز عن ذنوبهم ابتغاء مرضاة الله وثوابه ، وسيرد الشاعر الجميل لأمره إن هو عفا عنه ؛ فينظم فيه القصائد المادحة التي يمدحه بها ، ويشيد به ، ولسوف تمحو المدائح تلك القصائد السابقة التي انتقص فيها الشاعر من أبي الوليد وأبيه :

يا واحدَ الدينِ و الدنيا أقلّ زللاً	يدعوك جاتبه أن تقتصّ أو تدعا
لو أنه أعطى الدنيا بما رُحبت	ولم يتلّ عفوك المأمول ما قتعا

(1) ابن الحنات : محمد بن سليمان الرعيّني ، ويعرف بابن الحنات ، كان مكفوفاً ، برع في الأدب والبلاغة والشعر ، كما كان حائقاً بالطب والفلسفة ، توفي عام 437هـ في الجزيرة الخضراء . ينظر : الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 437 . وبغية الملتبس لابن عميرة الضبي : 77 .

(2) الذخيرة لابن بسام ، قسم 1 ، مجلد 1 : 449 .

وما عساك سوى الإحسان تصنعه
وليمحون مديحي فيك من كتب
إلى مسيء رجا عتباك فارتجعا
محوأ حديث ملامي حيثما سمعاً⁽¹⁾

[البسيط]

أما الشاعر الثاني الذي تناول الرثاء في استعطافه فهو المعتمد بن عباد ، وكما مرّ بنا فقد استعطف المعتمد سجانته يوسف بن تاشفين تلميحاً لا تصريحاً ، وحاول استثارة عطفه بشتى الوسائل ، فتارة مدح ابن تاشفين ، وتارة ثانية تحدّث عن معاناته في السجن ، وتارة ثالثة وازن بين ما كان عليه وما آل إليه ، وتارة رابعة تحدّث عن مصير أبنائه وبناته بعد محنته ، لقد عاشت بناته وما تبقى من أبنائه الصغار في ضنك شديد ، أما أبنائهم الكبار فقد قتلوا ، وها هو يرثيهم بفؤاد حزين ، ودمع غزير ، لقد كان فقد المعتمد لأبنائه حلقة في سلسلة مصائب حلّت بساحته ؛ فقد عزل عن ملكه ، وزجّ في السجن ، وتشردت بناته ، وقتل أبنائهم ، وقيد زوجته بالسلاسل والأصفاد ، وكانا يتقاسمان المعاناة والبكاء تحسراً على حالهما ، وحرناً على فراق أبنائهما :

هوى الكوكبان الفتح ثم شقيقه
أفتح لقد فتحت لي باب رحمة
توليتما و السن بعد صغيرة
فلو عدتما لاخترتما العود في الثرى
أبا خالد أورتتني الهمة خالداً
وقبلكما ما أودع القلب حسرة
يزيد فهل بعد الكواكب من صبر
كما بيزيد الله قد زاد في أجري
ولم تلبث الأيام إن صغرت قدري
إذ أنتما أبصرتما في الأسر
أبا نصر مذ ودعت ودعتي نصري
تجدد طول الدهر ثكل أبي عمرو⁽²⁾

[الطويل]

لقد كان شعر المعتمد يقطر حزناً وأسى ، فحديثه عن معاناته وآلامه وموزانته بين عزه وذلّه ، ورثاؤه لأبنائه جعلت الذين يطلعون على أشعاره يتعاطفون معه ، ويرثون لحاله ، أما سجانته يوسف بن تاشفين فقد أصرّ على إيقائه في سجنه مقيداً حتى قضى نحبه فيه ، لقد أثر المعتمد السجن وآلامه على استعطاف ابن تاشفين ، ومخاطبته مخاطبة الخاضع الذليل الذي يلتمس الرحمة ، ويستجدي العطف .

(1) الذخيرة لابن بسام ، قسم 1 ، مجلد 1 : 450 .

(2) قلائد العقيان لابن خاقان : 12 .

ز- الحكمة :

كانت الحكمة من الأغراض التي قلما تناولها الشعراء في أشعارهم الاستعطافية ، إذ إننا لا نجد سوى شاعرين اثنين تناولوا هذا الغرض خلال استعطافهما ، الأول : ابن زيدون الذي نكب بعدما سخر شبابه لخدمة أميره أبي الحزم ؛ فوقف إلى جانبه ، وعمل معه بكل قواه ، وساهم في تثبيت أركان حكمه ، وأخذ يمدحه ، ويثني عليه في قصائده وأشعاره ، فكان مصيره السجن ، فلم تنفعه مواقفه السابقة مع أميره ، ولا قصائده المادحة له ، أما أولئك الذين لم يعملوا عمله ، ولم يقفوا مواقفه فكان جزاؤهم التبجيل والترفيح ، لقد استخلص الشاعر من محنته العبر ، وأدرك أن المرء المجدد قد لا ينال ما يتمناه وإن جدّ في سبيل ذلك واجتهد ، أما الإنسان القاعد الخامل فقد ينال ما لم يسع إليه ، وما لم يجتهد في سبيل تحقيقه ، لقد صاغ الشاعر هذه المعاني في قصيدة أرسلها إلى صديقه أبي حفص بن برد استهلها بالحكمة ؛ فرأى أن الأمور المقتررة سنتق لا محالة سواء غفل الإنسان عنها أو تنبّه لها واحترس ؛ فالغفلة قد تنجي أحيانا ، أما التيقظ فقد يودي بصاحبه إلى الهلاك ، كما أن الدنيا حظوظ ، فمن حالفه الحظ لا يضيره فعود أو تكاسل ، أما من لا يحالفه فلا ينفعه جدّ ولا اجتهاد ، إن سنة الحياة قضت بأن يعزّ أناس ويذلّ آخرون ، فالبشر مختلفون ؛ منهم السادة الرفعاء ، ومنهم الأذنياء الحقرء ، وكلا الفريقين متمسك بحياته متمتع بها ، سواء كان شريفاً من الأشراف أو خسيساً من الخسّاس :

ربما أشرف بالمر	ع على الآمال ياس
ولقد ينجيك إغفا	ل ويرديك احتراس
ولكم أجدى فعود	ولكم أكدي التماس
وكذا الدهر إذا ما	عزّ ناس ذلّ ناس
وبنو الأيام أخياف ⁽¹⁾	سراة و خسّاس
نلبس الدنيا ولكن	متعة ذاك اللباس ⁽²⁾

[مجزوء الرمل]

أما الشاعر الآخر فهو ابن حداد الذي استهل قصيدة من قصائده بالحكمة قبل أن يسترحم ابن صمّادح ، ويرجوه إطلاق سراح أخيه المعتقل ، لقد رأى الشاعر أن الإنسان

(1) الأخياف : الناس المختلفون في الأخلاق . ينظر : المعجم الوسيط ، ج 1 : 26 .

(2) ديوان ابن زيدون : 82 .

منقاد لحكم زمانه ، وأن الدهر يرفع أقواماً ، ويذلّ آخرين ، فإذا رفع الدهر من شأن أحد أو أذله فإنه لا يفعل ذلك عن تعمد أو سابق إصرار ، ويكون بذلك كالسحاب الذي يفيد غيئه ناحية وقد يضرّ أخرى ، ويرجع الشاعر النفع والضرر إلى الله تعالى لا إلى الدهر أو المزن ، فعلى الإنسان أن يكون راضياً بحكم الله وقضائه :

الدهرُ لا ينفكُ عن حدثاته والمرءُ مُنقادٌ لحُكمِ زَمَانِهِ
فَدَعِ الزَّمانَ فَإِنَّهُ لَمْ يَعْتَمِدْ بِجِلالِهِ أَحداً و لا بِهَوائِهِ
كالمزْنِ لَمْ يُخَصَّصْ بِنَافِعِ صَوابِهِ أفقاً ولم يَخْتَرْ أذى طَوفانِهِ
ولكن لباريهِ بِوَاطنِ حِكمةٍ في ظاهِرِ الأَضدادِ مِن أكوانِهِ⁽¹⁾

[الكامل]

ويرى الشاعر أن الحظوظ تلعب دوراً كبيراً في إسعاد المرء وإتعاسه ؛ فالإنسان مهما سعى فإنه لن يصل إلى مبتغاه ، ولن يحقق أمانيه ما لم يكن حطيظاً ؛ فاجتهاد الإنسان وسعيه إذا لم يقترنا بحظّ كانا كالرمح الذي لا سنان له :

وعلمتُ أن السعيَ ليسَ بِمُنتجِجٍ ما لا يكونُ السَّعدُ مِن أعوانِهِ
والجدُّ دونَ الجدِّ ليسَ بِنَافِعٍ والرمحُ لا يمضي بِغيرِ سنانِهِ⁽²⁾

[الكامل]

لقد نجح ابن حداد في تحقيق ما كان يصبو إليه ، فما أن بلغت الأبيات المعتصم ابن صُمادح حتى قال : (شعره أعدل منه ، صدق فإنه لا يتهياً له صلاح عيش إلا بأخيه وهو منه بمنزلة السنان من الرمح ، ثم أمر بإطلاقه ولحاقه به)⁽³⁾.

لقد كانت الحكمة في الشعر الأندلسي بعامة دون نظيراتها في الشعر المشوقي ، فقلّة قليلة من شعراء الأندلس تناولها في أشعارهم ، وهؤلاء لم يبلغوا مبلغ نظرائهم المشاركة ، فكانت أشعارهم في الحكمة قليلة ، كما كانت معانيهم فيها سطحية .

لقد رأينا في هذا الفصل أن الشعراء المستعطفين كانوا لا يدعون غرضاً شعرياً يظنون أنه يساعدهم على تحقيق هدفهم إلا تناولوه ، وجعلوه بجانب الاستعطاف غرضهم الرئيس ؛ فخلطوا استعطافهم بالمديح والفخر والغزل والوصف والهجاء والرثاء

(1) ديوان ابن حداد : 301 .

(2) ديوان ابن حداد : 302 .

(3) نفع الطيب للمقري ، ج 4 : 49 .

والحكمة، وقلماً نجد قصيدة أو مقطوعة شعرية استعطافية لسم يمزج الشاعر فيها الاستعطاف بغرض واحد أو أكثر من الأغراض الشعرية السابقة .

لقد كانت بعض الأغراض الشعرية ملائمة للاستعطاف ساعدت الشاعر في تحقيق مأربه والوصول إلى هدفه ؛ فالمديح كان يتطرق إليه الشاعر المستعطف استمالة لقلب من يخاطبه واستدراكاً لعطفه ، وقد درج الشعراء المستعطفون سواء أكانوا في المشرق أم في الأندلس على مزج استعطافهم بمدح من يستعطفون ، والثناء عليهم والتعبير عن حبهم ، إلا أن مدحهم كان فاتراً ، ويفتقر لصدق العاطفة ؛ لأن الشاعر لا يعقل أن يحب من نكبه وعاقبه ؛ فيشرع بمدحه ويثني عليه .

أما الشعراء الذين فخرُوا بأنفسهم ، فكان فخرهم ملائماً لاستعطافهم حيناً ، وغير ملائم حيناً آخر ، فعندما ذكّر الشاعر الحاكم بخدماته ومواقفه الجليلة التي قدمها له ولدولته أراد من وراء ذلك لفت نظر ذلك الحاكم إلى أن مناقبه عديدة ، وحسناته كثيرة ، وأن الذنب الذي اقترفه ينبغي أن لا يُنسى الحاكم تلك المناقب والحسنات التي قدمها إليه في سالف الأيام ، فكان هذا الفخر مناسباً في معرض الاستعطاف ، والأمر ذاته ينطبق على الابن الذي استعطف أباه ، وفخر بشجاعته ودماثة أخلاقه ، فكان ذلك حافزاً للأب كي يمنح ابنه العفو الذي ينبغي ، والعطف الذي ينشد .

أما عندما فخر الشاعر بنفسه أثناء استعطافه ، وظهر وكأنه متكبر ومتعال على غيره فقد كان فخره ذاك وبالأعلى عليه ، إذ أنه بعمله هذا ألب عليه صدر الحاكم الذي أصر على عقابه ؛ لإذلاله وكسر شوكته ؛ لأن عادة الحكام جارية بإيثار اعتراف الخدام لهم بالتقصير والتفريط⁽¹⁾، وإظهارهم التذلل والانكسار خلال استعطافهم .

كما نجد الغزل غرضاً ملائماً اختلط باستعطاف المحب محبوبته الواجدة عليه البعيدة عنه ، وكان الشاعر صادق العاطفة في تغزله ، إذ إن صدقه في حبها وإخلاصه لها جعله يذرف الدموع حزناً على فراقها وأسفاً على بُعدها ، لقد تحدّث الشاعر عن ضنك عيشه وبؤس حياته ؛ بسبب ابتعاد محبوبته عنه ، عساه بذلك يستميل قلبها ويستدر عطفها .

كذلك كان الوصف غرضاً لائقاً للاستعطاف ، والوصف في الأشعار الاستعطافية كان يتمثل في شكلين اثنين : الأول وصف مادي ، حيث وصف الشاعر أموراً مادية ملموسة كسجنه وقيده ومحبوبته ، أما الشكل الثاني فنستطيع تسميته وصفاً

(1) صبح الأعشى للقلقشندي ، ج 9 : 165 .

معنوياً ، حيث وصف الشاعر حاله البائس أثناء نكبته كما وصف حال من قاسموه تلك النكبة من أزواج وأبناء وبنات .

أمّا الهجاء فقد اقتصر على هجاء الأعداء والوشاة الذين اتّهمهم الشاعر بالافتراء عليه ، وبين أن الكذب والحسد والنفاق وغيرها من الصفات الدنيئة هي ديدن أولئك الوشاة والمفتريين ، لقد بدا الشاعر المستعطف مؤدباً إلى حدّ ما خلال هجائه أعداءه ؛ ذلك أنه لم يشتط ولم يسرف في ذمهم ؛ لأنّه أراد إظهار نفسه بمظهر الإنسان البريء المفتري عليه المغلوب على أمره أمام أميره .

لقد كان الرثاء فاتراً في الأشعار الاستعطافية ، يفتقر لصدق العاطفة ، وبخاصة عندما كان الشاعر المستعطف يرثي من نكبه ويتحسر على موته ، وكان رثاؤه له مقدماً لطلب العفو من خليفته ، أمّا عندما كان الشاعر يرثي أهله وآل بيته الذين فقدهم في نكبته فكانت عاطفته صادقة ، وكان رثاؤه لهم يقطر حزناً وأسى ؛ ممّا جعل المطلعين على شعره يتعاطفون معه ، ويشاطرونه تحسّره ولوعته .

وخلط الشعراء استعطافهم بالحكمة ، وكانت الحكمة في أشعارهم سطحية المعاني ، وتأثر شعراء الحكمة الأندلسيون - على قلتهم - بنظرائهم المشاركة ؛ فجاءت الحكمة في أشعارهم دون نظيراتها في الشعر المشرقي كماً ونوعاً .

الفصل الرابع
السّمات الفنيّة لشعر الاستعطاف
في عصر ملوك الطوائف

الفصل الرابع

السمات الفنية لشعر الاستعطاف في عصر ملوك الطوائف

- يلفت انتباه الدارس للشعر الأندلسي في عصر ملوك الطوائف الكثرة الوفيرة لشعر الاستعطاف ، هذا الشعر الذي تعددت سماته ، بحيث لا يستطيع الباحث أن يحيط بها كلها أو يعرضها مفصلة ، ومن هنا رأيت أن أكتفي بالحديث عن السمات الفنية البارزة ، وهي - كما يرى الباحث - تتمثل في :
- أولاً : بناء القصيدة .
 - ثانياً : اللغة .
 - ثالثاً : الخيال والصور .
 - رابعاً : المحسنات المعنوية واللفظية .
 - خامساً : الأوزان والقوافي .
 - سادساً : استلهام التراث .
- وسأتناول فيما يلي كل سمة من هذه السمات بشيء من التفصيل .

أولاً : بناء القصيدة :

يجدر بنا قبل الحديث عن هذا الموضوع العودة إلى فروع شعر الاستعطاف ، فقد عرفنا أن شعر الاستعطاف يتفرع في فروع ثلاثة ، هي : استعطاف الحاكم ، واستعطاف المحبوبة ، واستعطاف الوالد ، وقد رأينا أن الفرع الأول يستحوذ على القسم الأكبر من الأشعار الاستعطافية ، وهذا الفرع نستطيع تقسيمه إلى قسمين : الأول مخاطبة الحاكم واستعطافه ، أما الثاني فهو مخاطبة وسيط عله يتوسط للشاعر ويتشفع فيه ، ونبدأ بالحديث عن القسم الأول فنلاحظ أن حجم الأشعار التي نظمها الشعراء المستعطفون لم يكن واحداً ، إذ إننا نجد القصائد الطوال ، كما نجد المقطوعات الشعرية التي لا تتعدى بضعة أبيات ، إن القصائد الطوال كان أصحابها من الشعراء المتميزين في الأدب الأندلسي كابن زيدون وابن عمار وهما - كما نعلم - من فحول شعراء الأندلس ، ومقدرتهما الأدبية تمكنهما من نظم تلك القصائد ، فقد خاطب الشاعر الأول سجانَه واستعطفه بقصائد طويلة ولا نجد له إلا مقطوعة شعرية واحدة في هذا المضمار وهي :

قُلْ لِلْوَزِيرِ ، وَقَدْ قَطَعْتُ بِمَدَجِهِ زَمَنِي ، فَكَانَ السَّجْنُ مِنْهُ ثَوَابِي
لَا تَخْشَ فِي حَقِّي بِمَا أَمْضَيْتَهُ مِنْ ذَاكَ فِيَّ ، وَلَا تَسَوْقُ عِتَابِي
لَمْ تُخْطِ فِي أَمْرِي الصَّوَابَ مَوْفَقًا هَذَا جَزَاءُ الشَّاعِرِ الْكَذَّابِ⁽¹⁾

[الكامل]

أما قصائده التي وقفت عليها فهي : اللامية⁽²⁾ والرائية⁽³⁾ واللامية الثانية⁽⁴⁾ وقصيدتين بائيتين⁽⁵⁾ وقصيدة حائية⁽⁶⁾ ، أما الشاعر الثاني فقد استعطف المعتمد

(1) ديوان ابن زيدون : 255 .

(2) ومطلعها : ألم يأن يبكي الغمام على مثلي ويطلب تأري البرق منصلت النصل . الديوان : 159 .

(3) ومطلعها : ما جال بعدك لحظي في سنا القمر إلا نكرتك ذكر العين بالأثر . الديوان : 147 .

(4) ومطلعها : (إيائي) في جواركم الدليل وحدّي في رجائك الكليل . الديوان : 164 .

(5) مطلع الأولى : أما علمت أن الشفيح شباب فيقصر عن لوم المحب عتاب . الديوان : 113 . والثانية :

هذا الصباح على سراك رقيباً فصلّي بفرعك ليلك الغريبيا . الديوان : 130 .

(6) ومطلعها : أما والحاظ مراض صحاح تصبي وأعطاف نشاوى صواح . الديوان : 145 .

في غير حادثة ، وكانت له في ذلك قصائد طوال كالميمية⁽¹⁾ والبائية⁽²⁾ والثائية⁽³⁾ والحائية⁽⁴⁾، ولا نجد له إلا مقطوعة شعرية واحدة كان قد كتب بها إلى المعتمد يقول فيها:

نَفْسِي تَحْنُ إِلَى فِدَاءِ	تَفْدِيكَ نَفْسِي مِنْ شِرَاءِ
فَاسْبِقْ بِنَفْسِكَ وَعَدَاهِمِ	مُسْتَرَحِصًا لِي بِالْغَلَاءِ
ثُمَّ امضِ فِيَّ عَلَى اخْتِيَا	رِكَ مِنْ فَنَاءِ أَوْ بَقَاءِ
وَ اللَّهِ مَا أُدْرِي إِذَا	قَالُوا غَدًا يَوْمَ اللَّقَاءِ
مَا أَقْتُلُ الْحَالِيْنَ لِي	إِنْ كَانَ خَوْفِي أَوْ حَيَايِ ⁽⁵⁾

[مجزوء الكامل]

أما المعتمد فكان كسابقه فحلاً من فحول الشعراء ، ولكنه استعطف ابن تاشفين تلميحاً لا تصريحاً ، فكان الاستعطاف في شعره غير جلي ، لقد نظم المعتمد في سجنه الكثير من القصائد والمقطوعات الشعرية ، ولكنني وقفت له عند مقطوعتين نستشف منهما استعطافاً مقنعاً ، الأولى ومطلعها :

فِي مَا مَضَى كُنْتُ بِالْأَعْيَادِ مَسْرُورًا	فَسَاءَكَ الْعَيْدُ فِي أَغْمَاتِ مَأْسُورًا ⁽⁶⁾
--	---

[البسيط]

أما الثانية فقد استهلها بقوله :

قَيْدِي أَمَا تَعْلَمُنِي مُسْلِمًا	أَبَيْتَ أَنْ تُشْفِقَ أَوْ تَرْحَمًا ⁽⁷⁾
-------------------------------------	--

[السريع]

(1) ومطلعها : علي وإلا ما بكاء الغنائم ؟ وفي وإلا ما نياح الحمام ؟ . الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 372 . وتاريخ الأدب العربي لعمر فروخ ، دار العلم للملايين - بيروت ، ط 4 ، 1997م : 643 .

(2) ومطلعها : أصدق ظني أم أصيخ إلى صحبي وأقضي غريمي أم أعوج مع الركب ؟ الحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 135 . وينظر : قلاند العقيان لابن خاقان : 90 . وقد اختلفت رواية البيت الأول في المصدرين والرواية المذكورة من الحلة السيرة .

(3) ومطلعها : لك المثل الأعلى ما أنا حارث ولا أنا ممن غيرته الحوادث . الحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 143 .

(4) ومطلعها : سجايك إن عاقبت أئدى وأسمخ وعذك إن عاقبت أجلي وأوضخ . الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 420 . وينظر : قلاند العقيان لابن خاقان : 98 .

(5) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 420 .

(6) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 73 . وينظر : شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ، ج 3 : 388 .

(7) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 73 . وينظر : شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ، ج 3 : 379 .

ونجد ابن غصن وابن سيده وابن حداد وابن اللبانة قد استعطفوا بقصائد وإن كانت دون قصائد ابن زيدون وابن عمار طولاً ، أما ابن أزرُق والفُكَيْك فقد استعطفوا أميرهما بمقطوعات تتكون من بضعة أبيات . وعندما كان الشاعر يفشل في تحقيق هدفه المتمثل في استدرار عطف حاكمه ، والحصول على عفوه وصفحه كان يلجأ إلى مخاطبة وسيط علّه يتوسط له ويتشفّع فيه ؛ فابن زيدون خاطب ثلاثة من أصدقائه بقصائد طوال⁽¹⁾ . أما ابن عمار فقد خاطب أبناء المعتمد الثالث ؛ فخاطب الراضي بمقطوعة ، ثم خاطب أخويه الرشيد والمأمون بقصيدتين تكادان تتساويان في طولهما ، كما خاطب صديقاً له بقصيدة مطلعها :

أدركَ أخاكَ ونوَّ بقافيةٍ كالأظلمِ يوقظُ نائمَ الزَّهرِ⁽²⁾

[الكامل]

حيث استشفّع فيها بصديقه ، ورجاه أن يبذل مساعيه من أجل إطلاق سراحه ، وتخليصه من نكبته .

لقد فشل كلا الشعارين وأخفقا في الحصول على العفو الذي كانا يصبوان إليه ، أما ابن غصن فرأى أن يخاطب ملك سرقسطة (المقتدر) ويطلب شفاعته ؛ حيث خاطبه بقصيدة أنت أكلها ، إذ إنه نال العفو ، وخرج من سجنه بفضل شفاعته المقتدر . ويمكننا القول : إن القصائد الطوال كانت الأعم الأغلب في الأشعار الاستعطافية فقد رأى الشعراء أن يطيلوا في أشعارهم الاستعطافية ؛ ليطنبوا في الحديث عن معاناتهم، وليلحوا على مَنْ يخاطبون من أجل الحصول على عطفهم وعفوهم ، وليمزجوا استعطافهم بأغراض شعرية أخرى رأوا أنها تساعدهم في تحقيق هدفهم ، أما المقطوعات الشعرية فكانت قليلة ؛ ويرجع السبب في ذلك إلى أن بعضها قد يكون جزءاً من قصائد لم تصل إلينا كاملة ، أو لأن الشاعر اكتفى بإنشائها بهذا الحجم ظناً منه أنها تفي بالحاجة التي نُظمت من أجلها ؛ فابن عمار - مثلاً - خاطب الراضي بن المعتمد واستشفّع فيه بدايةً بمقطوعة ، وعندما أخفق في الحصول على شفاعته رأى أن يخاطب

(1) خاطب أبا حفص بن برد بقصيدة مطلعها :

ما على ظني باس يجرح الدهر وياسو . الديوان : 81 .

وخاطب أبا بكر مسلم بن أفلح بقصيدة مطلعها: شحطنا وما بالدار ناي ولا شحطُ وشطُ بمن نهوى المزار وما شطوا .

الديوان : 84 . وخاطب صديقاً آخر بقصيدة مطلعها :

الهوى في طلوع تلك النجوم والمنى في هبوب ذاك النسيم . الديوان : 123 .

(2) قلائد العقيان لابن خاقان : 92 .

أخويه بقصيدتين ، ويلجّ عليهما إلحاحاً أشد من إلحاحه على الراضي كي يتوسطا له ويتشفعا فيه .

قلما نجد مقطوعة أو قصيدة استعطافية اقتصرت على موضوع الاستعطاف ؛ فالمقطوعات والقصائد حوت إلى جانب الاستعطاف أغراضاً ومواضيع أخرى تحدثت عنها في الفصل السابق ، وكان المديح أكثر الأغراض الشعرية ملازمة للاستعطاف .

وأمر آخر أودّ الحديث عنه هنا وهو مقدمات القصائد ، فقد رأينا أن الشعراء المستعطفين لم يستهلوا قصائدهم في موضوع واحد ، فبعضهم حذا حذو الأقدمين وافتتح قصائده بذكر المرأة والتغزل بها ؛ فابن زيدون استهل ستاً من قصائده التسعة التي وقفت عليها بمقدمات غزلية ، وكانت تلك المقدمات حافلة بمشاعر التوجّع والشوق وآلام الحب واضطرابات العشق ، الأمر الذي يجعلنا نشعر أن تلك المقدمات وإن كانت غزلية فإنّها لا تتفصل عن الموضوع الأساسي وهو الحديث عن آلامه ومعاناته في سجنه قبل أن يفضي إلى استعطاف ابن جهور ، أو طلب الشفاعة من أصدقائه .

كما استهلّت بعض القصائد الاستعطافية بوصف الطبيعة ، والتمس الشعراء من عناصرها الرحمة ، وجعلوها تشاركهم آلامهم وأحزانهم ، ونشاطهم صعابهم ومآسئهم ، وينطبق ذلك على ابن زيدون في لاميته الأولى ، وعلى ابن عمار في قصيدته الميمية ، لقد بدت عناصر الطبيعة في هاتين القصيدتين نائرة وغاضبة وحزينة على ما حلّ بالشاعرين فكانت المقدمة في القصيدتين مدخلاً ملائماً عبّر الشاعران من خلالها عما يجيش في صدريهما من مشاعر وأحاسيس .

وافتتحت قصائد أخرى بالحكمة ، فقد افتتح ابن زيدون قصيدته السنينية التي يخاطب فيها صديقه أبا حفص بن برد ويرجوه أن يتشفع فيه افتتحها بالحكمة وصنع صنيعه ابن حداد عندما خاطب ابن صمادح ورجاه أن يطلق سراح أخيه السجين ، أما ابن عمار فقد استهل قصيدته البائية التي أرسلها إلى المعتمد بالوصف ، حيث وصف حاله البائسة وأموره المضطربة ، ثم افتتح قصيدته الثائية بهجاء الأعداء والوشاة والهجوم عليهم ، ولما استشفع بأبناء المعتمد بدأ المقطوعة التي خاطب فيها الراضي بمدحه وبمدح والده ، وكذلك فعل ابن غصن الحجاري عندما استشفع بعاهل سرقسطة ؛ فاستهل القصيدة التي أرسلها إليه بمدحه والإشادة به ، وفعل الفُكَيْك أيضاً في مقطوعته اللتين بدأهما بمدح المعتمد ، أمّا ابن الحناط فرأى أن يستهل مقطوعته التي أرسلها إلى أبي الوليد بن جهور برثاء لوالده ومدح له .

كان الشعراء المستعطفون يفتتحون قصائدهم بافتتاحيات يجعلونها مقدمة لاستعطفهم ، وكان هذا الأمر في بدايات محنهم ، أما عندما طالت معاناتهم ، وبدأ اليأس يتسرب إلى نفوسهم اختلف أمرهم ؛ فأخذوا ينظمون القصائد التي يستهلونها بالاستعطف مباشرة ، فهذا ابن زيدون يستعطف سجانته بعدما طالت نكبته وأذله السجن وطعن كبريائه في الصميم ، فيخاطبه في قصيدته اللامية الثانية ، ويستهلها بالاستعطف المهين، حيث رجا سجانته بتذلل وهوان أن يعفو عنه ويخلصه من النكبة التي وقع فيها . وذات الأمر نجده عند ابن عمار الذي طالت معاناته ، وأدرك أن تلك الأشعار الاستعطافية التي أرسلها إلى المعتمد وإلى أبنائه لم تُجد نفعاً ، فرأى أن يستعطف المعتمد بقصيدة حائية بدأها بالاستعطف مباشرة ، وكادت تلك القصيدة أن تكون سبباً في العفو عنه لولا خطأ ارتكبه قرّب المنية منه ، أما ابن سيده الضرير فكان شديد الخوف والجزع من إقبال الدولة ؛ فاستهل القصيدة التي خاطبه فيها بالاستعطف مباشرة .

وخلاصة القول أن الشاعر عندما كان في مفتتح نكبته وبداية محنته كان يظن أن محنته ستزول وشدته ستدول ، وأن ما يتعرض له سحابة صيف ستقشع ؛ فأخذ ينظم القصائد ويجودها ، ويتقن فيها ، ويضمنها أغراضاً شتى يكون الاستعطف إحداها ، وكان الشاعر يهدف من ورائها إلى إظهار مقدرته الشعرية ، ثم الحصول على العفو والصفح، أما عندما طالت محنة الشاعر ، وكسرت جناحه وفلت حذّه لم يعد له إلا هدف واحد وهو الانفكاك من قيود المحنة التي قيدته ؛ فأخذ ينظم القصائد التي يستعطف بها الحاكم ، ويبدأ قصيدته بالاستعطف والمديح ، ولا يتطرق فيها إلى غرض آخر سواهما . أما بالنسبة لتلك الأشعار الاستعطافية التي خاطب الشاعر فيها محبوبته، فتراوحت بين قصائد طوال ومقطوعات قصيرة ؛ فابن زيدون الذي لم نجد له إلا مقطوعة واحدة في استعطف سجانته نجد له مقطوعات عديدة في استعطف محبوبته كما كان له قصائد طوال أشهرها النونية⁽¹⁾ والقافية⁽²⁾ واللامية⁽³⁾ والحائية⁽⁴⁾، وابن حداد أيضاً خاطب محبوبته مستعظفاً إياها بالقصائد الطوال والمقطوعات القصار ، أما ابن راشد وابن أبي البشر فقد خاطب كل منهما محبوبته بمقطوعات ، ولعل مقدره هذين الشعارين الشعرية لم تمكنهما من نظم القصائد الطوال كما فعل من سبقهما .

(1) ومطلعها : أضحي التتائي بديلاً من تدانينا
(2) ومطلعها : إني نكرتك بالزهراء مشتاقا
(3) ومطلعها : لئن قصر اليأس عنك الأمل
(4) ومطلعها : إليك من الأنام غدا ارتياحي
وناب عن طيب لقيانا تجافينا . الديوان : 9 .
والأفقُ طلقٌ ومرأى الأرض قد راقا . الديوان : 46 .
وحال تجنيك دون الحيل . الديوان : 34 .
وأنت على الزمان مدى اقتراحي . الديوان : 48 .

كانت القصائد والمقطوعات التي استعطف بها الشعراء محبوباتهم تحوي أغراضاً شتى ، ويأتي في مقدمتها التغزل بالمحبوبة ، ووصف حال الشاعر بعدما هجرته محبوبته وابتعدت عنه ، أما بدايات القصائد الغزلية الاستعطافية فلم تكن واحدة وإن كانت في مجملها تعبر عن بؤس الشاعر وشقائه ؛ بسبب ابتعاد محبوبته عنه ، لقد استهلّت بعض القصائد بإجراء موازنة بين ماضي الشاعر السعيد عندما كان ينعم بقيوب محبوبته ووصالها وبين حاضره البائس بسبب بعدها عنه وهجرها إياه⁽¹⁾، وأشعار أخرى استهلّت بحديث الشاعر عن حزنه الدائم وبكائه المتواصل⁽²⁾، ونجد ابن حداد يستهل قصيدة له بالتوسل لمحبوبته النصرانية ، ويستحلفها بعيسى - عليه السلام - كي تعطف عليه وتمنحه الوصال الذي يبتغيه⁽³⁾.

كان النصيب الأقل من الأشعار الاستعطافية موجهاً إلى الوالد الواجد على ابنه ، وقد وقفت عند ثلاث قصائد ومقطوعة شعرية واحدة ، القصيدة الأولى للمعتمد افتتحها بدعوة والده إلى التصبر ونبذ الحزن والهمّ جانباً ، ثم مدحه وأشاد بشجاعته ، وانتقل لوصف حاله البائسة ونفسه المنكسرة بعدما وصله تهديد أبيه ووعيده ، وحمل على الأعداء والوشاة الذين يبتغون ما لا يظهرون ، وفخر بنفسه وبدمائه أخلاقه ، ثم أفضى بعد ذلك إلى استعطاف والده وطلب العفو والصفح منه .

وأما القصيدتان الأخريان فكانتا للراضي بن المعتمد شاعر بني عبّاد بعد أبيه ، وقد افتتحها بالاعتذار من والده ، ثم فخر بالقصيدة الأولى بنفسه قبل أن يستعطف والده ، أما في الثانية فقد استعطف والده أولاً ثم توسل بابنه الصغير الذي حمل القصيدة لوالده لينال رضاه ويستدر عطفه .

يتضح لنا من الحديث السابق أنّ الأشعار الاستعطافية إما أنها كانت منظومة في قصائد طوال - وهو الأعم الأغلب - وإما في مقطوعات لا تتعدى بضعة أبيات ، ثم لاحظنا أنّ المقطوعة أو القصيدة الاستعطافية احتوت على أغراض شعرية شتى ظنّ الشاعر أنها تساعد في تحقيق هدفه ، إذ إنّنا لا نجد قصيدة شعرية واحدة اقتصرت على

(1) كما في نونية ابن زيدون الشهيرة . ديوانه : 9 .

(2) كما في مقطوعتين لابن حداد ، الأولى مطلعها :

إنّ المدامع والزفير قد أعلننا ما في الضمير . ديوانه : 222 .
والثانية مطلعها :

رويدك أيها الدمع الهتون قدون عيان من أهوى عيون . ديوانه : 264 .

(3) والقصيدة مطلعها :

عساك بحق عيساك مريحة قلبي الشاكي . ديوانه : 241 .

موضوع الاستعطاق وإن كنا واجدين ذلك في المقطوعات الشعرية الاستعطاقية ، ثم إن افتتاحيات القصائد اختلفت من قصيدة لأخرى ، فبعضها حذا أصحابها حذو الأقدمين فافتتحوها بالنسيب وذكر المرأة ، وبعضها استهلّت بوصف الطبيعة والاتجاء إليها ، وأحياناً كان الشاعر يفتح قصيدته بالاستعطاق مباشرة .

ثانياً : اللغة :

كانت اللغة في الشعر الأندلسي بعامة لغة طبيعية سهلة لم ترق في صعوبتها إلى المعجم اللغوي الذي تميزت به ألفاظ كثير من الشعر المشرقي ، وكان شعر الاستعطاق بالذات أكثر سهولة من سواه ، ذلك أن الشاعر المستعطف كان يسعى إلى الحصول على عطف من مخاطبه واستمالة قلبه بألفاظ يفهمها دون أن يجعل صعوبة ألفاظه عائقاً في سبيل تحقيق هدفه ؛ فاستطاعت تراكيبه وألفاظه أن تؤدي معانيها بطريقة طبيعية سهلة لا تكلف فيها .

كان الشعراء المستعطفون يلحون على من يخاطبونهم كي يعطفوا عليهم ويعفوا عنهم ، ونراهم في سبيل ذلك يتناولون المعنى الواحد أكثر من مرة ، ويعرضونه في صور مختلفة بأبيات شعرية اختلفت ألفاظها ، واتفقت معانيها أو تشابهت ، وكان الشعراء يلجؤون لتحقيق ذلك إلى الألفاظ المتواردة (وهي التي يقام لفظ مقام لفظ لمعلن متقاربة يجمعها معنى واحد كقولهم : لمّ الشعث وأصلح الفاسد ورتق الفتق وشعب الصدع)⁽¹⁾ ، وقد أكثر الشعراء المستعطفون - لا سيّما أولئك الذين طالت معاناتهم فأمعنوا في الاستعطاق - من الأبيات الشعرية ذات الألفاظ المتواردة في قصائدهم ، فهذا ابن زيدون يقول في إحدى قصائده :

هبني جهلتُ فكانَ العِيقُ سيئةً لا عُذرَ منها سوى أنّي من البشرِ⁽²⁾

[البسيط]

ويقول في قصيدة أخرى :

ومثلي قد تهفو به نشوة الصبّا ومثلكَ من يعفو وما لكَ من مثلي⁽³⁾

[الطويل]

(1) اتفاق المباني وافتراق المعاني : سليمان بن بنين الدقيقي النحوي ، تحقيق يحيى عبد الرؤوف جبر ، دار عمار للنشر والتوزيع - عمان ، ط 1 ، 1405هـ / 1985م : 45 . والجمل المذكورة أمثلة على اختلاف الألفاظ واتفاق المعاني .

(2) ديوان ابن زيدون : 151 .

(3) ديوان ابن زيدون : 162 .

إن هذين البيتين وإن اختلفت ألفاظهما إلا أنّهما يتشابهان في معناهما ؛ فالشاعر يعتذر في كلا البيتين لأبي الحزم بن جهور عن خطئه ، ويبين أنه لم يكن مقصوداً؛ لأنّ البشر خطأون بطبيعتهم ، وليس فيهم معصوم عن الخطأ أو الزلل .
وعندما نكّب ابن زيدون نكبته العاطفية بهجر محبوبته وابتعادها عنه أخذ يخاطبها ويتوسل إليها علّها تعطف عليه وتعود إلى سابق عهدها معه ، ونلاحظ جلياً أشعاره في هذا المضمار تدور حول معانٍ محدودة استطاع الشاعر أن يرددها بصورة مختلفة وألفاظ متباينة ، ومن ذلك قوله موازناً بين لحظات سعادته وهنائه حيث كانت محبوبته قريبة منه ، وبين لحظات شقائه وتعاسته بعدما أمست محبوبته هاجرة إياه بعيدة عنه :

أضحى التئائي بديلاً من تدائنا ونابَ عن طيبٍ لقيانا تجافينا
إنّ الزمان الذي ما زال يضحكنا أنساً بقربهم قد عادَ يبكيّنا
وقد نكونُ وما يُخشى تفرُّقنا فاليوم نحنُ وما يُرجى تلاقينا⁽¹⁾

[البسيط]

فالتئائي وبكاء الزمان والتفرُّق ألفاظ عبّرت عن تعاسة الشاعر ، أمّا التّدائي وإضحاك الزمان والتلاقي فعبّرت عن سعادته وهنائه .
كما أخبر ابن زيدون محبوبته بحزنه الشديد وبكائه المتواصل بسبب هجرها وفراقها ، يقول :

تبكي فراقك عينٌ أنتِ ناظرها قد لَجَّ في هجرها عن هجركِ الوسن⁽²⁾

[البسيط]

ويقول في قصيدة أخرى :

رعى الله يوماً فيه أشكو صبابتي وأجفانُ عيني بالدموع شواهد⁽³⁾

[الطويل]

والشاعر استخدم في البيت الأول الفعل (تبكي) ، أمّا في البيت الثاني فجعل الدموع التي تتهمر من عينيه شواهد على حزنه وبكائه المتواصل .
كما ونجد ابن زيدون يكرر المعنى الواحد في صور مختلفة في أشعاره التي استعطف بها سجانته وتلك التي استعطف بها محبوبته ولآدة ، فما هو يقول لسجانته :

(1) ديوان ابن زيدون : 9 - 10 .

(2) ديوان ابن زيدون : 77 .

(3) ديوان ابن زيدون : 46 .

قد كنت أحسبني والنجم في قرنٍ
فقيم أصبحت منحطاً إلى العقر⁽¹⁾
[البسيط]

ويقول لمحبوته :

أرخصتني من بعد ما أغليتني
وحططتني ولطالما أعليتني⁽²⁾
[الكامل]

يشكو الشاعر في هذين البيتين من أمر واحد وهو انحطاطه من الأوج إلى
الحضيض ، حيث كان مقترناً بالنجم ، ثم سجنه أبو الحزم فأمسى لصيقاً بالتراب ، كما
كان بقرب محبوبته غالباً عالياً ، أمسى ببعدها عنه رخيصاً حطيطاً .

ونجد شعراء آخرين غير ابن زيدون يصنعون صنيعه ؛ فهذا ابن عمار يخاطب
ثلاثة من أبناء المعتمد ملتصقاً شفاعتهم بصور مختلفة وألفاظ متباينة ، وعندما استعطف
أباهم أعرب عن أمه بعفوه وصفحه ، يقول :

سجايك إن عافيت أئدى وأسمح
وعذرك إن عاقبت أجلى وأوضح
وإن كان بين الخطتين مزية
فأنت إلى الأدنى من الله تجنح⁽³⁾
[الطويل]

ويقول في القصيدة نفسها :

ألا إن بطشاً للمؤيد يرتمي
ولكن حلماً للمؤيد يرجح
نعم لي ذنب غير أن لحلمه
صفة يزل الذنب عنها فيسفع⁽⁴⁾
[الطويل]

لقد صاغ الشاعر أمه بعفو المعتمد بصور متباينة ؛ فالمعتمد إن خير بين عقاب
الشاعر والعفو عنه فإنه سيختار ما يذنيه من الله ويقربه منه ، ثم إن المعتمد يعاقب
المنذنين ، ويبطش بالأعداء ، لكنه قد يسعهم بحلمه ويتغمدهم برحمته ، وعلى الرغم من
اعتراف الشاعر بذنبه إلا أنه يعلق آماله على حلم المعتمد ، ذلك الحلم الذي يفوق الذنوب
مهما عظمت ؛ فتسفع عنه كما تسفع الأمطار المنهمرة عن الصخرة الصلدة .

(1) ديوان ابن زيدون : 150 .

(2) ديوان ابن زيدون : 6 .

(3) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 420 . وقلاند العقيان لابن خاقان : 98 . والحلة السيرة لابن الأبار ،
ج 2 : 153 .

(4) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 421 . وقلاند العقيان لابن خاقان : 98 . والحلة السيرة لابن الأبار ،
ج 2 : 153 .

وهذا ابن حداد يتحدث عن بكائه المتواصل في أشعاره التي بثها محبوبته عساه
بذلك يستدرّ عطفها ويستميل قلبها ، يقول :

فكم أبكي عليك دماً ولا ترثين للبكي⁽¹⁾

[مجزوء الوافر]

ويقول في قصيدة أخرى :

رويدك أيها الدمع الهتون فدون عيان من أهوى عيون⁽²⁾

[الوافر]

لقد تحدث الشاعر في هذين البيتين عن بكائه ؛ فذكر الفعل (أبكى) في البيت
الأول ، وذكر (الدمع الهتون) في بيته الثاني .

كما عرض الشعراء المستعطفون بمن يحاولون إفساد العلاقة بينهم وبين مَنْ
يستعطفون وعبروا عن هؤلاء بألفاظ متواردة مثل (الأعداء ، العدا ، الوشاة ، الواشون ،
القوم ذوو الدغل ...) .

أمّا الترادف⁽³⁾ الذي عرفه بعض علماء اللغة على أنه (ما اختلف لفظه وانفق
معناه)⁽⁴⁾ فقد أثرى اللغة ، (ولعلّ أبرز العوامل في اشتغال لغتنا على هذا الشراء أن
المهجور في الاستعمال من ألفاظها كُتِبَ له البقاء ، فإلى جانب الكلمات المستعملة كان
مدونو المعجمات يسجلون الكلمات المهجورة ، وما هُجِرَ في زمان معين كان قبل
مستعملاً في عصر من العصور ، أو كان لهجة لقبيلة خاصة انقرضت أو غلبتها لهجة
أقوى منها ، وهجران اللفظ ليس كافياً لإماتته؛ لأنّ من الممكن إحياءه بتجديد استعماله)⁽⁵⁾
ومن هنا كان للمعنى الواحد ألفاظ مختلفة تعبّر عنه .

(1) ديوان ابن حداد : 241 .

(2) ديوان ابن حداد : 246 .

(3) أنكر بعض علماء اللغة وجود الترادف ، ومن هؤلاء ابن فارس الذي بيّن أنّ للمعنى الواحد اسماً واحداً ، وأمّا
ما بعده من أسماء فهي صفات ، يختلف معنى كلّ صفة عن معنى الأخرى ؛ فاسم السيف دلّ على معنى ، أمّا
الحسام والصارم والمهند ... فهي صفات للسيف ، أمّا الأفعال فرأى ابن فارس أنّ معاني الأحداث التي تفيدهما
تشتمل على فروق دقيقة لا تسمح بالقول بالترادف فيها نحو قعد وجلس ، فالقعود يختلف عن الجلوس ، فيقال :
كان مضطجماً فجلس ، وكان قائماً فقعد ، فيكون القعود عن القيام ، والجلوس عن حالة دونه . ينظر : الصاحبى
في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها : أحمد بن فارس ، المكتبة السلفية - القاهرة ، 1328هـ - : 65 - 66 .
كما ينظر حجج من قال بالترادف ومن أنكره في كتاب دراسات في فقه اللغة : صبحي الصالح ، دار العلم
للملايين - بيروت ، ط12 ، 1994م : 292 - 301 .

(4) اتفاق المباني واقتراق المعاني لابن بنين : 45 .

(5) دراسات في فقه اللغة العربية لصبحي الصالح : 293 .

وقد وُجدَ الترادف في الأشعار الاستعطافية التي بحثتُ بها ، ورأيتُ بعض الشعراء يستخدمونه أحياناً في البيت الواحد ، كقول ابن عمار :

وقالوا : سيجزيه فلان بذنبه فقلتُ : وقد يعفو فلان ويصفح⁽¹⁾

[الطويل]

فالفعلان (يعفو ويصفح) عبرا عن معنى واحد .

وقوله :

واتحِب في صلاصل الرعد تحكي ضجتي في سلاسلِي وقُيودي⁽²⁾

[الخفيف]

فالسلاسل هي القيود .

وهذا المعتمد يخاطب قيده قائلاً :

قيدي أما تعلمني مسلماً أبيت أن تشفقَ أو ترحم⁽³⁾

[السريع]

فالفعلان (تشفق وترحم) اختلفا لفظاً ولكن اتفقا معنى .

كما استخدم الشعراء الترادف في أبيات مختلفة ، فهذا ابن زيدون يخاطب أحد

أصدقائه متشفعاً فيه ، فيقول :

فلئن أمسيتُ محبو ساءَ فللغيثِ احتباس⁽⁴⁾

[مجزوء الرمل]

ويقول مستشفعاً بصديق آخر في قصيدة أخرى :

مئون من الأيام خمس قطعتها أسير وإن لم يبدُ شدٌ ولا ربط⁽⁵⁾

[الطويل]

فكلمتا (محبوس وأسير) مترادفتان لهما نفس المعنى .

ويقول في قصائد مختلفة :

إن طال في السجن إيداعي فلا عجبٌ قد يودع الجفن حذُ الصارم الذكر⁽⁶⁾

[البسيط]

(1) النخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 421 . وقلاند العقيان لابن خاقان : 98 .

(2) النخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 426 . والحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 152 .

(3) النخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 73 . وشذرات الذهب لابن عماد الحنبلي ، ج 3 : 379 .

(4) ديوان ابن زيدون : 82 .

(5) ديوان ابن زيدون : 86 .

(6) ديوان ابن زيدون : 149 .

وبقاء الحسام في الجفن يثنى
 منه بعد المضاء والتصميم⁽¹⁾
 [الخفيف]
 أنا سيفك الصدى الذي مهما تشأ
 تعد الصقال إليه والتذريبا⁽²⁾
 [الكامل]

فالصارم والحسام والسيف أسماء مختلفة لمسمى واحد .

وكثرت في الأشعار الاستعطافية ألفاظ وعبارات عبرت عن ذل الشعراء المستعطفين وهواتهم ، حيث كانت تلك النكبات التي تعرض لها أولئك الشعراء تهزهم وتعصف بهم ، فمهم من هزته النكبات هزاً من أول لحظة ، ومنهم من بدا متماسكاً في مفتتح نكبته ثم ما لبث أن اهتز وانحنى ؛ فاضطرب أمره وخارت عزيمته ، وعلى الرغم من أن بعض أولئك الشعراء كان من عليّة القوم وذوي الجاه ، لكنهم عندما نُكبوا انحنوا ولم يتجالدوا تجاليد العظماء عند المحن ، وهذا يدلّ على أنهم لم يكونوا أهلاً للرئاسة والجاه ، وإنما نهضوا من الحضيض إلى المناصب الرفيعة ، ولكن نفوسهم ظلّت تتطوي على صغار ذاتي ، فلما جرّدوا من مناصبهم ، وتعرضوا للمحن بدت حقائق جوهرهم ؛ فأمعنوا في التذلل المهين والاستعطاف المشين ، فها هو ذو الوزارتين ابن زيدون الذي كان في بدايات سجنه متماسكاً ومعتدلاً بنفسه يتخلّى عن تماسكه ويستراجع عن اعتداده بعدما أنقل السجن كاهله ؛ فيهرق ماء وجهه ، وتتسلل عبارات التذلل والهوان إلى شعره ؛ فتارةً ينعت نفسه بالذليل الذي يلتمس العطف ويستجدي الرحمة :

(إياتي) في جواركم الذليل وحدي في رجائكم الكليل⁽³⁾

[الوافر]

وتارة أخرى يصف نفسه بالسيف الصدى الذي أثلّفه طول بقائه في قرابه .

وهذا ابن عمار يمعن في التذلل والهوان عندما استعطف كي يعود من منفاه ؛

فوصف نفسه بالعبد الخاضع الذليل :

أنا العبد في ذلّ الخضوع لو أنني أرى البدر تاجي والنجوم خواتمي

وتبي إذا أنصفت بعدك خادم لدهري وكان الدهر عندك خادمي⁽⁴⁾

[الطويل]

وعندما أذنب ذنباً عظيماً ، وشعر أن عقابه سيكون قاسياً أفرط في التذلل ، فقال :

(1) ديوان ابن زيدون : 124 .

(2) ديوان ابن زيدون : 132 .

(3) ديوان ابن زيدون ورسائله : 332 .

(4) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 375 - 376 .

أصبحتُ في السُّوقِ يُنادي علي رأسي بأنواعٍ من المالِ
 فهل فتى يبتاعني ماجدٌ أخدمه مدّةً إمهالي
 تالله لا جارَ علي نقده من ضمّني بالثمنِ الغالي
 أربح بها مولاي من صفقةٍ في سلعةٍ من بركِ العالي⁽¹⁾
 [السريع]

(إنها معانٍ وكلمات لا ينطق بها إلا عبد رقيق وقف على منصة النخّاس يعرض نفسه على المبتاعين ، ويتغنّى بمحاسنه ليغري الحاضرين بالتنافس على شرائه والمسارة في اقتنائه)⁽²⁾ .

وحسب الشاعر ذلاًّ إنّه يرضى بأيّ حكم يراه المعتمد بحقه ، ولو كان في ذلك الحكم موت له ؛ فالشاعر سيستقبل الحكم بصدر رحب ، وسيبقى قلبه عامراً بحبّ قائله :
 ويهنيه إن متّ السلو فإتني أموتُ وبني شوقٍ إليه مبرح⁽³⁾
 [الطويل]

وليس ابن عمار وحده الذي يتقبل حكم أميره بخيره وشره ، بل نجد ابن سيده يتحدث عن الأمر نفسه بصورة مشابهة :
 وإن تتأكد في دمي لك نيةٌ بسفكٍ فإتني لا أحبُّ له حقنا
 إذا قتلة أرضتك منا فهاتها حبيبٌ إلينا ما رضيت به عنّا⁽⁴⁾
 [الطويل]

كان المعتمد - الملك وابن الملك - أكثر الشعراء تماسكاً في نكبته ؛ فقد استعطف ابن تاشفين تلميحاً وليس تصريحاً ، وعلى الرغم من ذلك نجد في شعره ما يتنافى مع جلال الملك وهيبته ؛ كالتماسه الشفقة والرحمة من القيد :
 قيدي أما تعلمني مسلماً أبيت أن تُشفق أو ترحماً⁽⁵⁾
 [السريع]

إنّ الألفاظ (الذليل والذلّ والعبد والخادم وأخدمه ومولاي وتشفق وترحم ...) التي وردت في الأبيات السابقة ألفاظ عبّرت عن الذلّ الذي وصل إليه الشعراء المستعطفون .

(1) النخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 419 .

(2) الفتن والنكبات الخاصة وأثرها في الشعر الأندلسي لفاصل والي : 429 .

(3) النخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 421 . وقلاند العقيان لابن خاقان : 98 .

(4) جنوة المقتبس للحميدي ، الباب الثامن : 293 .

(5) النخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 73 . وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ، ج 3 : 379 .

وإلى جانب ذلك وجدت ألفاظ وعبارات لها علاقة بالاستشفاع ، كقول ابن زيدون مخاطباً أبا الحزم بن جهور :

لك الشفاعة لا تتنى أعتتها دون القبول بمقبول من العذر⁽¹⁾
[البسيط]

وقوله :

للشفيع الثناء والحمد في صوتي ب الحيا للرياح لا للغيوم⁽²⁾
[الخفيف]

فاشفع أكن مثل ممطور ببلدته جذلان بالوطن المألوف والوطني⁽³⁾
[البسيط]

وقول ابن عمار مخاطباً المأمون بن المعتمد :

هلا سألت شفاعة المأمون أو قلت ما في نفسه يكفيني⁽⁴⁾
[الكامل]

وقوله مخاطباً أخاه الراضي :

هبك احتجبت لوجه عذر بين بذل الشفاعة أي شيء فيه⁽⁵⁾
[الكامل]

وقول الراضي مخاطباً أباه المعتمد :

هب زلتى لبنوتي واغفر فإن الله غافر⁽⁶⁾
[مجزوء الكامل]

وقول المعتمد مخاطباً قيده :

ارحم طفيلاً طائشاً لبه لم يخش أن يأتيك مسترحماً⁽⁷⁾
[السريع]

فالألفاظ (الشفاعة والشفيع واشفع واغفر وارحم ...) ألفاظ لها علاقة بطلب العطف والحث على العفو .

(1) ديوان ابن زيدون : 151 .

(2) ديوان ابن زيدون : 125 .

(3) ديوان ابن زيدون ورسائله : 261 .

(4) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 424 . والحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 151 .

(5) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 423 . والحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 151 .

(6) نفع الطيب للمقري ، ج 4 : 254 .

(7) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 73 . وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ، ج 3 : 379 .

لقد بكى الشعراء المستعطفون وذرفوا الدموع أمام محبوباتهم ، ونجد في شعرهم كثيراً من الألفاظ التي تدلّ على البكاء ، مثل : (أبكى ، البكاء ، الدموع ، الدمع الهتون ...) ولكنهم لم يفعلوا ذلك عندما استعطفوا الحكام الذين نكبوهم ، وكان الشاعر أجاز لنفسه البكاء أمام محبوبته ورأى أن ذلك لا يمتهن رجولته ولا ينتقص من كرامته ، أما البكاء أمام الحاكم فلم يجزه الشاعر لنفسه ، وكأنه يتنافى مع رجولته ويتعارض مع قدره ، ولم يكن البكاء هو الوحيد الذي حاول الشاعر أن يستميل به قلب محبوبته ، ، فهذا ابن زيدون يذكر محبوبته الأميرة بألفاظ تدلّ على عظمة الملك وفخامته :

رَبِيبُ مَلِكٍ كَانَ اللهُ أَنْشَأَهُ مَسْأً وَقَدَّرَ إِتْشَاءَ الْوَرَى طِينَا
أَوْ صَاغَهُ وَرِقًا مُحَضًّا وَتَوَجَّهَ مِنْ نَاصِعِ التَّبْرِ إِبْدَاعًا وَتَحْسِينًا⁽¹⁾

[البسيط]

وهذا ابن حداد الذي كانت محبوبته نصرانية يحفل شعره بألفاظ لها علاقة بالنصارى ؛ كالصلبان والرهبان والنسك والكنائس :

فَإِنَّ الْحُسْنَ قَدْ وَلَا كَ إِحْيَائِي وَإِهْلَاكِي
وَأَوْلَعْنِي بِصَلْبَانٍ وَرَهْبَانٍ وَنَسَاكٍ
وَلَمْ آتِ الْكِنَائِسَ عَنْ هَوَى فَيَهْنُ لَوْلَاكِ⁽²⁾

[مجزوء الوافر]

ونجد في الأشعار الاستعطافية ألفاظاً دلت على بؤس الشعراء المستعطفين وسوء حالهم بسبب المحن التي تعرضوا لها ؛ فذكروا ما سببته لهم تلك المحن من تغيير بدا على أجسادهم ؛ فابن زيدون ذكر الشيب الذي كسا رأسه وهو ما زال في حداثة سنّه ، ومقتبل شبابه :

لَمْ تَطْوِ بَرْدَ شِبَابِي كَبِيرَةً وَأَرَى بَرَقَ الْمَشِيبِ اعْتَلَى فِي عَارِضِ الشُّعْرِ⁽³⁾

[البسيط]

وتحدث ابن سيده عن هزاله وضعفه بسبب الهموم التي لازمته :

وَنَضُو هُمُومَ طَلْحَتِهِ طَيَاتِهِ فَلَا غَارِبًا أَبْقِينَ مِنْهُ وَلَا مَتْنًا⁽⁴⁾

[الطويل]

(1) ديوان ابن زيدون : 11 .

(2) ديوان ابن حداد : 241 .

(3) ديوان ابن زيدون : 148 .

(4) جنوة المقتبس للحميدي ، الباب الثامن : 298 .

أما المعتمد فقد أطنب في الحديث عن سوء حاله عندما استعطف والده ، واختلار
ألفاظاً تعبر عن ذلك أدقّ تعبير ؛ فذكر جزعه ودمع عينيه وانخفاض صوته وانكسار
طرفه ، كما ذكر تغير لونه وشيب رأسه :

فالنفسُ جازعةٌ والعينُ دامعةٌ والصوتُ منخفضٌ والطرفُ منكسرٌ
وقد حلتُ لوناً وما بالجسم من سقمٍ وشبتُ رأساً ولم يبلغني الكبيرُ
ومت إلا نداءً في يمسكه أتى عهدتكُ تعفو حين تقدرُ⁽¹⁾

[البسيط]

أكثر الشعراء المستعطفون في قصائدهم من الصيغ الإنشائية التي خرجت عن
معناها الأصلي لتؤدي معاني أخرى أفادت الشعراء المستعطفين في تحقيق الهدف الذي
كانوا يصبون إليه ، وجاء الاستفهام في مقدمة تلك الصيغ ، والاستفهام (هو طلب العلم
بالشيء ولم يكن معروفاً من قبل بأداة خاصة ، ولكن أدوات الاستفهام قد تخرج عن
معانيها الأصلية إلى معانٍ أخرى على سبيل المجاز تُفهم من سياق الكلام وقرائن
الأحوال)⁽²⁾ ، ومن هذه المعاني التي خرج إليها الاستفهام ، ووجدت بكثرة في الأشعار
الاستعطافية الاسترحام⁽³⁾ ، ومثال ذلك قول ابن زيدون مستعظفاً في قصائد مختلفة :

قد كنتُ أحسبني والنجمُ في قرنٍ ففيم أصبحتُ منحنطاً إلى العقرِ؟⁽⁴⁾

[البسيط]

أفصبرُ مئينَ خمسا من الأيا م ناهيك عن عذابِ أليمٍ⁽⁵⁾

[الخفيف]

فما لك لا تختصني بشفاعَةٍ يلوحُ على دهري لميسمها علط؟⁽⁶⁾

[الطويل]

(1) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 48 . والبيان المغرب لابن عذارى المراكشي ، ج 3 : 75 . والحلة
السيراء لابن الأبار : 57 .

(2) في البلاغة العربية - علم المعاني : عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية - بيروت ، ط 1 ، 1974م :
104 .

(3) ينظر : المعاني التي قد يخرج إليها الاستفهام في كتابي في البلاغة العربية - علم المعاني لعبد العزيز عتيق
: 104 . والبلاغة فنونها وأفنانها - علم المعاني : فضل حسن عباس ، دار الفرقان - عمان ، ط 1 ، 1405هـ /
1985م : 135 .

(4) ديوان ابن زيدون : 150 .

(5) ديوان ابن زيدون : 124 .

(6) ديوان ابن زيدون : 88 .

ومن الاستفهام الذي خرج معناه إلى الاسترحام قول ابن عمار في قصيدة خاطب بها
الراضي بن المعتمد :

هَبْكَ احتجبت لوجه عذري بين
بذل الشفاعة أي شيء فيه؟⁽¹⁾
[الكامل]

ومنه قول الفكيك :

فمن رأى شاعراً بالسجن مطرحاً
في ظلمة وهو بالبهتان مظلوم؟⁽²⁾
[البسيط]

ومنه قول المعتمد مستعظماً قيده :

قيدي أما تعلمني مسلماً
أبيت أن تُشفق أو ترحم؟⁽³⁾
[السريع]

كذلك خرج معنى الاستفهام إلى النفي في كثير من الأبيات الشعرية الاستعطافية،

ومن ذلك قول ابن زيدون :

أفي العدل إن وافتك تترى رسائلي
فلم تتركن وضعاً لها في يدي عدل؟⁽⁴⁾
[الطويل]

فالشاعر يرى أنه ليس من العدل أن يُهمل سجنه رسائله المتتابعة ، وقوله في

معرض افتخاره بنفسه :

هل الرياح بنجم الأرض عاصفة ؟
أم الكسوف لغير الشمس والقمر؟؟⁽⁵⁾
[البسيط]

فالرياح لا تعصف بنجم الأرض ، والكسوف لا يكون إلا للشمس والقمر .

ومنه قول ابن عمار :

وهل أنا إلا عبد طاعتك التي
إذا ميت عنها قام بعدي وارث؟⁽⁶⁾
[الطويل]

فالشاعر ليس إلا عبداً لمن يستعطفه .

وقوله في قصيدة أخرى :

(1) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 423 . والحلة السراء لابن الأبار ، ج 2 : 151 .

(2) الذخيرة لابن بسام ، قسم 4 ، مجلد 1 : 373 .

(3) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 73 . وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ، ج 3 : 379 .

(4) ديوان ابن زيدون : 160 .

(5) ديوان ابن زيدون : 148 .

(6) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 406 . والحلة السراء لابن الأبار ، ج 2 : 143 .

عليّ وإلا ما بكاء الغمام ؟ وفيّ وإلا ما نياح الحمام؟⁽¹⁾

[الطويل]

فالغمام لا تبكي إلا على مصابه ، والحمام لا تتوح إلا في محنته .

ومن الاستفهام الذي خرج معناه إلى النفي قول ابن اللبّانة :

وهبه أطاق عن مثواك صرفي أيقدرُ صرفَ قلبي عن هواك؟⁽²⁾

[الوافر]

فعدو الشاعر عاجز عن صرف قلب الشاعر عن هوى من يخاطبه .

كما أفاد الاستفهام معنى التقرير في بعض القصائد الاستعطافية ، ومن ذلك

قول ابن عمار :

وهبني قد أعقتُ أعمالَ مفسدٍ أما تفسد الأعمالُ ثمّت تصلح؟⁽³⁾

[الطويل]

وقول ابن زيدون مخاطباً محبوبته :

ألم ألزم الصبرَ كيما أخف ؟ ألم أكثر الهجرَ كي لا أمل ؟

ألم أرضَ منكِ بغير الرضى وأبدي السرور بما لم أنل ؟

ألم اغتفر موبقات الذنوب؟ عمداً أتيتُ بها أم زل؟⁽⁴⁾

[المتقارب]

وقوله مخاطباً ابن عبدوس غريمه في حبّ ولادة :

ألم تنش من أدبي نفحةً حسبت بها المسك طيباً يفض؟⁽⁵⁾

[المتقارب]

كما خرج الاستفهام إلى معنى التمني كقول ابن زيدون :

وأين جوابُ منكِ ترضى به العُلا إذا سألتني بعد أسنة الحفل؟⁽⁶⁾

[الطويل]

وقوله متشوقاً إلى محبوبته ، متمنياً لقاءها :

يا هل أجالسُ أقواماً أحبهم ؟ كنا وكاتوا على عهدٍ وقد ظعنوا⁽⁷⁾

(1) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 372 .

(2) الذخيرة لابن بسام ، قسم 3 ، مجلد 2 : 366 .

(3) قلائد العقيان لابن خاقان : 98 . والحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 153 .

(4) ديوان ابن زيدون : 34 - 35 .

(5) ديوان ابن زيدون : 90 .

(6) ديوان ابن زيدون : 163 .

(7) ديوان ابن زيدون ورسائله : 13 .

[البسيط]

كما وخرج الاستفهام إلى معانٍ كالتحضيض والإنكار والتسوية والتحقير في معرض هجوم الشاعر على أعدائه وشائنيه ، لكنّ هذه المعاني كانت قليلة في الأشعار الاستعطافية لا تستحق الذكر .

كما خرج الأمر والنهي عن معناهما الأصلي ؛ لتفيدا معاني أخرى كان في مقدمتها الاسترحام ، ومن ذلك قول ابن زيدون مخاطباً سجّانه أبا الحزم بن جهور :

لا تله عني فلم أسألك مُعتسِفاً رد الصبا بعد إيفاءٍ على الكبير⁽¹⁾

[البسيط]

وقوله مخاطباً محبوبته ولآدة :

دومي على العهد ما دمنا محافظةً فالحرُّ من دانٍ إتصافاً كما دينا⁽²⁾

[البسيط]

ومن ذلك أيضاً قول ابن عمار :

أقلني بما بيني وبينك من رضى له نحو روحِ اللهِ بابٍ مُفتَحٍ⁽³⁾

[الطويل]

كما نجد في الأشعار الاستعطافية صيغاً إنشائية أخرى خرجت عن معناها الأصلي كالنداء والتمني إلا أنها لم تكن شائعة شيوع الصيغ الإنشائية السابقة . كان الشعراء المستعطفون يعبرون عما يجيش في صدورهم دون تكلف يُذكر ، ولكنّ هذا لا ينفي وجود بعض التعقيد والتكلف في أشعارهم ، ومن ذلك بيت لابن زيدون قلّد فيه الشعراء المشاركة ، وأسفّ فيه إسفافاً شديداً حين ساق مجموعة من أفعال الأمر على سبيل الرجاء والالتماس :

أجرِ أعدِ آمنِ أحسنِ ابدأ عُدْ أكفِ حط

تحفّ ابسط استأنف صنّ احم اصطنع أعل⁽⁴⁾

[الطويل]

(1) ديوان ابن زيدون : 151 .

(2) ديوان ابن زيدون : 13 .

(3) قلائد العقيان لابن خاقان : 98 . والحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 153 .

(4) ديوان ابن زيدون ورسائله : 271 .

أجر : ابسط حمايتك على من يستجير بك ، أعد : أعن ، اكف : أعط كفاية ، حط : تعهد ، تحفّ : رحّب ، اصطنع : اتخذ الصنائع التي تجذب بها القلوب إليك ، أعلّ : ارفع من تشاء . ينظر : ديوان ابن زيدون ورسائله هامش ص 271 .

وبطريقة مشابهة خاطب ابن زيدون فن محبوبته الشاعرة بببيت احتوى ست
خصال متتالية من صيغ الطباق والنقسيم ، وإن كان قد أجاد في هذا البيت كصنعة بديعية
إلا أنه لا يخلو من تكلف وتعقيد لفظي :

تِهَ اِحْتَمَلْ وَاسْتَطَلْ اصْبِرْ وَعَزْ أَهْنُ وَوَلَّ أَقْبَلْ وَقَلْ اسْمَعْ وَمُرْ أَطْعْ⁽¹⁾

[البسيط]

كذلك نجد تكلفاً وتعقيداً في بيت ابن عمار الذي خاطب به الرشيد بن المعتمد :

وَإِلَى أَيْنَ فِي الشَّفِيعِ إِذَا مَا لَمْ أَلْذْ مِنْكَ عِنْدَهُ بِالرَّشِيدِ⁽²⁾

[الخفيف]

كما نجد تكلفاً واضحاً في بيت الراضي بن المعتمد الذي استعطف به والده :

وَأَحْسَنُ مَا سَمِعْتُ بِهِ عَزِيزٌ يَنَادِيهِ فَيَرْحَمُهُ ذَلِيلٌ⁽³⁾

[الوافر]

ولعلّ الشاعر أراد القول : وأحسن ما سمعت به ذليلٌ ينادي عزيزاً مسترحماً أتياه
فيستجيب له ويرحمه .

وخلاصة حديثنا السابق أنّ هناك أموراً يمكن ملاحظتها في لغة الأشعار
الاستعطافية : منها أنّ اللغة كانت سهلة لم ترق إلى مستوى جزالة ألفاظ الشعر
المشراقي، كما ردّد الشعراء المستعطفون معانيهم بألفاظ مختلفة وصور متباينة معتمدين
على الألفاظ المتواردة والترادف ، ونلاحظ في الأشعار الاستعطافية ألفاظاً وعبارات لها
علاقة بالاستعطاف والاعتذار ، كما نلاحظ ألفاظاً وعبارات أخرى عبّرت عن معاناة
الشعراء وآلامهم أثناء محنهم تارة ، ودلّت على المستوى المهين الذي وصل إليه
الشعراء المستعطفون من التذلّل وإهراق ماء الوجه تارة أخرى ، كما نجد صيغاً
إنشائية خرجت عن معناها الأصلي لتؤدي معاني أخرى خدمت الشعراء في تحقيق
أهدافهم ، وعلى الرغم من أنّ التعقيد والتكلف كانا نادرين في الأشعار الاستعطافية إلاّ
أنهما وجدا في بعض الأبيات .

ثالثاً : الخيال والصور :

حفلت الأشعار الاستعطافية بمجموعة من الصور تتمّ عن الخيال الأدبي الذي
كان يتمتع به الشعراء المستعطفون ، وكانت الصور الفنية في أشعارهم غير متكلفة في

(1) ديوان ابن زيدون : 68 .

(2) النخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 428 .

(3) الحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 72 .

عامتها ، كما أنهم التزموا في الأعم الأغلب بالصورة التقليدية الخاصة بالمدوح والمحبوبة، وكانّ المحن والنكبات التي تعرّض لها هؤلاء الشعراء قيدت إبداعهم وخيالهم، وعلى الرغم من ذلك لا نعدم عندهم بعضاً من الصور الفنية الجديدة والتشبيهات المبتكرة التي ستكون موضوع حديثنا .

كان ابن زيدون من أكثر الشعراء المستعطفين إنتاجاً شعرياً ، واستطاع أن يوفر لقصائده عنصر الجمال الفني بما استخدمه من تصوير كان بعضه مبتكراً جديداً ، ومن ذلك قوله يمدح سجانة أبا الحزم بن جهور :

وذو تُدرأً للعزم تحت أناته كمون الردى في فترة الأعين النجل
تُغصُّ ثنائي مثلما غصّ جاهداً سوار الفتاة الراد بالمعصم الخدل⁽¹⁾
[الطويل]

فالممدوح كما صورّه الشاعر ذو عزّة ومنعة يكمن العزم والحزم تحت هدوئه واتزانه ، كما يكمن التأثير النافذ في انكسار العيون الساحرة ، ومحامد الممدوح كثيرة يضيق ثناء الشاعر عن استيعابها ، كما يضيق السوار بمعصم الغادة الحسناء الممتلى . ويمدحه في القصيدة ذاتها قائلاً :

هُمام عريق في الكرام وقتما ترى الفرع إلا مُستمدّاً من الأصل
إذا أشكل الخطب الملم فإته وآراءه كالخط يوضح بالشكل⁽²⁾
[الطويل]

فالممدوح همام كريم ، والكرم ليس طارئاً عليه بل هو أصيل في آبائه وأجداده الذين هم كأصل الشجرة ، أما أبنائهم - وأبو الحزم واحد منهم - فهم كفروعها وغصونها ، والممدوح أيضاً ذو بصيرة ثاقبة ورأي صائب ، وآراء الحكماء تبقى ناقصة ما لم يعززها رأي أبي الحزم ، إن مثال رأيه وآراء الحكماء عند اشتداد الخطوب كالخط المهمل المبهم والشكل الذي يوضحه ويزيل الإبهام عنه .

أما ابن عمار فيمدح الرشيد بن المعتمد استجلاباً لقلبه والتماساً لشفاعته

في سلسلة من التشبيهات البليغة ، إذ يقول :

أنت إما اعترضتُم درة التآ ج فرند الحسام وسطى الفريد
وإذا ما مدحتُم نكتة الخطب ع فص الحديث بيت القصيد
وإذا ما ركبتُم الخيل صدر الجب ش عين اللواء قلب الحديد

(1) ديوان ابن زيدون : 160 .

(2) ديوان ابن زيدون : 160 .

أنتَ فيهم إن يُعموا ليلةَ القدرِ وإنَّ يصبحون يومَ العيدِ⁽¹⁾
[الخفيف]

لقد كان الغرض من تشبيهات ابن زيدون وابن عمار (تقرير حال المشبه حتى تتضح صورته في النفس)⁽²⁾.

فكلا الشاعرين جعل تشبيهاته في معرض المدح ، حيث بيّن ابن زيدون أن مَنْ يستعطفه ذو عزةٍ ومنعةٍ ، محامده كثيرةٌ ، يجمع إلى جانب كرمه عقلاً راجحاً ورأياً سديداً ، أما ابن عمار فجعل الرشيد يتقدّم على سائر آل عبّاد بسلسلة التشبيهات التي ساقها ، وكانّ الشاعرين أرادا حتّى مَنْ يخاطبون على الرفق فيهما ، والعفو عنهما ، كي يثبتا أنّهما أهلّ لما مُدحا به .

لقد بيّن الشاعر بهذه التشبيهات أن الممدوح يتقدّم على سائر آل عبّاد ، وأنّ شفاعته لا تُردّ ، وكأنّه بذلك يحثّه على التشفّع فيه وبذل أقصى جهوده من أجل ذلك ؛ ليثبت أنّه أهلّ لما مدحه به الشاعر .

ونرى اللون واضحاً جلياً في بعض صورهم وتشبيهاتهم وبخاصة في تلك الأشعار التي أرسلوا بها إلى محبوباتهم مستعطفين إياهنّ ؛ فهذا ابن زيدون يتغزل بمحبوبته (ولادة) سليلة الملوك التي فاقت بنات جنسها حسناً وجمالاً ، وكانّ الله خلقها من المسك وخلق غيرها من الطين ، إنّ محبوبته الشاعر بيضاء البشرة كأنّها فضة صافية ، وشعرها ذهبيّ لامع كأنّها توجت بتاج من الذهب الخالص الناصع :

ربيبُ ملكٍ كانَ اللهُ أنشأه مسكاً وقدّرَ إنشاءَ الورى طينا
أو صاغه ورقاً محضاً وتوجّه من ناصع التبرِ إبداعاً وتحسيناً⁽³⁾
[البسيط]

أما ابن أبي البشر فشبهه دمه بالحناء الذي خضبّ خديّ محبوبته الأحمرين :
أظنّ خديك من جاري دمي اختضباً لقد تناهيت في قتلي وقد ظرفاً⁽⁴⁾
[البسيط]

وبدت الحركة في بعض صورهم وتشبيهاتهم ، فهذا ابن عمار يشبّه المعتمد بالبحر ويشبّه نفسه بالسفينة التي تمخر في عبابه ، ونرى تشبيهه هذا ينبض بحركة

(1) النخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 428 .

(2) البلاغة فنونها وأقناتها - علم البيان والبيدع - : فضل حسن عباس ، دار الفرقان - عمان ، ط 1 ، 1407هـ

/ 1987م : 113 .

(3) ديوان ابن زيدون : 10 .

(4) خريدة القصر للعماد الأصفهاني ، تحقيق محمد المرزوقي ، ج 1 : 11 .

البحر المضطرب ، وحركة راكبيه وقد هاج البحر وتلاطمت الأمواج ، وتلاعبت بسفينتهم ، وأوشكوا على الغرق وأخذوا ينظرون بلهفة إلى مَنْ يمدّ لهم يد الرحمة ؛ فينقذهم ويخلصهم من محنتهم :

وَهَبَ الغى في عِزَّةٍ و سكون	بحرٌ إذا رَكِبَ العَفَاةُ سكونه
إن لم تُغثني رحمةً تُنجيني	واليومَ قد أصبحتُ في عمرائه
أمواجه فتلاعبت بسفيني	بَعُدتُ سواجله عليّ وأدركتُ
إن لم يمدَّ الفتحُ لي بيمين ⁽¹⁾	لا شكَّ في أنّي غريقُ عبابه

[الكامل]

واستخدم الشعراء التشبيهات في معرض وصفهم للسجن الذي اعتقلوا فيه ؛ فابن عمار اعتقل في سجن عالٍ كأنه صرح بنته الجنّ ؛ لترقى إلى النسور وطيور السماء الجارحة :

عالي كأن الجنّ إذ مردت . جعلته مرقاة إلى النسر⁽²⁾

[الكامل]

أما ابن غصن فقد زُجَّ به في سجن ضيق ؛ كأنه ظلّف شاة ، إما قيده فكان صوته كصوت الخطيب الذي يعلو مؤذناً بقدوم الخطوب والمحن :

ليس فيه لذي ديببٍ ديببٌ	في محلّ كأنه ظلّف شاة
رنّ في الساقِ للخطوب خطيب ⁽³⁾	وكانَ الكِبَلُ الثقيلُ إذا ما

[الخفيف]

لقد كان الغرض من التشبيهين السابقين (بيان حال المشبه) ، حيث بيّن ابن عمار وابن غصن حال السجنين اللذين اعتقلا فيهما ؛ فالأول كان مرتفعاً ، أمّا الآخر فكان ضيقاً⁽⁴⁾ .

وعندما افتخر الشاعر بنفسه وبدا متجالداً في مصيبتّه أمام الشامتين بحاله لجأ في ذلك إلى التشبيه الضمني ؛ لأنّ فيه تعبيراً دقيقاً عن حال الشاعر المنكوب المنكسر الذي يأبى أن يُظهر انكساره أمام أعدائه وشائئيه ، يقول ابن زيدون مفتخراً بنفسه أمام الأعداء والشامتين :

(1) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 424 .

(2) فلتاد العقيان لابن خاقان : 92 .

(3) أعتاب الكتاب لابن الأبار : 220 .

(4) البلاغة فنونها وأفنانها - علم البيان والبديع لفضل عباس : 114 .

ولا يُغِبُّ الأعداءُ كونيَ في السَّجْنِ
فإني رأيتُ الشَّمسَ تُحصَنُ بالدَّجْنِ
وما كنتُ إلا الصَّارمَ العَضْبَ في جَفْنِ
أو اللَّيْثَ في غابٍ أو الصَّقْرَ في وكنٍ⁽¹⁾

[الطويل]

فالصورة التي رسمها الشاعر لنفسه وقد سُجِنَ كالشمس تختفي وراء الغيوم الكثيفة ، ولا بدّ لتلك الغيوم أن تتقشع يوماً ؛ فتشرق الشمس من جديد ، وهو كالسيف البتار الذي يودع في قرابه لحين الحاجة إليه ، أو كالأسد والصقر اللذين يقبعان في أوكارهما حيناً ثم ينطلقان ، وكان غرض الشاعر من هذه الصور الفنية (تزيين المشبه)⁽²⁾ .

أما ابن عمار فيسلك سبيل التشبيه الضمني عند حديثه عن أعدائه وشانئيه ،

فيقول :

ولا تلتفت رأيتُ الوشاةِ وقولهمُ
فكلُّ إناءٍ بالذي فيه يَرشَحُ⁽³⁾

[الطويل]

فالوشاة والمفسدون كالأواني التي ترشح بما فيها ، فلا يتوقع منهم إلا أن يُظهروا

بعض ما تضمّه صدورهم .

وإلى جانب التشبيهات نرى الشعراء المستعطفين يستخدمون الاستعارات فيقومون بتشخيص الموجودات من حولهم ، وإسقاط الروح والحياة على الجمادات لجعلها كائنات تحسّ وتشعر بمعاناتهم ، وتخفّف عنهم ، (وهذا الاتجاه يعكس حاجة الشاعر المنكوب الشديدة والملحة لوجود شريك له في المحنة قريب من القلب والروح ، يبثه شكواه ويجد عنده صدرأً واسعاً يرتاح إليه ويدأ رقيقة تحنو على جراحه)⁽⁴⁾ ، ولقد استهلّ ابن زيدون وابن عمار قصيدتين من قصائدهما الاستعطافية بالتماس الرحمة من الكائنات المحيطة بهما، فالأول استهلّ قصيدته بقوله :

ألم يأن أن يبكي الغمامُ على مثلي ويطلبُ ثأري البرقُ منصلتُ النصلِ
وهلّا أقامت أنجمُ الليلِ مأتماً لتندبَ في الآفاقِ ما ضاعَ من نثلي

(1) ديوان ابن زيدون : 43 .

(2) البلاغة فنونها وأفنانها - علم البيان والمعاني لفضل عباس : 114 .

(3) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 421 . وينظر : قلائد العقيان لابن خاقان : 98 .

(4) تجربة السجن في الشعر الأندلسي لرشا عبد الله الخطيب ، المجمع الثقافي - أبو ظبي ، 1999م : 178 -

ولو أنصفتني وهي أشكال همّتي لألقت بأيدي النذل لما رأيت ذلّي⁽¹⁾
[الطويل]

أما الثاني فافتتح قصيدته قائلاً :

عليّ وإلا ما بكاء الغمام ؟ وفيّ وإلا ما نياح الحمائم ؟
وعني أثار الرعد صرخة طالب لثأر وهز البرق صفحة صارم
وما لبست زهر النجوم حدادها لغيري ولا قامت له في مآتم⁽²⁾
[الطويل]

بدأ الشاعران قصيدتيهما بأسلوب استفهامي فقاما بتشخيص الكائنات وأسقطا الروح والحياة على الجمادات ؛ فالغمام يبكي على ما حلّ بهما ، والبرق والرعد يطالبان بالثأر لحقهما المهضوم ، أما نجوم الليل فقد أقامت المآتم ولبست ملابس الحداد حزناً على ما أصابهما .

كانت الطبيعة حاضرة في أشعار الأندلسيين الذين أبدعوا في وصفها وأجادوا في تشخيصها ؛ فابن زيدون جعل النسيم يعتلّ ، وجعل الزهر يبكي إشفاقاً عليه وتعاطفاً معه بعدما هجرته محبوبته :

إني ذكرك بالزهراء مشتاقا والأفق طلق ومرأى الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلال في أصانله كأنه رق لي فاعتل إشفاقا
نلهو بما يستميل العين من زهر جال الندى فيه حتى مال أعناقا
كان أعينه إذ عاينت أرقبي بكت لما بي فجال الدمع رراقا⁽³⁾
[البسيط]

أما المعتمد فشكا إلى القيد ما يعانيه والتمس منه الرحمة والشفقة ، فقد جعلته الوحدة يبحث عن رفيق يناجيه ويبيته آلامه وأحزانه ، وإن كان ذلك الرفيق هو ذاته سبب آلامه وشقائه ، يقول :

قيدي أما تعلمني مسلماً أبيت أن تشفق أو ترحما
دمي شراب لك واللحم قد أكلته لا تهشم الأعظما⁽⁴⁾
[السريع]

(1) ديوان ابن زيدون : 159 .

(2) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 372 .

(3) ديوان ابن زيدون : 46 .

(4) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 73 . وينظر : شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ، ج 3 : 379 .

إن الشعراء المستعطفين اسقطوا الحياة على الكائنات والجمادات القريبة منهم ، وجعلوها كالبشر تشاركهم همومهم ومصائبهم في استعارات رائعة تعكس الدوافع المضطربة داخل نفوسهم ، واتخذوا من تلك العناصر والكائنات شركاء لهم في همومهم تحس وتتألم وتتوجع ؛ لذلك دبت الحياة في تلك الكائنات فبكت وحزنت وطالبت بالشر ، وشفقت ورحمت كل ذلك في إطار وصفٍ لمشاعر الشعراء المضطربة التي مروا بها .
واستخدم الشعراء الاستعارة التمثيلية ، كما استخدموا التشبيه الضمني في

معرض فخرهم بنفسهم وتجلدهم أمام الأعداء والشامتين ، يقول ابن زيدون:

يلبذُ الوردُ السببتى	وله بعدُ افتراسُ
فتأمل كيف يغشى	مقلة المجد النعاسُ
ويفت المسك في التتر	ب فيوطاً و يداس ⁽¹⁾

[مجزوء الرمل]

لقد جعل الشاعر مثاله وقد حُبس ونُكب كمثال الأسد الجريء الذي يلبذ لفريسته ، وكمثال المجد الذي تعترى مقلته النعاس ، إن إهانة الشاعر وإذلاله كالقاء المسك النفيس في التراب لتدوسه الأقدام وتطأ عليه .

واعتمد الشعراء المستعطفون أيضاً على أسلوب الكناية ، وأكثروا من ذلك ، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن الكناية لا تحتاج إلى الخيال العميق من ناحية ، ثم أنها من وسائل تقصير العبارة من ناحية أخرى ؛ فابن زيدون خاطب أمه الحزينة قائلاً لها :

أمقتولة الأجدان مالكِ والهأ ألم ترك الأيام نجماً هوى قبلي⁽²⁾

[الطويل]

ويكنى الشاعر بالنجم الذي هوى عن نفسه وقد حط من الأوج إلى الحضيض ، ودل بعد عز .

ويستخدم الكناية مرة أخرى في المعنى ذاته ، فيقول :

قد كنت أحسبني والنجم في قرنٍ ففيم أصبحت منحنطاً إلى العفر⁽³⁾؟

[البسيط]

فالشاعر استخدم عبارة (والنجم في قرن) كناية عن الرفعة ، واستخدم عبارة (منحنطاً إلى العفر) كناية عن الدنوّ والانحطاط .

(1) ديوان ابن زيدون : 83 .

(2) ديوان ابن زيدون : 160 .

(3) ديوان ابن زيدون : 150 .

ويمدح ابن زيدون سجّانه قائلاً :

كم اشترى بكَرى عَيْنيه من سَهْر هدوءَ عَيْنِ الهُدَى في ذلك السَهْر
في حضرةٍ غَابَ صرف الدهرِ خشيته عنها ونام القَطَا فيها ولم يُشْرِ⁽¹⁾
[البسيط]

فالشاعر كنى بعبارة (نام القطا فلم يثر) عن الأمن والأمان اللذين سادا البلاد في ظل حكم أبي الحزم بن جهور .

أما ابن اللبانة فشكا من الأيام أثناء استعطاف أميره ، فقال :

أجفنتي فلم يثبت ربيع وحطنتي فلم يثبت يفاع⁽²⁾

[الوافر]

وكنى الشاعر بقوله (لم يثبت ربيع) و (لم يثبت يفاع) عن قسوة الأيام وشدتها .

واستخدم الشعراء الكنايات في معرض استعطافهم محبوباتهم ، فقد خاطب ابن زيدون محبوبته قائلاً لها :

وفي الجواب متاعٌ إن شفعت به بيضُ الأيادي التي ما زلتِ تولينا⁽³⁾

[البسيط]

فالأيادي البيضاء كناية عن ما فعلته تلك الأيادي وقدمته للشاعر .

أما أبو الفضل مشرف بن راشد فأعلم محبوبته بأساء وضناه ؛ بسبب ابتعادها عنه وجرها إياه :

فالأسى بين ضلوعي والضنا بين ثيابي⁽⁴⁾

[مجزوء الرمل]

ونرى الشاعر يستخدم الكناية عن نسبة حين ينسب الأسى إلى ضلوعه، والضنا إلى ثيابه .

إن الشعراء السابقين قد استخدموا الكنايات في الأمثلة السابقة ؛ فابن زيدون قد استخدم كناية الصفة⁽⁵⁾ في عباراته (نجماً هوى ، والنجم في قرن ، منحطاً إلى العفر)

(1) ديوان ابن زيدون : 149 .

(2) الخيرة لابن بسام ، قسم 3 ، مجلد 2 : 686 .

(3) ديوان ابن زيدون : 13 .

(4) خريدة القصر للعماد الأصفهاني ، تحقيق عمر الدسوقي ، قسم 4 ، ج 1 : 16 .

(5) ينظر أقسام الكناية في كتاب في البلاغة العربية - علم البيان : عبد العزيز عتيق ، دار النهضة - بيروت ،

ط 1 ، 1974م : 210 .

ليعتبر عن الحال الذي كان عليه ، والحال الذي آل إليه بعدما نُكِبَ وسُجِنَ ، وعندما مدح سَجَانَهُ تمهيداً لاستعطافه استخدم كناية الصفة بعبارته (نام القطا فيها فلم يثر) ليصف الزمن الآمن الذي ساد في ظل حُكْمِ ابن جهور ، ثم استخدم كناية الموصوف بقوله : (بيض الأيادي) تعبيراً عن ما قدّمته تلك الأيادي للشاعر ، ولجأ ابن اللبّانة إلى كناية الصفة بعبارته (لم ينبت ربيع ولم يثبت يفاع) ليعبر عن قسوة الأيام التي ابتلي بها ونُكِبَ ، أمّا ابن راشد فنسب الأسى لضلوعه والضنا لثيابه مستخدماً كناية النسبة .

إنّ العبارات السابقة لم تحتج إلى ذلك الخيال العميق الذي وجدناه في التشبيهات والاستعارات ، ثم أنّها عبارات موجزة جمعت معاني كثيرة في ألفاظ قليلة ، فكانت وسيلة لتقصير العبارة ؛ لأنّها أغنت عن الإطناب في الحديث والاسترسال في الوصف . نلاحظ مما سبق أنّ الشعراء المستعطفين قد اهتموا بالتصوير الفني ، وكانت بعض صورهم جديدة مبتكرة ، وقد لجأوا إلى الصورة الفنية واتخذوها وسيلة لتوضيح معانيهم ، وجعلها أكثر تأثيراً وجمالاً ، كما حاولوا من خلال تلك الصور استثارة عطف من يستعطفون واستمالة قلوبهم .

رابعاً : المحسنات المعنوية واللفظية :

نُظِمَت الأشعار الاستعطافية في مجملها في لحظات قاسية وفترات عصيبة ، وعلى الرغم من ذلك كانت هذه الأشعار مكسوة بحلل بهية تزيدها بهاءً ورقةً ، ومن هذه الحلل المحسنات المعنوية واللفظية التي جاءت خدمةً للنص وللمعنى دون تكلف يُذكر ، وكانت في مقدمة المحسنات المعنوية الطباق والمقابلة ، وقد لجأ الشعراء المستعطفون إليهما في معرض موازنتهم بين ما كانوا عليه قبل نكبتهم وما آلوا إليه بعدها ؛ فهذا ابن زيدون يوازن بين أيام عزّه ورفعته ، حيث كان يظأ النجم بأخمصه وبين أيام نلّه وهوانه، حيث أمسى خذّه موطناً لمن يخطو :

أما وأرتني النجم موطناً لأخمصي لقد أوطأت خذي لأخمص من يخطو⁽¹⁾

[الطويل]

وكما عرفنا فقد نُكِبَ ابن زيدون مرتين : مرّة من أبي الحزم بن جهور الذي زجّ به في السجن ، وأخرى من محبوبته التي قلته وابتعدت عنه ، وكما استعطف سَجَانَهُ كي يطلقه استعطف محبوبته كي ترقّ لحاله وتعود إليه ، ونراه يكثر من استخدام الطباق والمقابلة في استعطافها ، وخاصة في قصيدته النونية الشهيرة التي قابل فيها بين التداني

(1) ديوان ابن زيدون : 86 .

والطيب والتلاقي والضحك ، والليالي البيضاء من ناحية وبين التثائي والتجافي والتفوق
والبكاء والأيام السوداء من ناحية أخرى :

أضحى التثائي بديلاً من تداثينا
إن الزمان الذي ما زال يضحكنا
وقد نكون وما يُخشى تفرقنا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت
وناب عن طيب لقيانا تجافينا
أنساً بقربهم قد عاد يبيكنا
فاليوم نحن وما يُرجى تلاقينا
سوداً وكاتت بكم بيضاً ليلينا⁽¹⁾

[البسيط]

ويمزج الشاعر المقابلة مع التقسيم حين يستعطف محبوبته ويخاطبها قائلاً :
ته أحتمل واستطل اصبر وعزّ أهن وولّ أقبل وقُلّ أسمع ومُرّ أطمع⁽²⁾

[البسيط]

ويطابق ابن عمار بين البعد والقرب حين كان يأنس بقرب المعتمد أما بعد أن
أخطأ في حقه فقد أصبح بعده أنس من قربه :

فما أغرب الأيام فيما قضت به تريني بُعدي عنك أنس من قربي⁽³⁾

[الطويل]

أما ابن أبو البشر فيقابل بين الجنة ونعيمها وبين الجحيم وشقائه ، فقد كان يعيش
في نعيم عندما كان قريباً من محبوبته ينعم بوصولها ، ثم أمسى يعيش في شقاء حين
ابتعدت عنه وهجرته :

فيه لي جنة وفيه نعيمٌ وعذابٌ أشقى به وجحيم⁽⁴⁾

[الخفيف]

ويتحدث ابن حداد عن إساءته التي علم بها ملكه فغضب عليه ، لقد كان
الشاعر يحظى برضوان الملك أما بعد أن أساء فقد ناب السخط عن ذلك الرضوان :
وسما إلى الملك الرضي ابن صُمادح فأداني بالسخط من رضواته⁽⁵⁾

[الكامل]

ولجأ الشعراء إلى الطباق والمقابلة في معرض حديثهم عن الزمان وتقلباته ،
وتغيره من حال إلى حال ؛ فالدهر لا يدوم له شأن ولا ينفك عن التلاعب بالإنسان

(1) ديوان ابن زيدون : 9 - 10 .

(2) ديوان ابن زيدون : 68 .

(3) الحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 136 .

(4) خريدة القصر للمعاد الأصفهاني ، تحقيق محمد المرزوقي ، ج 1 : 15 .

(5) ديوان ابن حداد : 301 .

ومصيره ، فتارة يحطه من الأوج إلى الحضيض وأخرى يُعليه من الأسفل إلى الأعلى ،
لقد تحدث ابن زيدون عن هذا الأمر في مفتاح قصيدته السينية ، ونكاد لا نجد بيتاً واحداً
في مفتاح تلك القصيدة إلا وفيه طباق أو مقابلة ، كما في قوله :

ما على ظني بأسٌ	يجرحُ الدهرُ ويأسو
وربما أشرفَ بالمرء	على الآمالِ يأسُ
وقد يُنجيكُ إغفالٌ	ويرديكُ احتراسُ
ولكم أجدى قعودٌ	ولكم أكدي التماسُ
وكذا الدهرُ إذا ما	عزَّ ناسٌ ذلَّ ناسُ
وبنو الأيامِ أخيفٌ	سراةٌ وخُساسُ ⁽¹⁾

[مجزوء الرمل]

لقد طباق الشاعر في أبياته هذه بين يجرح ويأسو ، وبين الأمل واليأس ، وقابل
بين ينجيك إغفال ويرديك احتراس ، ، كما قابل بين أجدى قعود وأكدي التماس ، ثم
طابق بين عزّ وذلّ ، وبين السراة والخساس ، فكان الطباق والمقابلة في قصيدته خدمة
للمعنى الذي أراده دونما تكلف يُذكر .

وتحدث ابن حداد عن الدهر وتقلباته حديثاً مشابهاً لحديث ابن زيدون فرأى أن
الخطوط تلعب دوراً كبيراً في إسعاد المرء وإتعاسه ، والدهر عندما ينفع أحداً أو يضره
فإنه لا يصنع ذلك عن سابق إصرار ، وإنما يكون مثاله كمثال الماء المنهمر من السماء
ينفع بقعة ويضرّ أخرى :

فَدَحَ الزَّمانَ فَإِنَّه لَم يَعْتَمِدْ	بجلاله أحداً ولا بهوائه
كالمزّنِ لَم يُخصَصْ بنافعِ صَوْبِهِ	أفقاً ولم يختَرْ أذى طوفاته ⁽²⁾

[الكامل]

فالشاعر طباق بين الجلال والهوان في البيت الأول ، أما في البيت الثاني فطابق
بين النفع والضرر .

أما ابن غصن الحجاري فقد تأسى بالدنيا ورأى أنها لا تخلو من الفرح كما أنها
لا تخلو من الهمّ ؛ فالفرح والهمّ ملازمان للإنسان في حياته إن غاب عنه فرح حلّ محله
همّ ، وإن انقشع همّ ناب مكانه فرح :

(1) ديوان ابن زيدون : 81 .

(2) ديوان ابن حداد : 301 .

أرى نوبَ الدنيا تروح وتغتدي فمن فرح ناءٍ وهم مخيم⁽¹⁾

[الطويل]

كما لجأ الشعراء إلى استخدام الطباق والمقابلة في معرض مدحهم لمن يستعطفون ، فهذا ابن زيدون يمدح سجانَه أبا الحزم بن جهور ويشيد بحبّه للسلم ونبذَه للحرب ، ويقابل بين يُمن السلم وشؤم الحرب ، فيقول :

وزير سلمٍ كفاه يُمن طائره شؤم الحروب ورأى مَحْصُدُ المرر⁽²⁾

[البسيط]

كما مدحه وأشاد بعلمه بقصيدة أخرى وطابق بين الخصوص والعموم، وبين الجاهل والعليم بقوله :

واحدٌ سلمَ الجميعُ له الأمرَ فكان الخصوصُ وفقَ العموم
قلد الغمزُ ذا التجارب فيه واكتفى جاهلٌ بعلم العليم⁽³⁾

[الخفيف]

ومدح ابن عمار المعتمد ، ورأى أن الجبايرة لا يخاطبونه إلا بعدما يرفعون أياديهم إليه ، ويضعون جباههم أمامه :

ما يعرضُ الجبارُ منه حاجةٍ إلا برفع يدٍ ووضع جبين⁽⁴⁾

[الكامل]

ويعتبر ابن عمار عن حبه للمعتمد ، ذلك الحب الذي سيمكنه من الحصول على العفو الذي ينشده ، والصفح الذي يبتغيه :

أهابك للحق الذي لك في دمي وأرجوك للحب الذي لك في قلبي⁽⁵⁾

[الطويل]

لقد طابق ابن عمار في هذا البيت الذي أثنى عليه دارسو الأدب⁽⁶⁾ بين أهاب وأرجو . كما قابل في بيت آخر استشفع فيه بأحد أبناء المعتمد بين عز الغنى وذلة المسكين :

(1) إعتاب الكتاب لابن الأبار : 219 .

(2) ديوان ابن زيدون : 149 .

(3) ديوان ابن زيدون : 124 .

(4) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 425 .

(5) الحلة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 136 .

(6) قال ابن الأبار عن هذا البيت (أنه - على سهولة مبناه - من أحسن ما قيل في معناه ، وبمثله فلتخدع الأكباب ، وتستعطف الأعداء للأحباب) . ينظر : الحلة السيرة ، ج 2 : 136 .

حيث التقى الخَصَمَانِ حَقّاً والتقى عزّ الغنى بذلّة المسكين⁽¹⁾

[الكامل]

أما ابن سيده فرأى أنّ دمه إنّما كوّن بفضل أعطيات أميره ، وكان حقاً على الأمير أن يفني ما كوّنه إن هو أراد ذلك :

دم كوّنته مكرماتك والذي يكون لا عتبّ عليه إذا أفنى⁽²⁾

[الطويل]

ونرى الشاعر قد طابق في هذا البيت بين التكوين والفناء .

واستخدم الشعراء الطبايق والمقابلة في معرض إسهابهم الحديث عن معاناتهم وسوء حالهم جرّاء ما ألمّ بهم ، فهذا ابن عمار يُظهر نفسه بمظهر الإنسان المضطرب الخائف الذي لا يعرف إذا كان خيره في الاقتراب من المعتمد أم في البعد عنه :

وأصبحتُ لا أدري أفي البعد راحتي

فأجعله حظّي أم الحظُّ في القرب⁽³⁾

[الطويل]

أما ابن راشد فأعلم محبوبته ببؤسه وسوء حاله بعدما هجرته ، وتوسّل إليها كي ترثي لحاله ، وتدع السخط وتعود للرضى ؛ لأنها تظلمه عندما تقابل حبه لها ببغض وهجر :

وأجز وُدّي بمثله ودّع السخطُ وعد للرضى فللختم فضُّ

يا شقيقَ الفؤادِ حكْمك جورٌ لك مني حُبّ ولي منك بغضٌ⁽⁴⁾

[الخفيف]

ويشترك معه في المعاناة ابن أبي البشر الذي أمسى دائم البكاء ، بانس العيش بسبب فراق محبوبته ، فكلمها كتب إليها أحرفاً محت دموعه تلك الأحرف :

إذا كتبتُ يده أحرفاً إليك محا دمعهُ أحرفاً⁽⁵⁾

كان الطبايق الذي أكثر الشعراء المستعطفون في استخدامه طبايق الإيجاب ، وهو الذي يتمّ دون استخدام وسائط لغوية كالنفي أو النهي ، أما طبايق السلب فكان قليلاً في الأشعار الاستعطافية ومنه قول ابن زيدون :

(1) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 424 .

(2) جذوة المقتبس للحميدي ، باب 8 : 293 .

(3) اللحظة السيرة لابن الأبار ، ج 2 : 137 .

(4) خريدة القصر للعماد الأصفهاني ، تحقيق عمر الدسوقي ، قسم 4 ، ج 1 : 16 .

(5) خريدة القصر للعماد الأصفهاني ، تحقيق محمد المرزوقي ، ج 1 : 10 .

من مبلغ المبلسينا بانتزاحهم حزناً مع الدهر لا يبلي ويُبلىنا⁽¹⁾

[البسيط]

والشاعر طابق بين يبلي ولا يبلي مستخدماً لا النافية .

وهناك ضرب آخر من المحسنات المعنوية نكاد نجده في معظم الأشعار الاستعطافية وهو الافتتان⁽²⁾، ونرى هذا الضرب في القصيدة الواحدة التي تجمع إلى جانب الاستعطاف غرضاً شعرياً أو أكثر ، وأحياناً نجده في البيت الواحد ، ومثاله قول ابن الحنات ، في مستهل قصيدة استعطاف بها أبا الوليد بن جهور :

إِنَّا إِلَى اللَّهِ فِي الرُّزْءِ الَّذِي فَجَعَا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ فِي الْحَكْمِ الَّذِي وَقَعَا
أَبَّ كَرِيمٍ غَدَا الْفَرْدَوْسُ مَسْكَنَهُ وَابْنَ نَجِيبٍ تَوَلَّى الْأَمْرَ وَاضْطَلَعَا
لِللَّهِ شَمْسٌ ضَحَى فِي اللَّحْدِ قَدْ غَرَبَتْ فَأَعْقَبَتْ قَمراً فِي السَّعْدِ قَدْ طَلَعَا⁽³⁾

[البسيط]

ونرى الشاعر يجمع في كل بيت من الأبيات السابقة بين تهنئة أبي الوليد بن جهور باستلامه مقاليد الحكم ، وبين تعزيته بوفاء والده جاعلاً ذلك مقدمة لاستعطافه . وإلى جانب الافتتان وُجدت التورية على الرغم من أنها كانت قليلة في الأشعار الاستعطافية، ومثالها قول ابن زيدون :

وهلاً أقامت أنجم الليل ماتماً لتندب في الآفاق ما ضاع من تتلي⁽⁴⁾

[الطويل]

والتتل ضرب من الطيب ، وفي الفعل (ضاع) تورية ، فهو يأتي بمعنى هلك ، ويسأتي بمعنى فاح⁽⁵⁾ .

كما أننا لا نجد التورية إلا عند ابن زيدون فإننا لا نجد المدح الذي يشبه الذم إلا عنده أيضاً ، فقد مدح ابن جهور تمهيداً لاستعطافه ، فقال :

محاسن ما للحسن في البدر علة سوى أنها باتت تمل فيستملي⁽⁶⁾

[الطويل]

(1) ديوان ابن زيدون : 9 .

(2) الافتتان : هو الجمع بين فئتين مختلفتين ؛ كالغزل والحماسة والمدح والهجاء والتعزية والتهنئة . ينظر : جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع : أحمد الهاشمي ، دار الكتب العلمية - مصر ، (د.ت) ، ط6 : 291 .

(3) الذخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 449 .

(4) ديوان ابن زيدون ورسائله : 261 . أما في ديوان ابن زيدون فقد اختلفت رواية البيت ، فالكلمة الأخيرة فيه

(تتلي) في ديوان ابن زيدون ورسائله: 261، أما في ديوان ابن زيدون فالكلمة الأخيرة في البيت (نتلي): 159 .

(5) ديوان ابن زيدون ورسائله : 261 .

(6) ديوان ابن زيدون : 160 .

ويقصد الشاعر أن محاسن الأمير تمدّ البدر بالحسن والبهاء ، ولا عيب في البدر إلا أنه يقتبس جماله من بهاء الأمير⁽¹⁾.

أما المحسنات اللفظية التي استخدمها الشعراء المستعطفون فيأتي الجناس بنوعيه التام والناقص في مقدمتها ، وبعد ابن زيدون من المكثرين في استخدامه ؛ فمقدرته الشعرية وتمكنه من علوم اللغة ، وإحاطته بثقافة واسعة كانت أموراً مكنته من استخدامه دون تكلف يذكر ، فها هو ذا يجانس بين وزر ووزر جناساً ناقصاً بقوله :

ما للذنوب التي جاتي كبائرِها غيري يُحملني أوزارها وِزري⁽²⁾

[البسيط]

كما يجانس بين خلق وخلق أثناء مدحه لأبي الحزم بن جهور :

خطر يقتضي الكمال بنوعِي خلقُ بارعٍ وخلقٍ وسيم⁽³⁾

[الخفيف]

ويشكو الشاعر النكبة التي داهمته وهو في مقتبل الشباب ، ونراه أثناء ذلك يجانس بين النبل وهي السهام ، وبين النبل وهي المروءة والفضل :

لعمر الليلي أن يكن طالَ نزعُها لقد قرطست بالنبل في موضع النبل⁽⁴⁾

[الطويل]

كما يجانس بين الانتهاش وهو القضم بالأضراس والانتهاش وهو القضم بمقدمة الأسنان بقوله :

أذوبٌ هامت بلحمي فاتتهاش وانتهاش⁽⁵⁾

[مجزوء الرمل]

وعندما خاطب ابن زيدون محبوبته واستعطفها ورجاها أن تعود إلى وصاله ، وتخلصه من ضنك الهجر وألم الفراق استخدم الجناس كما استخدم ضرورياً أخرى من البديع ، وكأنه أراد من وراء ذلك لفت نظر محبوبته الشاعرة إلى براعته الشعرية وثقافته اللغوية، فها هو يجانس في قصيدته النونية بين الأسى والتأسي بقوله :

(1) ديوان ابن زيدون ورسائله : 26 .

(2) ديوان ابن زيدون : 149 .

(3) ديوان ابن زيدون : 124 .

(4) ديوان ابن زيدون : 159 .

(5) ديوان ابن زيدون : 82 .

نكادُ حينَ تُناجِيكُمُ ضمائرنا

يَقْضِي عَلَيْنَا الأَسَى لولا تَأْسِينا⁽¹⁾

[البسيط]

واستهل الشاعر قصيدة استعطافية أرسلها إلى أبي الحزم بن جهور بالتغزل

بمحبوبته ، ويجانس في مفتتحها بين الحوار والحوار بقوله :

فَهَمْتُ مَعْنَى الهوى مِنْ وَحْيِ طرفكِ لي إِنَّ الحوارَ لمفهوماً مِنَ الحوارِ⁽²⁾

[البسيط]

أما الجناس التام فنادر ما نجده في الأشعار الاستعطافية ؛ لأنه قلما يأتي عفو

الخاطر ، ومثاله قول الفكيك في قصيدة استعطف بها المعتمد :

كَمْ قائلٍ لي وَأثوابي مدنسةٌ وقد غدوتُ مُذالاً مثلَ أذيالِ

أصرتَ ترفلٍ في الأسمالِ؟ قلتَ لهم : أسماليَ اليومَ بينَ الناسِ أسمى لي⁽³⁾

[البسيط]

ومنه أيضاً قول المعتمد يرثي ابنه استمالةً لقلب سجانته ، واستدراجاً لعطفه :

أبا خالدٍ أورتنتي الهَمَّ خالداً أبا نصرٍ مذ ودَّعتَ ودَّعتي نصري⁽⁴⁾

[الطويل]

وهناك ضرب آخر من المحسنات اللفظية لا نجده إلا عند ابن زيدون ، وهو رد الصدر

على العجز أو التصدير ، ومثاله قوله :

والصدرُ مُذُ وردتَ رفهاً نواحيه توم العقود لم تجنح إلى صدر⁽⁵⁾

[البسيط]

والبيت هذا من قصيدة استعطف بها سجانته وافتتحها بالتغزل بمحبوبته ، ويقصد أن

القلائد الجميلة لم تقنع إلا بصدر محبوبته مكاناً ومستقراً لها .

كما نجد التصدير في بيت آخر يمدح فيه أبا الحزم :

وزعيمٌ بأن يذللَّ الصعب مثابي إلى الهمام الزعيم⁽⁶⁾

[الخفيف]

نستطيع القول أن المحسنات البديعية كانت قليلة بشكل عام في الأشعار

الاستعطافية ، وكان أكثر ما استخدمه الشعراء منها الطباق والمقابلة ، وقد لجأ الشعراء

(1) ديوان ابن زيدون : 10 .

(2) ديوان ابن زيدون : 147 .

(3) الذخيرة لابن بسام ، قسم 4 ، مجلد 1 : 374 .

(4) قلائد العقيان لابن خاقان : 12 .

(5) ديوان ابن زيدون : 147 .

(6) ديوان ابن زيدون : 125 .

المستعطفون إليهما خدمةً للمعنى الذي أرادوه فازداد بهما وضوحاً وتأثيراً ، وقد استخدم الشعراء الطباق والمقابلة في معرض موازنتهم بين ما كانوا عليه وما آلوا إليه ، كما لجأوا إليهما في معرض مدحهم لمن يستعطفون، وفي حديثهم عن غدر الزمان وتقلبه ، وفي إطنابهم الحديث عن المعاناة التي رافقتهم بعد نكبتهم .

كما أكثر الشعراء المستعطفون من استخدام الافتتان والجناس في أشعارهم، أما التورية والتصدير والتقسيم والمدح بما يشبه الذمّ فقلما وردت في الأشعار الاستعطافية . وأمر آخر يجب التنويه إليه وهو أن الشعراء المستعطفين كانوا يهدفون من وراء أشعارهم الاستعطافية الحصول على عفو من يخاطبون واستدرار عطفهم ، وليس إلى إظهار براعتهم في نظم الأشعار ، وتزويقها وتمييقها بالمحسنات ، ويفسر لنا ذلك ابن زيدون الذي أكثر من المحسنات في مفتتح نكبته ، ثم عندما اكتوى بناهاها ولم يعد يحتملها أخذ يخاطب سجانها بأشعار تكاد تخلو تماماً من أي ضرب من ضروب المحسنات البديعية .

خامساً : الأوزان والقوافي :

نظمت جلّ الأشعار الاستعطافية على نمط القصيدة التقليدية التي تعتمد على أساسين هما : وحدة الوزن ووحدة القافية ، ولم يشذ عن ذلك إلا ابن زيدون وابن غصن الحجاري ؛ فابن زيدون نظم مسمطين⁽¹⁾ في الاستعطاف: الأول مطلعته (تتشقق من عرف الصبا ما تتشققا) ومنه :

رمتني الليالي عن قسيّ النوائب
فما أخطأتني مرسلات المصائب
أقضي نهاري بالأماني الكواذب
وأوي إلى ليلٍ بطنيء الكواكب
وأبطأ سارٍ كوكبٍ بات يكلاً⁽²⁾

[الطويل]

والمسمط الثاني مطلعته (سقى الغيث أطلال الأحبة بالحمى) ، ومنه :

أهيمُ بجبارٍ يعزُّ وأخضعُ

(1) المسمط : نسبة إلى السمط وهو القلادة ، حيث يضع الشاعر لأوزانه وقوافيه نظاماً خاصاً يراعيه في كل أقسام القصيدة ، وتتكرر فيه قافية أو أكثر بعد كل عدد معين من الأَشْطُر . ينظر : موسيقى الشعر : إبراهيم

أنيس ، مطبعة الإنجلوالمصرية - القاهرة ، (د.ت) ، ط5 : 307 .

(2) ديوان ابن زيدون : 38 .

شذا المسك من أرداته يتضوعُ
 إذا جئتُ أشكوه الجوى ليس يسمعُ
 فما أنا في شيء من الوصل أطمعُ
 ولا أن يزور المقتلين منام⁽¹⁾
 [الطويل]

كما نظم ابن زيدون أرجوزة استعطافية مطلعها (يا دمع صب ما شئت أن
 تصوبا) ، ومنها :

قد طال ما تجرّم الذنوبا ولم يدع في العذر لي نصيبا
 إن قرّت العين بأن أووبا لم آل أن أسترضي الغضوبا
 حسبي أن أحرّم المغيبا قد ينفع المذنب أن يتصوبا⁽²⁾
 [الرجز]

أما عبد الملك بن غصن الحباري فقد نظم قصيدة طويلة احتوت ألف بيت من
 الشعر ، وأرسلها إلى سجنائه ، وقال عنها مفتخراً بها :

وألف بيت من القريض إذا مات جميع الأنام لم تمت
 لو أن شعر الوري ينظم في عقد لكات بموضع السطة⁽³⁾

لكن هذه القصيدة الطويلة لم تصلنا كاملة ، وإنما وصلنا بعض من أبياتها ،
 ونلاحظ من الأبيات التي وصلتنا أن الشاعر لم يلتزم فيها ببحر واحد أوبقافية واحدة ،
 وإنما قسمها إلى أقسام وجعل لكل قسم بحراً وقافية .

كانت البحور التامة هي الأكثر شيوعاً في الأشعار الاستعطافية ، وقلمنا نظم
 الشعراء المستعطفون أشعارهم في بحور مجزوءة ، وهذا يدل على أن الأشعار
 الاستعطافية لم ينظمها الشعراء في بدايات محنهم ، وإنما نظموها بعد أن مرّ على نكبتهم
 أمد ؛ فهدأت ثورة فزعهم واستكانت نفوسهم باليأس والهّم المستمر ؛ لأن الشعر إن قيل
 وقت المصيبة والهلع تأثر بالانفعال النفسي ، وتطلب بحراً قصيراً يتلاءم وسرعة التنفس
 وازدياد النبضات القلبية⁽⁴⁾ ، وعلى الرغم من (أن القدماء من شعراء العرب لم يتخذوا

(1) ديوان ابن زيدون : 29 .

(2) ديوان ابن زيدون : 17 .

(3) الذخيرة لابن بسام ، قسم 3 ، مجلد 1 : 333 .

(4) موسيقى الشعر لإبراهيم أنيس : 176 - 178 .

لكل موضوع وزناً خاصاً من بحور الشعر⁽¹⁾ إلا أن البحر الطويل كان أكثر البحور استخداماً في الأشعار الاستعطافية ؛ لأن موسيقى هذا البحر هادئة خفيفة تتلاءم وتتسجم مع مواقف التحسر والتأسف والتشكي والتألم ، وهذه مواقف تحتاج إلى تأمل وعمق لا يصلح لها غير البحر الطويل، وذلك لما تحتويه موسيقاه من طول وكثرة في المقاطع وخفاء في الجرس ، وكلها صفات تتيح للمستعطف تفهم الأشعار الاستعطافية دون أن ينشغل ببدندنة النغم وجلبة التفاعيل⁽²⁾، وإضافة إلى البحر الطويل أكثر الشعراء المستعطفون من استخدام البحور : البسيط والكامل والخفيف والوافر ، وهذه البحور ذات أوزان طويلة ومقاطع كثيرة ، وكان الشعراء المستعطفون يتخيرونها عادة ليصبوا فيها أشجانهم وما ينفس عن حزنهم وجزعهم⁽³⁾.

أما بالنسبة للقوافي فقد كانت حروف النون واللام والراء والميم والحاء والباء أكثر الحروف التي جعلها الشعراء المستعطفون رويّاً في أشعارهم ، وهي حروف تجيء رويّاً بكثرة في عموم الشعر العربي ، وتلتها حروف الكاف والقاف والذال وهي حروف متوسطة الشبوع في الروي ، أما الضاد على الرغم من أنه من الحروف التي يقلّ شبوعها في الروي إلا أنه كان رويّاً لقصيدتين اثنتين ، ولا نجد أياً من القصائد والمقطوعات الاستعطافية ختمت أبياتها بحرف ينذر مجيئه رويّاً كالذال والغين والحاء والشين والزاي والطاء والواو⁽⁴⁾، وكانت معظم قوافي الأشعار الاستعطافية مطلقة ، وكانت المقيدة منها قليلة ، ونجد الرفع⁽⁵⁾ في بعض القوافي ، وكان أحياناً بالألف التي ينبغي أن تلتزم بالقوافي كلها⁽⁶⁾، وأحياناً أخرى كان الشاعر يراوح في أشعاره بين الرفع بالواو والياء، ومثال ذلك قصيدة ابن عمار التي أرسلها إلى الرشيد بن المعتمد الملقب بالفتح مستشفعاً فيه ، ومنها :

يا فتحُ جردّها عنايةً فارسٍ بطلٍ على حرب الوليِّ أمينٍ

(1) النقد الأدبي الحديث : محمد غنيمي هلال ، دار العودة - بيروت ، ط 1 ، 1987م : 441 .

(2) المرشد إلى فهم أشعار العرب : عبد اللطيف المجدوب ، (د.ن) ، ط 1 ، 1955م : 392 .

(3) موسيقى الشعر لإبراهيم أنيس : 176 .

(4) موسيقى الشعر لإبراهيم أنيس : 248 .

(5) الرفع : حرف علة يسبق الروي مباشرة ، ويلتزم في سائر الأبيات ، ولا يجوز أن يفصل بينهما حرف .

آخر . ينظر : العروض والقافية : عادل أبو عشة ، مكتبة خالد بن الوليد - نابلس ، ط 1 ، 1406هـ / 1986م : 198 .

(6) ومثال ذلك قصيدة ابن زيدون الحاتية ومطلعها :

أما وألحاظٍ مراضٍ صحاح تصبى وأعطافٍ نشاوى صحاح . ينظر : ديوانه : 145 .

واقرن شفاعتكِ الكريمةَ عنده

بتواضعٍ في عِزةٍ و سُكونٍ⁽¹⁾

[الكامل]

ونجد أيضاً ألف التأسيس في بعض القصائد والمقطوعات الاستعطافية (وهي الألف التي تسبق الروي ولكنها تكون معه في كلمة واحدة على أن يفصل بينهما حرف أجنبي يسمى الدخيل)⁽²⁾، ومن ذلك قول ابن زيدون مستعظفاً محبوبته :

ما ضَرَ لو أَنَّكَ لي راجِمٌ وعلتي أنتَ بها عالم
تضحك في الحُبِّ وأبكي أنا اللهُ فيما بيننا حاكم⁽³⁾

[السريع]

لقد التزم الشاعر في القصيدة التي منها هذين البيتين بألف التأسيس ، وكثيراً ما كان الشعراء يُشيعون حركة حرف الروي فيتولد عن هذا الإشباع حرف علة يكون حرف وصل يعقب الروي ، ومن ذلك قول الفكيك :

إني لأعجب من سجن به أمنتَ نفسي من الخوفِ في عريس رنبال
ولم أرَ مثل السيفِ أغمده من انتضاه لأشعاري وأقوالي⁽⁴⁾

[البسيط]

ومنه أيضاً قول ابن عمار مُعرّضاً بأعدائه وشائنيه :

ولا تلتفت رأي الوشاة وقولهم فكل إناءٍ بالذي فيه يرشخ
تخيلتهم لا درّ الله درهمٌ أشاروا تجاهي بالشمات وصرحوا⁽⁵⁾

[الطويل]

وهكذا لاحظنا أن شعر الاستعطاف حفل بأوزان تتسجم وتتلاءم مع موضوعاته ، كما أن الشعراء المستعطفين حققوا الملاءمة بين أواخر الأبيات في أشعارهم ، حين اختاروا أفضل الحروف وأكثرها شيوعاً لروي قوافيهم .

سادساً : استلهم التراث :

استلهم الشعراء المستعطفون ثقافتهم وخبراتهم التراثية وضمّنها أشعارهم ، وكان الشعراء يهدفون من وراء ذلك إلى إقناع من يخاطبون ببراعتهم ، كما كان للأمتة التي اختاروها أثر في المقارنة بين أحوال الشعراء المنكوبين ، وأحوال أصحاب تلك

(1) النخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 425 .

(2) العروض والقافية لعادل أبو عمشة : 198 .

(3) ديوان ابن زيدون : 23 .

(4) النخيرة لابن بسام ، قسم 4 ، مجلد 1 : 374 .

(5) النخيرة لابن بسام ، قسم 2 ، مجلد 1 : 421 .

الأمثلة على أمل أن يلقي الشعراء المصير الذي لاقاه أولئك المتمثل بهم وهو الانعتاق والخلص .

كان ابن زيدون أكثر الشعراء المستعطفين استلهاماً للتراث ، وهو - كما نعلم - ذو خبرة عريضة ، وثقافة واسعة بعلوم الدين والأدب والتاريخ ، وقد ضمن ثقافته تلك أشعاره الاستعطافية ، فلا نكاد نجد له قصيدة استعطافية إلا وفيها ذكر لحادثة أو مثل استمده من مصادر معارفه المختلفة ، وكان القرآن الكريم في مقدّمة المصادر المعرفية التي أفاد منها الشاعر ، حيث ظهر جلياً تأثره في أسلوبه ، واتخذ من قصصه وسيلة لعرض قضيته ، وبيان براءته ، ومن ذلك قوله مستعظفاً سجّانه :

نار بغي سرى إلى جنة الأمن لظاها فأصبحت كالصريم
بأبي أنت إن تشأ تكُ برداً وسلاماً كنار إبراهيم⁽¹⁾
[الخفيف]

وقد أشار الشاعر في البيت الأول إلى لآية الكريمة " فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم "⁽²⁾، أما في البيت الثاني فأشار إلى قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - الذي ألقى به قومه في النار ؛ ليحرّقوه فأنقذه الله منها بأن جعلها برداً وسلاماً عليه .

والشاعر نكب وزجّ به في السجن بفعل دسائس الوشاة الذين كانوا كأخوة يوسف - عليه السلام - حين ألقوا به في غيابات الجبّ ، واتهموا الذئب زوراً وبهتاناً بدمه :
كان الوشاة وقد منيتُ بإفكهم أسباط يعقوب وكنت الذيبا⁽³⁾
[الكامل]

وخاطب الشاعر أمه من سجنه ، وذكرها بأمر موسى - عليه السلام - ؛ ليصبرها على فراقه ، ويؤملها ببقائه ، فقال لها :
أمقوتلة الأجفان مالكِ والهأ ألم ترك الأيام نجماً هوى قبلي
أقلى بكاء لست أول حرة طوت بالأسى كشحاً على مضض الثكل
وفي أم موسى عيرة إن رمت به إلى اليم في التابوت فاعتبري واسلي⁽⁴⁾
[الطويل]

(1) ديوان ابن زيدون : 125 .

(2) القلم : آية 19 - 20 .

(3) ديوان ابن زيدون : 133 .

(4) ديوان ابن زيدون : 160 .

وتأسى الشاعر مرة أخرى بموسى - عليه السلام - حين برّر هروبه من السجن، فقال :

فررتُ فإن قالوا الفرار إرابةً فقد فرّ موسى حين همّ به القبطُ⁽¹⁾

[الطويل]

وخاطب الشاعر سجّانه نافياً ما اتّهم به ، موضحاً أنه لا يعقل أن ينكث فيه القصائد التي نظمها في مدحه :

أنكث فيك المدح من بعد قوةٍ ولا أقندي إلا بناقضة الغزل⁽²⁾

[الطويل]

ويشير الشاعر في هذا البيت إلى الآية الكريمة { ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً }⁽³⁾.

وعندما التمس الشاعر شفاعته صديقه أبي حفص بن برد عبّر عن المحبة التي يكنّها له ، لقد كانت تلك المحبة كالنص الذي لا يخالفه قياس :

وودادي لك نصٌّ لم يخالفه قياس⁽⁴⁾

[مجزوء الرمل]

لقد دلّ الشاعر في هذا البيت على علمه بأصول الفقه ، حيث يعد النص سواءً أكان من القرآن أم من السنة الشريفة أقوى مصادر التشريع ، ويفوق غيره من المصادر الأخرى كالأجتهاد والقياس ، وعبّر الشاعر في القصيدة ذاتها عن بؤسه وشقائه حين شكّا أصدقاءه الذين تنكروا له وانقلبوا عليه بعدما نكب :

ما ترى في معشرٍ حالوا عن العهد وخاسوا
ورأوني سامرياً يتقي منه المساس⁽⁵⁾

[مجزوء الرمل]

والشاعر في هذين البيتين يشير إلى قصة السامري الذي عبد العجل فعوقب بأن مُنع من مخالطة الناس ، فكان إذا مسّ الناس حَمّ الماسّ والممسوس ، فتحامى الناس وتحاموه ، وكان يصيح فيهم : لا مساس .

(1) ديوان ابن زيدون : 87 .

(2) ديوان ابن زيدون : 162 .

(3) النحل : آية 92 .

(4) ديوان ابن زيدون : 82 .

(5) ديوان ابن زيدون : 82 .

وإلى جانب القرآن الكريم رأينا ابن زيدون يوظف معرفته التاريخية الواسعة في أشعاره الاستعطافية ، فما هو يخاطب سجانته قائلاً :

ولو أنني واقعتُ عمداً خطيئةً لما كان بدعاً من سجاياك أن تُملي
فلم أستترُ حربَ الفجارِ ولم أطع مسيلمةَ إذ قال إني من الرسل⁽¹⁾
[الطويل]

ويشير الشاعر في هذين البيتين اللذين أرسلهما إلى ابن جهور مستعظفاً إياه إلى حرب الفجار التي اقتتل العرب فيها في الأشهر الحرم ، ثم يشير إلى مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة في حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - واستفحل أمره حتى قضى عليه المسلمون في بداية خلافة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - .

كما ضمن ابن زيدون أشعاره أمثالاً شائعة بين الناس ، ومن ذلك قوله :

أيهذا الوزيرُ ها أنا أشكو والعصا بدء قرعها للحليم⁽²⁾
[الخفيف]

ويشير إلى المثل القائل (إن العصا قرعت لذي الحلم)⁽³⁾.

وإضافة إلى ذلك فقد تأثر ابن زيدون بالأشعار التي نظمت قبله لا سيما المشرقية منها ، حيث أفاد من معانيها وألفاظها وصورها ، ويظهر هذا الأمر جلياً واضحاً في رسائله النثرية التي ضمنها الكثير من الأشعار المشرقية ، أما في قصائده وأشعاره الاستعطافية فقد تأثر بكثير من الشعراء الذين سبقوه ، فعندما يقول :

يلبذُ الورْدُ السبنتى وله بعدُ افتراس⁽⁴⁾

[مجزوء الرمل]

فإنه ينظر إلى قول ابن الرومي :

سكنتُ سكوناً كان رهناً بعدوةٍ عماس ، كذاك الليث للوثب يلبذ⁽⁵⁾

[الطويل]

أما عندما يقول مادحاً سجانته أبا الحزم بن جهور :

(1) ديوان ابن زيدون : 161 - 162 .

(2) ديوان ابن زيدون : 134 .

(3) ذو الحلم : هو عامر بن الظرب ، كان من حكماء العرب ، لا تحل بفهمه فهماً ، فلما تقمتم به السن أنكر من عقله شيئاً ، فقال لبيته : قد كبرت سني فإذا رأيتموني خرجت عن كلامي فأقرعوا لي المجن بالعصا . ينظر : ديوان ابن زيدون ورسائله هامش صفحة 281 .

(4) ديوان ابن زيدون : 83 .

(5) ديوان ابن الرومي ، شرح أحمد بسج ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط1 ، 1415هـ / 1994م ، ج1 :

ومتى يبدأ الصنيعة يولع

ك تمام الخصال بالنتيم⁽¹⁾
[الخفيف]

فهو ينظر إلى قول أبي تمام مادحاً :

هذا سحاب أنت سقت غمامه
فعلبك بعد الله فيض غمامه
إن ابتداء العرف مجدّ باسق⁽²⁾
والمجد كلُّ المجد في استتمامه⁽²⁾
[الكامل]

وحين سُجن الشاعر شبّه نفسه بالسيف الذي أودع غمده في غير قصيدة من قصائده وقد أخذ هذه الصورة عن علي بن الجهم الذي مرّ بتجربة مشابهة ، وقال :

قالوا: حبست، فقلتُ ليس بضائري
حبسي وأي مهندٍ لا يغمد⁽³⁾
[الكامل]

وقد حشد الشاعر أفعال أمر ونظمها في هذا البيت :

أجرٍ أَعْدِ آمِنٌ أَبْدَأُ عُدَّ أَكْفِ حُطُّ
تَخَفَّ ابْسُطِ اسْتَأْفِ صُنَّ أَحْمِ اصْطَنِعْ أَعْلِ⁽⁴⁾
[الطويل]

وقد سار في ذلك على درب المتنبي الذي قال :

أَقِلْ، أُنِيلْ، أَقْطِعْ، أَحْمِلْ، عُلِّ، سَلِّ، أَعْدِ
زِدْ، هَشِّ، بَشِّ، تَفْضَلْ، أَدْنِ، سُرِّ، صِلِ⁽⁵⁾
[البسيط]

ولم يكن ابن زيدون الوحيد من الشعراء المستعطفين الذي استلهم التراث ووظفه في أشعاره ، وإن كان أكثرهم فعلاً لذلك ، فهذا عبد الملك بن غصن الحجاري يتأسى بالأنبياء والمرسلين الذين عانوا أكثر مما عانى ، وابتلوا بأشدّ مما ابتلي به ، ثم فرّج الله عليهم ، وبذل بشنتهم فرجاً ، وحول عسرهم إلى يسر ، يقول :

أو يكن عثر الزمان فمرجواً
لإنعاشنا القريبُ المجيبُ
قد أجابَ الإلهُ دعوةَ نوحٍ
حين نادى بآته مغلوبُ

(1) ديوان ابن زيدون : 125 .

(2) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب القزويني ، تحقيق محمد عبده عزلم ، دار المعارف - مصر (د.ت) ، مجلد 3

: 151 .

(3) ديوان علي بن الجهم ، دار الآفاق الجديدة - بيروت ، (د.ت) : 159 .

(4) ديوان ابن زيدون : 162 .

(5) العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب : 353 .

وشفى ذو الجلال علة أبو
وانقضى سجن يوسف وقد استب
ب وقد شارف الردى أيوب
أس وارتد مبصراً يعقوب⁽¹⁾
[الخفيف]

وكما تأثر ابن زيدون بالشعر المشرقي فقد تأثر غيره من الشعراء المستعطفين فيه ، فالشرق (كان يبدع ويصدر إبداعه ونتاج ثقافته إلى الأندلس؛ فيندفع أدباء الأندلس إلى تقليد ما وفد إليهم من شعراء المشرق وكتابه⁽²⁾)، فهذا الفكيك يشبه نفسه وقد سُجن بالسيف الذي أودع في غمده :

إني لأعجب من سجن به أمنت نفسي من الخوف في عريس رثبال
ولم أر مثل السيف أغمده من انتضاه لأشعاري وأقوالي⁽³⁾
[البسيط]

وهي صورة ابتدعها علي بن الجهم وقلده فيها ابن زيدون ، ونجد ابن عمار يتأثر بالشعر المشرقي ، إذ يروي ابن بسام أنه لما وردت على المعتمد قصيدته الحائية التي منها هذا البيت :

وبين ضلوعي من هواه تميمة ستفغ لو أن الحمام يجلج
[الطويل]

جعل الحاضرون من أعداء ابن عمار ينتقدونه ويعيبون شعره ، ويقولون : أي معنى أراد؟ ما قال شيئاً ولا كاد ، فقال لهم المعتمد : مهما سلبه الله من المروءة والوفاء فلم يسلبه الشعر ، إنما قلب بيت أبي ذؤيب الهذلي :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفت كل تميمة لا تنفع⁽⁴⁾
[الكامل]

كما نجد ابن الحناط - الذي استعطف أبا الوليد بن جهور ، وسبق استعطافه بتعزية أبي الوليد بوفاة أبيه ، وتهنئته بالحكم - يتأثر بعبد الله بن همام السلولي الذي عزى يزيد بن معاوية بوفاة أبيه ، إذ جمع بين تعزية يزيد وتهنئته بتوليه الحكم قائلاً :

اصبر يزيد فقد فارقت ذا كرم واشكر حباء الذي في الملك أصفاك
لا رزء في الأقسام قد علموا كما رزئت ولا عقبى كعباك⁽⁵⁾

(1) إعتاب الكتاب لابن الأبار : 220 .

(2) للفكاهة في الأدب الأندلسي لرياض قزيحة ، المكتبة العصرية - بيروت ، ط 1 ، 1418هـ / 1998م : 234 .

(3) الذخيرة لابن بسام ، قسم 4 ، مجلدا : 374 .

(4) الذخيرة لابن بسام قسم 2 ، مجلدا : 422 .

(5) البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، دار الكتب العلمية - بيروت ، (د.ت) ، ج 2 : 66 .

[البسيط]

لقد استلهم الشعراء المستعطفون التراث ووظفوه في أشعارهم خدمة للمعنى الذي أرادوه ، وكان القرآن الكريم في مقدمة المعارف التي أفاد منها الشعراء ، حيث تأثروا بأسلوبه وتأسوا بقصصه ، ثم نظروا إلى الأدب المشرقي فأفادوا منه وأحياناً (غلب الأنموذج الشرقي على الأديب الأندلسي حتى ليصعب على الدارس أن يعرف إذا كان الأدب الأندلسي يعبر عن واقع محلي أو يحاكي أنموذجاً أدبياً مشرقياً محض محاكاة)⁽¹⁾. وبهذا فقد تبين لنا أن الأشعار الاستعطافية قد تفاوتت أحجامها بين قصائد طويلة ومقطوعات قصيرة ، وغلب عليها تعدد الأغراض حتى في المقطوعة القصيرة ، وكانت لغة الأشعار الاستعطافية في عمومها سهلة ، فلم تكن عائناً أمام فهم تلك الأشعار ، وإضافة إلى ذلك رأينا ألفاظاً دلّت على درك المذلة التي وصل إليها أولئك الشعراء ، كما نجد ألفاظاً أخرى عبرت عن بؤسهم وشقائهم أدقّ تعبير ، وقد سار الشعراء المستعطفون على درب التقليد بافتتاحيات قصائدهم التي استهلوها أحياناً بالنسيب مجارة للشعراء الأقدمين ، كما قلّدوا من سبقوهم بخيالهم وصورهم ، وإن كنا لا نعدم عندهم جديداً في هذين المجالين ، واستخدم الشعراء المستعطفون في أشعارهم بعض المحسنات اللفظية والمعنوية التي كان لها دور في تسليط الضوء على بعض المعاني التي أرادوا تأكيدها ، ودور في جلاء الصورة وإيضاحها عن طريق المطابقة خاصة وغيرها من المحسنات الأخرى ، أما بالنسبة للبحور والقوافي ، فقد استخدم أكثر الشعراء المستعطفين البحور وحروف الروي الشائعة ، ولم يتعمدوا استخدام الغريب النادر منهما، وعرج الشعراء على التراث فاستلهموه ووظفوه خدمة للمعاني التي أرادوها في أشعارهم الاستعطافية .

(1) دراسات في الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة - : إحسان عباس ، دار الثقافة - بيروت ، ط 5 ، 1978م

الخاتمة

لا بد لي وأنا أنهى هذا البحث المُعَنُون بِـ (الاستعطاف في الشعر الأندلسي - عصر ملوك الطوائف 422-484 هـ) أن أقفَ وفقة سريعة مستعرضاً أهم النتائج التي توصلتُ إليها ، والتي أوجزها بما هو آت :

1. حددتُ عصر ملوك الطوائف ، بدايته ونهايته ، وتطرقْتُ إلى الحالتين السياسية والأدبية اللتين سادتتا فيه ، حيث كانت الحالة السياسية متردية ، أمّا الحالة الأدبية فكانت على النقيض من ذلك ، فقد شهد هذا العصر رقيّاً فنياً وأدبياً وعمرانياً لم يشهد له مثيل في العصور التي سبقته .
2. حاولتُ أن أضع تعريفاً لشعر الاستعطاف ، وأن أنقِصتُ بداياته ، وتبين لي أن النابغة كان قدوة الشعراء المستعطفين إلاّ أنّه لم يكن رائد هذا الفن الشعري - كما كان يظن - إذ سبقه شعراء آخرون في نظم الأشعار الاستعطافية ، كما لاحظتُ أن شعر الاستعطاف وُجد في شتى العصور إلاّ أن جلّه كان موجهاً للحاكم .
3. شهد عصر ملوك الطوائف ازدياداً ملحوظاً في الأشعار الاستعطافية ، حيثُ بينتُ سبب ذلك ، ثمّ أدرجتُ الأشعار الاستعطافية في فروع ثلاثة هي : استعطاف الحاكم ، واستعطاف المحبوبة ، واستعطاف الوالد ، ورأيتُ أن الفرع الأول يستحوذ على القسم الأكبر من الأشعار الاستعطافية ، كما رأيتُ أن الشعراء استعطفوا في هذا الفرع تصريحاً وتلميحاً ، والتصريح كان يتم بمخاطبة الحاكم المستعطف مباشرة والتماس العطف والعفو منه ، أو بمخاطبة وسيط علّه يتوسط للشاعر ويتشفع فيه ، أمّا استعطاف المحبوبة واستعطاف الوالد فكان يتم تصريحاً ودون الاستعانة بوسيط أو شفيع .
4. لاحظتُ أن هناك علاقة بين الاستعطاف وبين التذلل المهين وإهراق ماء الوجه ، وكان التذلل يزداد كلما طالت محن الشعراء ، فقد حوت أشعارهم التي نظموها في فترة متأخرة ما يدلّ على تذللهم وهوانهم أكثر من تلك الأشعار التي نظموها في فترة متقدمة من محنهم ، والتذلل المهين وُجد في شعر الشعراء المستعطفين كافة ، إلاّ أنّه كان يتفاوت من شاعر لآخر ومن فرع لآخر ؛ فالشعراء الذين استعطفوا محبوباتهم أفرطوا في الاستعطاف المشين والتذلل المهين ، ونجد ذلك أيضاً عند معظم الشعراء

- الذين استعطفوا الحكام ، أما الشعراء الذين استعطفوا والديهم فقد أقلوا من التذلل وبدوا متماسكين ومحافظين على كرامتهم خلال استعطافهم .
5. قلماً وُجِدَتْ مقطوعة أو قصيدة اقتصرت على الاستعطاف فقد لجأ الشعراء المستعطفون إلى الافتتان وهو الجمع بين فنين أو أكثر في البيت الواحد أو القصيدة الواحدة ؛ لذا فقد مزج الشعراء استعطافهم بأغراض شعرية ظنوا أنها تساعدهم في حصولهم على العطف الذي ينشدونه ، وقد تحدثتُ عن هذه الأغراض مستشهداً بشواهد منها ، محاولاً بيان الغرض الشعري الذي يلائم الاستعطاف ، والغرض الذي لا يلائمه .
6. كانت لغة الأشعار الاستعطافية سهلة غير متكلفة ، وكرّر الشعراء المستعطفون معانيهم في صور مختلفة وألفاظ متباينة ، وأكثروا من ألفاظ لها علاقة بالاعتذار والاستعطاف أو بالتذلل والهوان ، أو بما يدلّ على يؤسهم وشقائهم ، كما أكثر الشعراء المستعطفون من الصيغ الإنشائية التي خرجت عن معناها الحقيقي لتؤدي معاني أخرى لها علاقة بالاستعطاف .
7. كانت الصور الفنية بمجملها صوراً تقليدية إلا أن الباحث لا يعدم جديداً فيها ، كما أن الشعراء لم يقتصروا بحراً بذاته أو قافية بعينها لنظم أشعارهم الاستعطافية ، بل كانت البحور والقوافي الأكثر استخداماً في الشعر عامة هي التي أكثر الشعراء المستعطفون من استخدامها . كذلك حاول الشعراء المستعطفون توظيف الخيال الأدبي والمحسنات اللفظية والمعنوية لتحقيق الهدف الذي ينشدونه ، واستلهم الشعراء التراث في أشعارهم الاستعطافية وتأثروا بالقرآن الكريم وبالشعر القديم لا سيما المشرقيّ منه .
8. توصلتُ إلى نتائج ثانوية في البحث منها : السبب الذي من أجله سُجن ابن زيدون أشهر الشعراء المستعطفين ومدة سجنه ، ومحاولة إثبات أن القصيدة الميمية ليست جزءاً من رسالته الجدية ، كما حاولتُ بيان الأسباب التي جعلت ابن زيدون يخفق في استعطاف ابن جهور ، وسبب القطيعة بينه وبين محبوبته ، كما لخصتُ قصة ابن عمار مع المعتمد بن عباد معتمداً في ذلك على المصادر الأدبية ، كذلك حاولتُ إثبات أن المعتمد استعطف سجنانه تلميحاً ، الأمر الذي أنكره الباحثون من قبل .
- وفي الختام ، فتلك عصارة أحببتُ أن أختتم بها البحث الذي أسألُ الله أن أكون قد

وَفَقْتُ فِي تَقْدِيمِهِ وَإِعْطَائِهِ مَا يَسْتَحِقُّ مِنَ الْجُهْدِ وَالدراسة ، وَأَسْأَلُهُ تَعَالَى أَنْ أَكُونَ مَمَّنْ
يَجْتَهِدُ وَيَصِيبُ إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى
أَشْرَفِ الْمُرْسَلِينَ .

قائمة المصادر

- القرآن الكريم
- ابن الأبار أبو عبد الله محمد بن عبد الله
- إعتاب الكتاب - تحقيق صالح الأستر ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ط1 ، 1380 هـ ، 1961 م .
- الحلة السيرة ، تحقيق حسين مؤنس ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1963 م .
- الإشبهي أبو الفتح شهاب الدين محمد بن أحمد .
- المستطرف في كل فن مستظرف ، تحقيق سعيد محمد اللحام ، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط1 ، 1419 هـ - 1999 م .
- ابن الأثير علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني .
- أسد الغابة في معرفة الصحابة (انتشارات إسماعيليان - تهران) ، (د.ت) .
- الكامل في التاريخ ، دار صادر - بيروت ، 1399 هـ - 1979 م ، وطبعة 1402 هـ - 1982 م .
- الأدريسي الشريف أبو عبد الله بن إدريس .
- عالم الكتب - بيروت ، ط1 ، 1409 هـ - 1989 م .
- إسماعيل أبو الفدا عماد الدين .
- المختصر في أخبار البشر ، المطبعة الحسينية ، مصر ، ط1 ، 1907 م .
- الأصفهاني أبو الفرج علي بن الحسين بن حمد .
- الأغاني ، طبعة دار الكتب العلمية ، القاهرة ، ط1 ، 1346 هـ - 1928 م ، وطبعة مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، بيروت ، 1389 هـ - 1970 م .
- ابن بسام الشنتيري أبو الحسن علي .
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ط1 ، 1399 هـ - 1979 م .
- ابن بشكوال أبو القاسم خلف بن عبد الملك .
- الصلة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ط1 ، 1966 م .
- البغدادي عبد القادر بن عمر .
- خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، (د.ت) .

- البكري الأندلسي عبد الله بن عزيز .
- معجم ما أستعجم ، تحقيق مصطفى السقا ، عالم الكتب ، بيروت ، ط2 ، 1403هـ-1983م .
- البلاذري أحمد بن يحيى بن جابر .
- أنساب الأشراف ، تحقيق محمد باقر المحمودي ، دار التعارف ، بيروت ، (د.ت) .
- ابن بنين الدقيقي سليمان .
- اتفاق المباني واقتراق المعاني ، تحقيق يحيى عبد الرؤوف جبر ، دار عمار للنشر والتوزيع ، عمان ، ط1 ، 1405هـ-1985م .
- أبو تمام حبيب بن أوس الطائي .
- ديوانه ، شرح الخطيب القزويني ، تحقيق محمد عبده عزام ، دار المعارف ، مصر ، (د.ت) .
- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر .
- البيان والتبيين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (د.ت) .
- ابن الجهم علي
- ديوانه ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، (د.ت) .
- ابن حداد الأندلسي
- ديوانه ، تحقيق يوسف علي الطويل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1410هـ-1990م .
- ابن حزم الأندلسي أبو أحمد علي بن أحمد بن سعيد .
- طوق الحمامة في الألفاظ والآلاف ، تحقيق فاروق سعد ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت ، (د.ت) .
- الحطيئة جرول بن أوس
- ديوانه ، شرح أبي سعيد السكري ، دار صادر ، بيروت ، ط1 ، 1387هـ-1867م .
- ابن حكيم القضاة أبو عبد الله محمد بن سلامة .
- فذلكلة التواريخ ، تحقيق عبد الرحيم محمد عبد الحميد ، دار البشير ، عمان ، ط1 ، 1419هـ .
- ابن حنبل الإمام أحمد
- مسند الإمام أحمد ، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر ، بيروت ، (د.ت) .
- الحميدي أبو عبد الله محمد بن فتوح .

- جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس ، تحقيق إبراهيم الأنباري ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، 1403هـ-1983م .
- جذوة المقتبس في نكر ولاية الأندلس ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، مكتب نشر الثقافة الإسلامية ، القاهرة ، ط1 ، 1372هـ-1952م .
- ابن خاقان الفتح .
- فلاند العقيان ، المطبعة الخديوية ، القاهرة ، 1866م . ٥٨٢١٥٤
- مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس ، تحقيق محمد علي شوابكة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط1 ، 1403هـ-1983م .
- الخطيب البغدادي ، الحافظ بن علي .
- تاريخ بغداد ، المكتبة السلفية ، المدينة المنورة ، (د.ت) .
- ابن الخطيب لسان الدين .
- الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، الشركة المصرية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط1 ، 1397هـ-1977م .
- أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلال ، تحقيق ليفي بروفنسال ، دار المكشوف ، بيروت ، ط2 ، 1956م .
- ابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد بن حمد .
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، (د.ت) .
- الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق مأمون صاغرجي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط7 ، 1410هـ-1990م .
- ابن رشيقي القيرواني
- ديوانه ، شرح صلاح الدين الهواري ، دار الجيل ، بيروت ، ط1 ، 1416هـ-1996م .
- العمدة في صناعة الشعر ونقده ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، ط5 ، 1401هـ-1981م ، وطبعة مطبعة حجازي ، القاهرة ، ط1 ، 1353هـ-1934م .
- ابن الرومي
- ديوانه ، شرح أحمد بسج ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1415هـ-1994م .
- الزبيدي محمد بن محمد الحسيني
- إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1989م .

- الزبيدي محمد مرتضى
- تاج العروس من جواهر القاموس ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، (د.ت) .
- الزمخشري جار الله محمود بن عمر
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، (د.ت) .
- ابن زيدون
- ديوانه ، شرح وتحقيق كرم البستاني ، دار صادر ، بيروت ، ط1 ، 1975م.
- ديوانه ورسائله ، تحقيق علي عبد العظيم ، مكتبة نهضة مصر ، 1957م .
- ابن سعيد الأندلسي علي .
- رايات المبرزين وغايات المميزين ، تحقيق النعمان بن عبد المتعال ، مطابع الأهرام ، القاهرة ، 1393هـ-1973م .
- ابن سعيد المغربي .
- المغرب في حلى المغرب ، تحقيق شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط2 ، (د.ت).
- ابن شرف القيرواني محمد .
- رسائل الانتقاد في نقد الشعر والشعراء ، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ط1 ، 1983م .
- ابن عبد به الأندلسي ، شهاب الدين أحمد .
- العقد الفريد ، تحقيق عبد المجيد الرحيني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1983م.
- ابن عبد الملك الأنصاري .
- الذيل والتكملة في كتابي الموصول والصلة ، تحقيق احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت (د.ت) .
- ابن عذارى المراكشي .
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق ج.س كولان وليفي بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت ، ط2 ، 1983م .
- العماد الأصفهاني .
- خريدة القصر وجريدة العصر ، تحقيق عمر الدسوقي ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر (د.ت) .
- خريدة القصر وجريدة العصر ، تحقيق محمد المرزوقي ، الدار التونسية للنشر ، 1966م.

- ابن عماد الحنبلي عبد الحي .
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، (د.ت) .
- ابن عمران العبدي محمد .
- العفو والاعتذار ، تحقيق عبد القدوس ابو صالح ، دار البشير ، (د.م) ، ط3 ، 1414هـ-1993م .
- ابن عميرة الضبي أحمد بن يحيى ، دار الكتاب العربي ، (د.م) ، 1967م .
- ابن فارس أبو الحسين أحمد .
- الصحابي في فقه اللغة ، المكتبة السلفية ، القاهرة ، 1328هـ .
- مقاييس اللغة ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، 1369هـ .
- أبو فراس الحمداني
- ديوانه ، شرح ابن خالويه ، تحقيق سامي الدهان ، (د.ن) ، بيروت ، (د.ت) .
- ابن قتيبة الدينوري عبد الله بن مسلم .
- الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، مصر ، 1966م .
- القلقشندي .
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، المطبعة المنيرية ، القاهرة ، 1331هـ-1913م .
- ابن ماجه الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني .
- السنن ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الفكر ، (د.م) ، (د.م) .
- المنتبى أبو الطيب أحمد بن الحسين الكندي .
- العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ، شرح ناصيف اليازجي ، (د.ن) ، 1887م .
- المنقب العبدي
- ديوانه ، جمع وتحقيق حسن حمد ، دار صادر ، بيروت ، ط1 ، 1996م .
- المرزباني محمد بن عمران بن موسى .
- معجم الشعراء ، تحقيق عبد الستار فراج ، دار إحياء الكتب ، (د.م) ، 1960م .
- ابن المعتز عبد الله .
- طبقات الشعراء ، تحقيق عبد الستار فراج ، دار المعارف ، مصر ، ط4 ، (د.ت) .
- المقري أحمد بن محمد .
- نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1388هـ-1968م .
- ابن منظور المصري أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم .

- أبو نواس في تاريخه وشعره ومبائله وعبئه ومجونه ، تحقيق محمد سعيد كمال ، مكتبة المعارف ، بيروت ، 1969م .
- لسان العرب ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ، 1956م .
- ابن موسى الأندلسي أبو الحسن علي .
- نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، تحقيق نصرت عبد الرحمن ، مكتبة الأقصى ، عمان ، ط1 ، 1982م .
- النابغة الذبياني
- شرح ديوانه ، تقديم وتعليق سيف الدين بركات واحمد عصام الكاتب دار مكتبة الحياة، بيروت ، ط1 ، 1989م .
- النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب .
- نهاية الأرب في فنون الأدب ، المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والنشر والطباعة ، (دم) ، (دت) .
- ابن هشام المعافري أبو محمد عبد الملك .
- السيرة النبوية ، شرح وتحقيق مصطفى السقا وآخرون ، مطبعة مصطفى الحلبي ، مصر، 1355هـ-1936م .
- ياقوت الحموي شهاب الدين أبو عبد الله .
- معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، 1374هـ-1955م .

قائمة المراجع

- أدهم علي
- المعتمد بن عباد ، مكتبة مصر ، (د.ت) .
- أنيس إبراهيم
- موسيقى الشعر ، مطبعة الأنجلوالمصرية ، القاهرة ، ط5 ، (د.ت) .
- بالنثيا أنخل
- تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، (د.ت) ، القاهرة ، 1955م .
- الببتوني محمد لبيب
- رحلة الأندلس ، مطبعة مصر ، ط2 ، (د.ت) .
- البستاني بطرس
- أدباء العرب ، دار مارون عبود ، بيروت ، 1979م .
- بهجت ، منجد مصطفى
- الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط1 ، 1407هـ-1986م .
- بريس هنري
- الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ، ترجمة الطاهر أحمد مكي ، مطبعة دار المعارف ، مصر ، ط1 ، 1408هـ-1988م .
- تايه خضر
- شعراء حول الرسول صلى الله عليه وسلم ، دار البشير ، عمان ، ط1 ، 1419هـ-1998م .
- جبر يحيى عبد الرؤوف
- نصوص في إعداد البحوث وتحقيق المخطوطات ، دار الكتاب الجامعي ، نابلس ، 1413هـ-1993م .
- الجبوسي سلمى الخضراء ، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط1 ، 1988م .
- الحجي عبد الرحمن علي
- التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة ، دار القلم ، دمشق ، ط4 ، 1415هـ-1994م .
- الحر عبد المجيد

- ابن زيدون شاعر العشق والحنين ، دار الكتب العربية ، بيروت ، ط1 ، 1413هـ-1993م .
- حسن حسن جاد
- ابن زيدون عصره ، حياته ، أدبه ، المطبعة المنبرية ، مصر ، 1375هـ-1955م .
- حميد بدير متولي
- قضايا أندلسية ، دار المعرفة ، مصر ، ط1 ، 1964م .
- أبو خشب إبراهيم علي
- تاريخ الأدب العربي في الأندلس ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1966م .
- خضر فتحي
- دراسات أدبية ونحوية ، دار الأرقم ، رام الله ، ط1 ، 1987م .
- الخطيب رشا عبد الله
- تجربة السجن في الشعر الأندلسي ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، 1999م .
- الداية محمد رمضان
- مختارات من الشعر الأندلسي ، المكتب الإسلامي ، دمشق ، 1969م .
- الدقاق عمر
- ملامح الشعر الأندلسي ، دار الشرق ، بيروت ، ط1 ، 1975م .
- الركابي جودت
- في الأدب الأندلسي ، دار المعارف ، مصر ، ط2 ، (دون) .
- الشكعة مصطفى .
- الأدب الأندلسي ، موضوعاته وفنونه ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط5 ، 1983 .
- فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ، مطبعة المعرفة ، مصر ، 1378هـ-1958م .
- شلبي سعد إسماعيل
- البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، (د.ت) .
- الصالح صبحي
- دراسات في فقه اللغة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط1 ، 1994م .
- ضيف شوقي .
- تاريخ الأدب العربي ، العصر الإسلامي ، دار المعارف ، مصر ، ط7 ، (د.ت) .
- تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي ، دار المعارف ، مصر ، ط7 ، (د.ت) .
- ابن زيدون ، دار المعارف ، مصر ، ط5 ، (د.ت) .
- ضيف أحمد .

- بلاغة العرب في الأندلس ، مطبعة الاعتماد ، مصر ، ط2 ، 1356هـ-1938م .
- الطباع عبد الله أنيس
- القطوف الياضعة من ثمار جنة الأندلس الدانية ، دار ابن زيدون ، ط1 ، 1406هـ-
- 1986م .
- عباس فضل حسن .
- البلاغة ، فنونها وأفنانها ، علم البيان والبدیع ، دار الفرقان ، عمان ، ط1 ، 1407هـ-
- 1987م .
- البلاغة ، فنونها وأفنانها - علم المعاني ، دار الفرقان ، عمان ، ط21 ، 1405هـ-
- 1985م .
- عتيق عبد العزيز .
- الأدب العربي في الأندلس ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط2 ، 1976م .
- في البلاغة العربية ، علم البيان ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط1 ، 1974م .
- في البلاغة العربية ، علم المعاني ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط1 ، 1974م .
- عطوي علي نجيب
- النابغة الذبياني ، شاعر المدح والاعتذار ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ،
- 1411هـ-1990م .
- أبو عمشة عادل
- العروض والقافية ، مكتبة خالد بن الوليد ، نابلس ، ط1 ، 1406هـ-1986م .
- غريال محمد شفيق
- الموسوعة العربية الميسرة ، دار الجيل ، مصر ، 1416هـ-1995م .
- غومس أميليو غرسية ، ترجمة حسين مؤنس ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ،
- ط2 ، 1956م .
- الفاخوري حنا
- الجامع في تاريخ الأدب العربي ، المكتبة البوليسية ، بيروت ، (د.ت).
- فروخ عمر
- تاريخ الأدب العربي ، دار العلم للملايين ، ط4 ، 1997م .
- قزيحة رياض
- الفكاهة في الأدب الأندلسي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط1 ، 1418هـ-1998م .
- المجذوب عبد اللطيف
- المرشد إلى فهم أشعار العرب ، (د.ن) ، ط1 ، 1955م .

- مرعشلي نديم
- ابن زيدون ، دار الشرق الجديد ، بيروت ، ط1 ، 1961م .
- المعجم الوسيط ، دار المعارف ، مصر ، 1972 .
- المنجد في اللغة والأعلام ، دار المشرق ، بيروت ، ط27 ، 1984م .
- نوفل سيد
- شعر الطبيعة في الألب الأندلسي ، دار المعارف ، مصر ، ط2 ، (د.ت).
- الهاشمي أحمد
- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، دار الكتب العلمية ، مصر ، ط6 ، (د.ت) .
- هواري سيد
- دليل الباحثين في كتابة التقارير ورسائل الماجستير والدكتوراه ، مكتبة عين شمس ، القاهرة ، 1980م .
- هلال محمد غنيمي
- النقد الأدبي الحديث ، دار العودة ، بيروت ، ط1 ، 1987م .
- والي فاضل فتحي محمد
- الفتن والنكبات الخاصة وأثرها في الشعر الأندلسي ، دار الأندلس للنشر والتوزيع ، حائل السعودية ، ط1 ، 1417هـ-1996م .

الملاحق

- ملحق (1) : فهرس الشعراء والأعلام والقبائل .
- ملحق (2) : فهرس البلدان والأمكنة .
- ملحق (3) : فهرس الآيات القرآنية .
- ملحق (4) : الأمويون في الأندلس .
- ملحق (5) : دويلات الطوائف في الأندلس ، وخريطة
تبيّن مواقعها .

ملحق (1) : فهرس الشعراء والأعلام والقبائل :

<p>بثينة محبوبية جميل : 88 . البربر : 63 ، 64 . ابن بسام الشنتيري : 69 ، 90 . أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - : 194 .</p>	<p>أ ابن الأبار ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله : 183 . إبراهيم - عليه السلام - : 192 . أبرويز كسرى الفرس نغم على النعمان ابن المنذر ، وألقاه تحت أرجل الفيلة : 10 . ابن أبي البشر أبو الحسن علي بن عبد الرحمن من شعراء صقلية : 104 ، 105 ، 106 ، 132 ، 157 ، 174 ، 181 ، 184 . ابن الأثير علي بن محمد بن عبد الكريم : 64 . الأحوص عبد الله بن محمد الأنصاري شاعر أموي توفي عام 105هـ : 20 . أرسطوطاليس فيلسوف يوناني 384 - 322 ق.م : 111 .</p>
<p>ت ابن تاشفين ، أبو يعقوب يوسف أمير المرابطين : 5 ، 50 ، 63 ، 64 ، 65 ، 66 ، 67 ، 68 ، 69 ، 87 ، 114 ، 116 ، 146 . أبو تمام ، حبيب بن أوس الطائي : 24 ، 195 . تميم بن جميل ، شاعر عباسي : 23 .</p>	<p>ابن أزرق أبو العلاء إدريس شاعر من مرسية : 77 ، 78 ، 82 ، 155 . بنو أسد ، أحلاف ذبيان في حروبها مع الغساسنة : 10 . الاسكندر الأكبر (المقدوني) : 111 . إسماعيل بن المعتضد عبّاد : 108 ، 115 . اعتماد الرميكية زوج المعتمد بن عبّاد : 57 ، 63 ، 64 . أفلاطون فيلسوف يوناني 430 - 347 ق.م : 111 . بنو الأفتس ، حكّام بطليوس : 3 . ابن أفلح أبو بكر مسلم بن أحمد بن أفلح النحوي : 46 ، 47 ، 136 . ألفونسو الأذفونش حاكم قشتالة : 63 . بنو أمية : 21 ، 32 . إياس بن معاوية : 124 . أيوب - عليه السلام - : 71 ، 84 .</p>
<p>ج جابر بن المعتضد عبّاد : 108 ، 111 ، 115 . جيلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة ، أسلم في خلافة عمر بن الخطاب ثم ارتد : 10 . جرير بن عطية : 20 . الجزيري عبد الملك بن إدريس : 26 . جفنة بن عمرو أول ملوك الغساسنة : 10 . جميل بن معمر : 88 . جهور بن محمد بن جهور أبو الحزم 364 - 435هـ حاكم قرطبة : 3 ، 32 ، 33 ، 34 ، 35 ، 36 ، 37 ، 38 ، 39 ، 40 ، 41 ، 43 ، 44 ، 47 ، 48 ، 49 ، 84 ، 119 ، 121 ، 122 ، 123 ، 124 ، 125 ، 136 ، 145 ، 147 ، 166 ، 171 ، 173 ، 179 ، 180 ، 183 ، 186 ، 187 ، 194 ، 199 . بنو جهور ، حكّام قرطبة : 3 ، 120 . جودت الركابي : 91 .</p>	<p>ب باديس بن حبّوس ، حاكم مالقة : 108 .</p>
<p>ح الحارث بن أبي شمّر الغساني : 14 . الحارث بن جيلة الغساني : 11 . ابن حداد ، أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن عثمان ، شاعر أندلسي، توفي عام 480هـ :</p>	

ابن رزين ، حاكم السهلة : 4 .

الرشيد بن المعتمد : 52 ، 53 ، 55 ، 59 ،
61 ، 114 ، 115 ، 120 ، 123 ، 155 ، 173 ،
190 .

الرشيد ، هارون : 22 ، 24 ، 52 .

ابن رشيق القيرواني : 57 .

ابن رشيق ، عبد الرحمن ، حاكم مرسية :
58 ، 78 ، 82 .

ابن الرومي : 194 .

ريموند كونت برشلونة : 52 .

ز

الزبرقان بن بدر - رضي الله عنه - ،
صحابي ، توفي عام 45هـ : 18 .

ابن زيدون ، أبو الوليد أحمد بن عبد الله 394
- 463هـ : 32 ، 33 ، 34 ، 35 ، 38 ، 41 ،

43 ، 44 ، 45 ، 46 ، 48 ، 49 ، 81 ، 83 ،

85 ، 86 ، 88 ، 89 ، 90 ، 91 ، 92 ، 96 ،

100 ، 101 ، 102 ، 106 ، 107 ، 119 ،

121 ، 122 ، 123 ، 124 ، 127 ، 130 ، 131 ،

134 ، 136 ، 137 ، 140 ، 141 ، 142 ،

143 ، 147 ، 153 ، 155 ، 156 ، 157 ، 159 ،

160 ، 161 ، 185 ، 186 ، 187 ، 188 ،

191 ، 192 ، 194 ، 195 ، 196 ، 199 .

بنو زيزي ، حكام غرناطة : 3 .

س

السامري ، أضل بني إسرائيل ، ودعاهم إلى
الشرك لما خرج موسى عليه السلام لمناجاة
ربه : 41 ، 43 ، 193 .

السعيد ، أبو الحسن : 29 .

سكري زوج المستكفي بالله وأم ولادة : 88 .

سليمان بن عبد الرحمن الداخل : 25 .

سليمان بن عبد الملك ، خليفة أموي من 96-

99هـ : 20 ، 21 .

سيد نوفل : 98 .

78 ، 102 ، 104 ، 106 ، 131 ، 147 ، 148 ،

155 ، 156 ، 158 ، 162 ، 181 ، 182 .

الحسين بن علي بن أبي طالب - رضي الله
عنه - : 19 .

الخطيب أبو مليكة جرول بن أوس شاعر
مخضرم توفي عام 45هـ : 18 .

الحكم الثاني (المستنصر) آخر خلفاء بني
أمية الأندلسيين الأقوياء : 2 ، 27 .

حليمة (يوم) انتصر فيه الغساسنة على
المناذرة عام 554م ، وحليمة التي نسب إليها
هذا اليوم هي ابنة الحارث بن جبلة ملك
الغساسنة : 11 .

ابن الحنّاط ، محمد بن سليمان الرعيني ،
شاعر أندلسي توفي عام 437هـ : 145 ،
156 ، 185 .

أبو حنيفة ، النعمان بن ثابت 80 - 150هـ :
112 .

خ

الخليل بن أحمد الفراهيدي : 100 - 170هـ :
111 .

ذ

أبو ذؤيب الهذلي : 196 .

ذبيان : 10 ، 11 .

ابن ذي النون ، المأمون ، ملك طليطلة : 70 ،
71 ، 72 ، 87 .

بنو ذي النون ، حكام طليطلة : 3 .

ر

ابن راشد ، أبو الفضل مشرف ، شاعر أندلسي
: 104 ، 105 ، 106 ، 132 ، 157 ، 174 ،
181 ، 184 .

الراضي بن المعتمد 440-484هـ : 111 ،
112 ، 113 ، 115 ، 122 ، 137 ، 158 ، 166 ،
169 ، 172 .

ابن سيده ، أبو الحسن علي بن إسماعيل ،
توفي عام 458هـ — : 76 ، 86 ، 123 ، 155 ،
157 ، 167 ، 184 .
سيف الدولة الحمداني : 23 ، 24 .

ش

شأس أخو علقمة الفحل : 14 .
ابن شرف ، محمد القيرواني : 57 .

ص

صبيح ، زوج الخليفة الحكم المستنصر : 2 .

ط

ابن طاهر ، حاكم مرسية : 4 ، 56 .

ع

عاصم بن زيد ، أبو المخشي ، شاعر أندلسي
: 25 .

عامر بن الظرب : 194 .

عبد الرحمن بن الحكم بن عبد الرحمن
الداخل : 52 .

عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) : 25 .

عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر
(شنجول) : 2 .

عبد الله بن الزبيرى - رضي الله عنه - ،

صحابي ، توفي عام 15هـ : 15 .

عبد الله بن همام السلولي : 196 .

عبد الملك بن مروان ، خليفة أموي من 65 -

86هـ : 21 .

ابن عبدوس ، أبو عامر ، منافس ابن زيدون

في حب ولادة ، توفي عام 472هـ : 33 ،

91 ، 98 ، 101 ، 102 ، 170 .

عبيد الله بن زياد بن أبيه : 19 ، 20 .

عبد العزيز عتيق : 8 .

علقمة بن عبدة (الفحل) : 14 .

علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - : 9 .

علي بن الجهم ، شاعر عباسي : 195 ، 196 .

علي بن مجاهد العامري (إقبال الدولة) حاكم

دانية : 76 ، 123 .

عمر الدقاق : 91 .

عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : 18 ،

19 .

عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - ،

خليفة أموي من 99 - 101هـ : 20 ، 21 .

عمرو بن الحارث الغساني ، ملك الغساسنة :

10 ، 11 .

عمرو بن هند ، ملك المناذرة : 15 .

ابن عمار أبو بكر محمد 422 - 477هـ : 50 ،

51 ، 52 ، 53 ، 54 ، 55 ، 56 ، 57 ، 58 ،

59 ، 60 ، 61 ، 62 ، 63 ، 81 ، 82 ، 83 ،

87 ، 108 .

120 ، 121 ، 122 ، 123 ، 125 ، 126 ،

138 ، 142 ، 144 ، 153 ، 155 ، 156 ، 157 ،

161 ، 163 ، 165 ، 166 ، 169 ، 170 ،

171 ، 172 ، 173 ، 174 ، 175 ، 176 ، 181 ،

183 ، 184 ، 190 ، 191 .

عنقرة بن شداد : 88 .

عيسى - عليه السلام - : 158 .

غ

الغساسنة (آل جفنة) : 10 ، 11 .

ابن غصن الحجاري ، أبو مروان عبد الملك ،

شاعر أندلسي توفي عام 454هـ : 69 ، 70 ،

72 ، 81 ، 87 ، 139 ، 155 ، 156 ، 182 ،

188 ، 189 ، 195 .

ف

فاتك الأسدي ، قتل المتبّي عام 354هـ : 24 .

الفتح بن المعتمد (المأمون) : 59 ، 122 ،

146 ، 155 ، 166 .

الفجار (حرب) نشبت بين قريش وهوازن

في الأشهر الحرم .

أبو فراس ، الحارث بن سعيد بن حمدان

المختار الثقفي ، قتل عبيد الله بن زياد عام 67هـ : 19 .	الحمداني 320 - 357هـ : 23 . الفرزدق : 20 .
المرابطون ، دولة إسلامية بربرية قامت في المغرب بين سنوات 1053 - 1147م : 50 ، 51 ، 52 ، 53 ، 54 ، 55 ، 56 ، 57 ، 58 ، 59 ، 60 ، 62 ، 63 ، 81 ، 82 ، 83 ، 87 ، 108 .	الفكيك ، أبو الحسن البغدادي ، شاعر وفد على الأندلس من الشرق : 79 ، 87 ، 126 ، 155 ، 156 ، 169 ، 187 ، 191 ، 196 .
محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : 8 ، 15 ، 16 ، 17 ، 194 .	ق أبو قابوس ، الشاعر : 24 . القطب : 47 . قريش : 17 ، 37 . قيس بن الملوح (مجنون ليلى) : 88 .
مرجانة : 19 . مروان بن الحكم ، خليفة أموي من 64 - 65هـ : 21 .	ك كعب بن زهير - رضي الله عنه - ، صحابي : 16 ، 17 . بنو كلاب : 24 . الكميت بن زيد الأسدي : 60 ، 126 .
المستكفي بالله ، الخليفة الأموي قبل الأخير في الأندلس : 88 .	ل لخم : 11 . ابن اللبانة ، أبو بكر محمد بن عيسى بن محمد اللخمي : 72 ، 74 ، 81 ، 83 ، 87 ، 155 ، 170 ، 179 ، 180 . ليلى محبوبة قيس : 88 .
مسيلمة الكذاب : 37 ، 194 . المصحفي ، أبو الحسن جعفر بن عثمان ، توفي عام 372هـ : 27 .	م المأمون ، ينظر ابن ذي النون . مالك بن طوق : 24 . مبشر بن سليمان ، ناصر الدولة ، حاكم ميورقة : 74 ، 75 . المتنبي ، أبو الطيب أحمد بن الحسين الكندي 303 - 354هـ : 195 . المتوكل على الله حاكم بطليوس : 4 ، 72 ، 73 ، 74 ، 76 . المتقب العبيدي ، العائذ بن محسن : 15 . مجاهد بن عبد الله العامري أبو الجيش الموفق ، حاكم دانية ، توفي عام 436هـ : 76 .
المظفر بن منصور بن أبي عامر : 2 ، 26 . معاوية بن أبي سفيان ، خليفة أموي من 41 - 60هـ : 18 ، 21 .	
معاوية الثاني بن يزيد ، خليفة أموي ، حكم أقل من سنة ، ثم اعتزل عام 64هـ : 21 .	
المعتصم العباسي : 23 . المعتصم بن صُمداح ، أبو يحيى محمد بن معن ، حاكم المرية ، توفي عام 484هـ : 78 ، 79 ، 147 ، 148 ، 181 .	
المعتضد بالله عبّاد بن محمد ، حاكم إشبيلية من 433 - 461هـ : 4 ، 32 ، 50 ، 52 ، 56 ، 57 ، 86 ، 108 ، 109 ، 115 ، 120 .	
المعتمد على الله ، أبو القاسم محمد بن عبّاد ، ويلقب أيضاً بالظافر وبالمؤيد ، 431 - 488هـ حاكم إشبيلية : 4 ، 50 ، 52 ، 53 ، 54 ، 55 ، 56 ، 57 ، 58 ، 59 ، 60 ، 61 ، 62 ، 63 ، 64 ، 65 ، 66 ، 67 ، 68 ، 69 ، 70 ، 72 ، 74 ، 79 ، 80 ، 81 ، 82 ، 84 ، 85 ، 86 ، 87 ، 108 ، 109 ، 110 ، 111 .	

32 . هشام بن عبد الرحمن الداخل : 25 . هشام بن عبد الملك ، خليفة أموي من 105 - 125هـ : 21 . هوازن ، اقتتلت مع قريش في حرب الفجار : 38 . بنو هود ، حكام سرقسطة : 3 .	114 ، 115 ، 116 ، 120 ، 121 ، 122 ، 123 ، 124 ، 125 ، 126 ، 137 ، 138 ، 139 ، 144 ، 146 ، 154 ، 156 ، 157 ، 161 ، 165 ، 166 ، 168 ، 177 ، 183 ، 184 ، 187 ، 199 . المقتدر بن هود ، حاكم سرقسطة : 58 . المقري ، أحمد بن محمد التلمساني : 90 . المناذرة : 10 ، 11 . المنذر بن ماء السماء (الثالث) ، قتله الغساسنة في يوم حليلة سنة 554م : 11 . المنصور ، أبو جعفر : 112 . المنصور ، الحاجب محمد بن أبي عامر ، أمير الأندلس ، توفي عام 393هـ : 2 ، 26 ، 27 . موسى - عليه السلام - : 41 ، 46 ، 47 ، 192 ، 193 .
و والبة بن الحباب : 22 . ولادة بنت المستكفي بالله : 33 ، 46 ، 88 ، 89 ، 90 ، 91 ، 92 ، 171 ، 174 . أبو الوليد بن جهور ، حاكم قرطبة : 47 ، 145 ، 156 ، 185 .	ن النابغة الذبياني ، أبو أمامة زياد بن معاوية ، شاعر جاهلي ، توفي عام 604م : 10 ، 11 ، 13 ، 14 ، 15 . النعمان بن المنذر ، توفي سنة 608م : 10 ، 11 ، 12 ، 13 ، 14 ، 15 . أبو نواس ، الحسن بن هانئ : 22 . نوح - عليه السلام - : 71 ، 84 . نويرة (محبوبة ابن حداد) : 102 ، 104 ، 131 . النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب : 8 .
ي يزيد بن عبد الملك ، خليفة أموي من 101 - 105هـ : 21 . يزيد بن معاوية ، خليفة أموي من 60 - 64هـ : 196 . يزيد بن المعتمد : 146 . يعقوب - عليه السلام - : 71 ، 81 ، 84 ، 143 . يوسف - عليه السلام - : 35 ، 81 ، 84 ، 143 . يونس (ذو النون) - عليه السلام - : 80 .	هـ بنو هاشم : 16 ، 21 . أبو هاشم بن المعتمد : 67 ، 69 . هشام الثاني (المؤيد) : 2 ، 26 ، 27 . هشام الثالث (المعتد بالله) ، آخر الخلفاء الأمويين في الأندلس ، عُزل عام 422 : 2 ،

ملحق (2) : فهرس البلدان والأمكنة :

	أ
دمشق : 20 .	الأندلس ، فتحها المسلمون سنة 92هـ — / 711م ،
دهلك : 20 .	وسقطت غرناطة آخر معاقلهم فيها سنة 897هـ — /
ر	1492م ⁽¹⁾ : 2 ، 3 ، 51 ، 52 ، 56 ، 57 ، 63 ، 79 ،
الرصافة : 130 ، 141 ، 142 .	88 ، 108 ، 126 ، 196 .
رندة : 108 .	إشبيلية (حمص) : 3 ، 32 ، 47 ، 48 ، 50 ، 51 ،
ز	60 ، 72 ، 108 .
الزلاقة ، معركة وقعت عام 479هـ — : 50 ، 63 ،	أغمات : 64 ، 84 ، 114 ، 139 .
66 ، 68 .	إفريقيا : 63 .
الزهراء : 98 ، 130 ، 141 ، 157 .	الأهواز : 22 .
س	ب
سرقسطة : 3 ، 51 ، 58 ، 71 ، 156 .	باجة : 50 .
السهلة : 4 .	برشلونة : 52 .
ش	البصرة : 19 ، 22 ، 111 .
الشام : 24 .	بطلوس : 3 ، 4 ، 72 ، 87 .
شقورة : 58 ، 59 .	بلنسية : 3 ، 70 ، 77 ، 78 .
شلب : 50 ، 51 .	البيرة (غرناطة) : 25 .
شيراز : 24 .	ح
ص	الحبشة : 20 .
صقلية : 104 .	حلب : 24 .
ط	الحيرة : 10 .
طليطلة : 3 ، 4 ، 70 .	خ
	خراسان : 19 .
	د
	دارين : 59 .
	دانية : 72 ، 76 .

(1) مضيق جبل طارق الذي يفصل الأندلس عن المغرب ، يبلغ أدنى عرض له 15 كم ، وعمقه حوالي 450 م ، وكان العرب يطلقون عليه اسم بحر الزقاق .

<p>ن</p> <p>النبتي : 130 ، 141 .</p> <p>نجران : 15 .</p> <p>هـ</p> <p>الهند : 59 .</p> <p>و</p> <p>وادي آسي : 78 .</p> <p>وادي الحجارة : 70 .</p> <p>ي</p> <p>اليمن : 20 .</p>	<p>ع</p> <p>العراق : 24 .</p> <p>العقاب : 130 .</p> <p>عكاظ (سوق) : 10 .</p> <p>عذيباب : 28 .</p> <p>غ</p> <p>غرناطة : 3 ، 70 .</p> <p>ف</p> <p>فارس : 59 .</p> <p>ق</p> <p>قرطبة : 3 ، 26 ، 32 ، 47 ، 48 ، 50 ، 56 ، 60 ، 70 ، 74 ، 89 ، 130 ، 145 .</p> <p>قشتالة : 63 .</p> <p>القيروان : 57 .</p> <p>ك</p> <p>الكوفة : 21 ، 24 ، 112 .</p> <p>م</p> <p>مالقة : 108 ، 145 .</p> <p>مراكش : 63 ، 64 .</p> <p>مرسية (تدمير) : 4 ، 52 ، 55 ، 56 ، 77 ، 78 ، 131 .</p> <p>مصر : 24 ، 75 .</p> <p>المطبق (سجن) : 26 .</p> <p>المغرب : 51 ، 63 ، 114 .</p> <p>مكة المكرمة : 15 ، 17 .</p> <p>مكناسة : 114 .</p> <p>المرية : 78 ، 108 .</p> <p>مبورقة : 74 ، 75 ، 87 .</p>
--	--

ملحق (3) : فهرس الآيات القرآنية الكريمة⁽¹⁾ :

- (1) (ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً) . النحل : آية 92 ، ص 80 .
- (2) (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً) . الإسراء : آية 24 ، ص 116 .
- (3) (ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله) . الحج : آية 9 ، ص 7 .
- (4) (وأولئك يدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً) . الفرقان : آية 70 ، ص 18 .
- (5) (وآخرين مقرنين بالأصفاد) . سورة ص : آية 48 ، ص 80 .
- (6) (فظاف عليها طائف من ربك وهم نائمون* فأصبحت كالصريم) . القلم : آية 19 - 20 ، ص 192 .

(1) حسب ترتيب السور في القرآن الكريم .

ملحق (4) : الأمويون في الأندلس :

عصر الإمارة :

1. عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (الداخل) 138هـ .
2. هشام بن عبد الرحمن (الرضا) 172هـ .
3. الحكم بن هشام (الربضي) 180هـ .
4. عبد الرحمن الثاني بن الحكم (الأوسط) 206هـ .
5. محمد بن عبد الرحمن الثاني 238هـ .
6. المنذر بن محمد 273هـ .
7. عبد الله بن محمد 275هـ .

عصر الخلافة (1):

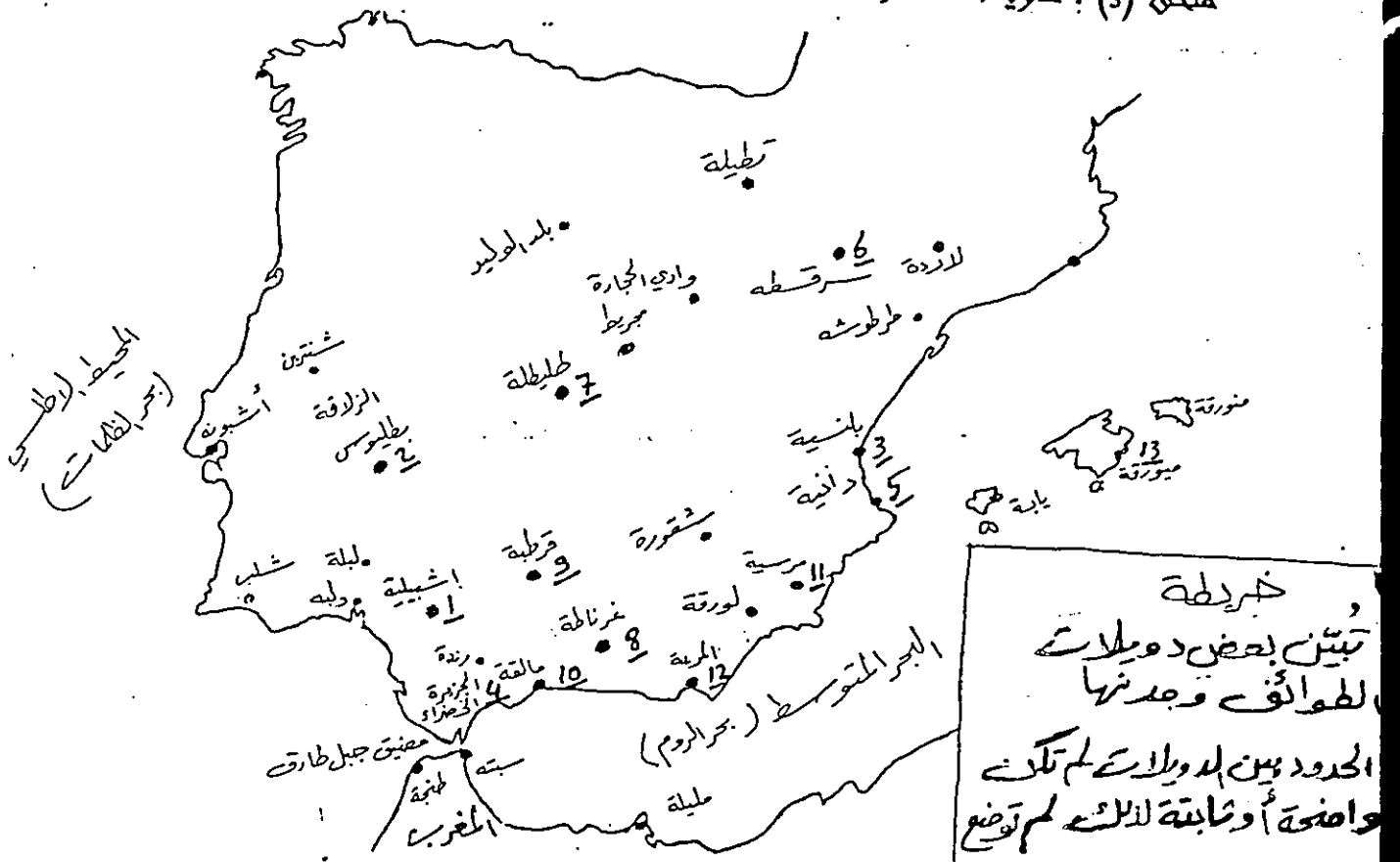
1. عبد الرحمن الثالث (الخليفة الناصر) 300هـ .
2. الحكم الثاني بن عبد الرحمن الثالث (المستصر) 350هـ .
3. هشام الثاني بن الحكم (المؤيد) حكم مرتين 366هـ - 400هـ (2) .
4. محمد الثاني بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الثالث (المهدي) حكم مرتين 399هـ - 400هـ .
5. سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الثالث (المستعين) 400هـ .
6. عبد الرحمن الرابع بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الثالث (المرتضى) 408هـ .
7. عبد الرحمن الخامس بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الثالث (المستظهر) 414هـ .
8. محمد الثالث بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن الثالث (المستكفي) 414هـ .
9. هشام الثالث بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الثالث (المعتد) 418هـ ، آخر الخلفاء الأمويين (3) .

(1) تولى الخلافة خلفاء من البربر غير الخلفاء الأمويين المذكورين .

(2) تولى الخلافة فتى صغيراً ؛ فحجر عليه المنصور بن أبي عامر واستبد بأمر الدولة ؛ فضاعت هيئة الخلافة .

(3) عَزِل عام 422هـ ؛ وبذلك انتهى عصر الخلافة ، وبدأ عصر ملوك الطوائف .

ملحق (5) : دويلات الطوائف في الأندلس ، وخريطة تبين مواقعها :



تفاوتت دويلات الطوائف في المساحة والقوة كما تفاوتت في أعمارها ، فقد كانت القوية منها - أحياناً - تحتوي الضعيفة ؛ لذا فقد اختلف عدد هذه الدويلات من زمن لآخر ، حيث زاد عددها في بعض الأزمان عن خمس وعشرين

دويلة ، وأهم تلك الدويلات :

- (1) إشبيلية : أعظم الدويلات ، حكمها بنو عباد ، ضمت كثيراً من الدويلات الأخرى ، مثل : قرطبة ، ورندة ، وولبة ، وليلة ، والجزيرة الخضراء ، فتحها المرابطون 484هـ .
- (2) بظليوس : حكمها بنو الأظس ، فتحها المرابطون 487هـ .
- (3) بننسية : حكمها العامريون⁽¹⁾ ، سقطت بيد الإسبان ، ثم فتحها المرابطون 495هـ .
- (4) الجزيرة الخضراء : حكمها بنو حمود ، وضمتها إشبيلية 450هـ .
- (5) دانية : حكمها العامريون ، ثم ضمتها سرقسطة 468هـ .
- (6) سرقسطة : حكمها بنو هود ، استولى عليها الإسبان 536هـ .
- (7) طليطلة : حكمها بنو ذي النون ، استولى عليها الإسبان 474هـ .
- (8) غرناطة : حكمها بنو زيري ، فتحها المرابطون 483هـ .
- (9) قرطبة : حكمها بنو جهور ، ثم ضمتها إشبيلية 461هـ .
- (10) مالقة : حكمها بنو حمود ، فتحها المرابطون 483هـ .
- (11) مرسية : حكمها العامريون ، ثم ضمتها إشبيلية 471هـ ، وانفصلت عنها ، فتحها المرابطون 483هـ .
- (12) المرية : حكمها بنو صمادح ، فتحها المرابطون 483هـ .
- (13) ميورقة : حكمها العامريون ، وفتحها المرابطون .

(1) أبناء المنصور بن أبي عامر ومواليه .

An-Najah National University
Faculty of Higher Studies

Supplication in AlAndalusi Poetry
“The Age of Kings of Parties”
(422-484 h)

By
Mohammad Jasser Jabali Ass'ad

Supervised by
Dr. Wa'el Abu-Saleh

This Study is submitted in Partial Fulfillment of the requirements for an M. A degree in Arabic Arts Literature, Faculty of Higher Studies at An-Najah National University

Nablus / Palestine
June, 2003

Abstract

This research included an identification of supplicatory poetry and a pursuit of it during the previous periods starting with the Pre-islamic period and ending with in Abassid's. It also contained a survey of supplicatory poetry that was composed during the age of kings of parties and brief biographies about its composers as well as their incentives for supplication and there styles .

This research also dealt with the objectives which mingled with supplicatory peotry and the destinctive artistic features of that peotry .